
كتابى
١٠ قروش
حلمى مراد
أميرة مصر
(غرام فى بلاط "قمبيز")
وكتب أخرى



الخاطئة الخالدة « مريم المجدلية » تغطى جسمها العارى بشعرها الغزير ، من فرط احساسها بالعار بعد توبتها !

لوحة للرسام « تيسيان » فى متحف (بيتى) بايطاليا



صورة رائعة لتمثال « الملك داود » المقام فى اجمل ميادين (فلورنسا) بايطاليا
للمثال الخالد « ميكيل انجلو »

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر اول كل شهر
صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الحادى والثلاثون (السنة الثالثة) : أكتوبر ١٩٥٤
الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل
الادارة : عمارة الجندول - ١٤ شارع ٢٣ يوليو - بالقاهرة
تليفون ٥٩٥٥٦ و ٦٥٦٠٨

« كتابى » يشترى الاعداد الثلاثة الاولى من القـــراء !

نظرا لالحاح الكثيرين من القراء فى طلب الاعداد الثلاثة الأولى من كتابى ، ولتعذر اعادة طبعها فى الوقت الحاضر ، ولما كان لا يبعد ان يكون لدى البعض اكثر من نسخة من الاعـــداد المذكـورة ٠٠ **فقد رأت ادارة كتابى ان تعلن عن استعدادها لشراء أى عدد من نسخ الاعداد الثلاثة الاولى ، تمهيدا لتمكين من تنقصه الاعداد المذكورة من اقتنائها بعد ذلك من الادارة ٠ فالرجا الاتصال بالمجلة فى هذا الشأن، على أن يكون تسليم النسخ اليها حضوريا أو بالبريد المسجل .**

الاشتراك فى « كتابى »

◆ ترسل جميع الأعداد الى المشـــتركين : فى مصر والسودان بالبريد المسجل ، وفى الخارج بالطائرة ٠ وقيمة الاشتراك فى مصـر والسودان : عن سنة (١٢ عددا) : ١٢٠ قرشا ، وعن نصف سنة (٦ أعداد) ٦٥ قرشا ـ فى الخارج (العراق وسوريا ولبنان والحجاز والأردن ٠٠ الخ) ترسل القيمة بشيك أو بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد MONEY ORDER وتحتسب القيمـــة بمـــا يوازى ١٣٠ قرشا (عن سنة) و ٧٠ قرشا (عن نصف سنة)

عزيزي القارئ ..

رأيت وسمعت لك ... في اوربـــا

◆ **عند** ما فكرت فى اقتناص بضعة أسابيع من الصيف المنصرم ، امنح نفسى فيها قسطا من الراحة التى كنت فى أشد الحاجة اليها ، كان أول ما عاهدت نفسى عليه أن أقضى تلك الاسابيع بعيدا عن جو عملى المرهق الذى عشت فى دوامته طيلة الثلاثين شهرا الماضية .. ومن هنا اخترت أن أقضى عطلتى المرموقة خارج القطر . وكان أملى ، وغاية مشتهاى – ولا أكتمك – أن أنتزع نفسى من (كتابى) ، ومنك ، انتزاعا كاملا لا تشـوبه شائبة من رواسب العمل أو النشاط الذهنى فى أية صورة من صوره !.. كنت أطمع فى « اجازة » حقيقية ، أستمتع فيها بأوفر قسط من « الخمول » الذهنى والنشاط الجسمى ، اللذين طالما حرمنى منهما (كتابى) !

ولكن خاب ظنى .. فان اجازتى المنشودة سرعان ما انقلبت بقدرة قادر الى دوامة من العمل والمجهود الذهنى المتواصل .. ذلك اننى لم أكد أطأ كل أرض زرتها حتى وجدتنى عاجزا عن انتزاع نفسى منك أو انتزاعك من نفسى ! .. واذا كل همى طوال الرحلـة يكاد ينحصر فى أن أقتنص لك كل كتـاب شائق أو صورة جميلة أعثر عليها فى دور النشر والمكتبات الاوربية أثنـاء مرورى عليها .. ثم فى أن أحتفظ فىوعيى ، وأسجل فىخاطرى ومذكراتى، كل شاردة وواردة مما أرى أو أسمع ، كى أنقلها كاملة اليك بعد عودتى ، فأشركك معى فى كل متعة أتذوقها ، وكل احساس يخالجنى ، وكل خاطر يطوف بذهنى .. بل وكل حلم يداعب خيالى !

وهكذا وجدتنى لا أنفك أدون لك ، وأسجل ، أو أختزن فى ذاكرتى ، كل صغيرة وكبيرة من مشاهداتى .. بل انى رحت أبحث وأدرس ، وأنقب عما وراء المرئيات والمظاهر من حقائق ، وخفايا ، ومعلومات ، واحصاءات .. حتى خرجت من رحلتى بدراسة مستفيضة مزودة بمئات الصور عن معالم تلك البلاد ، وشعوبها ، وأحوالها ، وتاريخها .. الخ

ولقد فكرت أثناء ذلك فى أن أجمع هذه المادة الطائلة فى كتاب واحد مستقل – من مطبوعات كتابى – يضم كل ما رأيت وسمعت فى : ايطاليا ، والنمسا ، وسويسرا ، وفرنسا ، واليونان .. لولا انى لم ألبث أن تبينت أن كل بلد من هذه البلاد جدير فى الحقيقة بكتاب كامل ! .. واننى لو جمعتها كلها فى كتاب واحد ، وأطلقت فيه للقلم العنان كى يصف كل شيء ، لزادت صفحات كتاب كهذا على الخمسمائة صفحة ، بل الالف ! كما

انى لو انتظرت حتى أفرغ منه كله ـ الى جانب عملى فى كتابى ـ كى أنشره كاملا على حدة ، لأحوجنى الأمر كى أكتبه ، وأحوجك كى تقرأه ـ الى انتظار قد يبلغ العام ! .. لذلك كله آثرت أن أكتب هذه الفصول وأنشرها تباعا ، على صفحات كتابى ذاته .. ابتداء من العدد القادم باذن الله

مشكلة الشباب أيضا

◆ **وكنت** قد حدثتك فى افتتاحية العدد الماضى عن «مشكلة الشباب» ، وما قيل عن الصلة بين موجة « جرائم الطلبة » التى اجتاحت مصر فى الاشهر الاخيرة ، وبين الكبت الاجتماعى والجنسى الذى يعانى منه الشباب الامرين فى بلاد الشرق ، ولا سيما فى مصر .. وقد طالبتك فى ختام مقالى السالف بأن تبدى رأيك فى هذا الموضوع الشائك المعقد .. ووعدتك من جانبى باستطلاع حلول هذه المشكلة فى البلاد الاخرى وموافاتك بها .. لكن انشغالى بانجاز هذا العدد فى موعده بعد عودتى من الخارج ، فضلا عن حاجتى لمتسع من الوقت لدراسة الردود التى وصلتنى فى هذا الشأن من كثيرين .. يضطراننى الى ارجاء استئناف البحث الى الاعداد القادمة ، كيما تتسنى لى المقارنة فى كل مناسبة ـ وفى موضعها ـ بين شبابنا وشباب البلاد الاخرى ، وكيف يعالج المجتمع ، والدولة ، والاسرة ـ فى كل بلد ـ مشكلات الجيل الناشىء من شبابه ، الذى هو كل عدته للمستقبل

كنز قومى .. تهمله مصر !

◆ **وبمناسبة** السفر ، وحديث السفر ، اذكر اننى عدت من سفرتى مفعم القلب غيرة وحسرة .. غيرة من الدول الاوربية ، جمعاء ، وحسرة على مصر !.. **فقد رأيت تلك الدول تتبارى ، وتتفنن ، فى ابتكار واظهار مفاتنها السياحية فى اطار خلاب ، يجتذب اليها الألوف المؤلفة من السياح فى كل عام ، من كافة أنحاء الارض .. وهى من أجل ذلك تحسن استغلال كل شبر من ارضها وكل مزية من مزاياها ، فلا تترك حتى التافه العادى من معالمها الا وتحيطه بهالة من الاهمية وتنظم اليه الرحلات المغرية المتوالية بأفخر السيارات الكبرى « الأوتوكار » المزودة بميكروفون ودليل ـ أو بالاحرى دليلة واسعة الثقافة ، تتولى شرح كل ما تقع عليه العين خلال الطريق بثلاث لغات رئيسية ، وتروى قصة وتاريخ كل ما تمر به السيارة من دور ومنشآت ، وانهار وجبال** .. ثم تتوقف بك بين الحين والآخر أمام مصنع للخزف ، أو المرجان ، أو الزجاج ، أو العطور ، أو الحلوى ، بحجة رؤية كيفية صنع هذه المنتجات ـ فى الظاهر ـ فى حين يكمن وراء هذه الزيارة غرض

آخر خفى ماكر ، هو استدرار نقود السائحين الكرام فى شراء ما يروقهم من منتجات تلك المصانع الصغيرة التافهة التى توجد المئات من امثالها فى بلادنا ، دون ان يفكر أحد منا فى لفت انظار السياح اليها بطبيعة الحال !

هذا مثل واحد من مئات - بل ألوف - الامثلة التى من هذا القبيل ، والتى سأشير اليها تفصيلا فى مواضعها من حديث هذه السياحة فى الاعداد القادمة .

ومثل آخر يفرض نفسه فرضا على فى هذا المقام ، ولا املك اكثر من ان أضعه تحت أنظار السيد مدير مصلحة السياحة : **المعروف عن باريس أنها اشهر عاصمة سياحية فى العالم - حتى لقد بلغ عدد السياح الذين زاروها فى سنة ١٩٥٢ (صدق أو لا تصدق) : ثلاثة ملايين و ١٩١ ألفا ، انفقوا فيها ١٢٥ مليارا من الفرنكات ! .. وانت تعرف طبعا ان العامل الاول الذى يجتذب السائحين الى باريس بهذه الكثرة المروعة هو شهرتها كعاصمة للهو والخلاعة .. فهل تعلم ان هذه الشهرة ما هى الا خدعة ضخمة وبضاعة « قومية » مفتعلة للضحك على « ذقون » السذج من الاجانب الواقدين ، بحيث لا تكاد تجد بين رواد ملاهى باريس الليلية احدا من أهل البلاد الفرنسيين ؟ والمغزى الذى يكمن وراء هذه الحقيقة المستترة ان الحكومة هناك تشجع على الاكثار من تلك الملاهى ، وعلى تسهيل مهمتها ، وتحسين برامجها ، قاصدة من وراء ذلك الى اجتذاب السياح من ابعد اقطار الارض ليقبلوا على باريس كالمسعورين ، يغترفون من لهوها ويفرغون فيها أموالهم بلا حساب !**

قد تتساءل : أو لا تخشى الدولة هناك على أخلاق بنيها من تعريضهم لتلك المغريات ؟ .. وأنا أجزم لك ، بعد ما رأيته وسمعته ، بأن الفرنسيين هم أكثر الناس حصانة ضد تلك الملاهى ، فهم لا يرتادونها أكثر من مرات معدودة طيلة حياتهم ! .. وليس ذلك لانهم قديسون ، وانما لان جميع برامج تلك الملاهى الاستعراضية تكاد تكون متشابهة ، بحيث يكفى أن يراها المرء مرة كى يكون فكرة عنها تغنيه عن ارتيادها بعد ذلك .. والباريسى الذى يراها مرة - أو حتى الذى يراها كثيرا فيألفها - لن يضيره ذلك أو يمس خلقه فى شىء ، (فهو أكثر ميلا واقبالا على حضور دراما تمثيلية جدية فى مسرح « الكوميدى فرانسيز » ، أو برنامج باليه فى دار الاوبرا) .. لكن وجود تلك الملاهى الخليعة مع ذلك يكفل لفرنسا دخلا قوميا هائلا من جيوب السائحين، الذين يفدون خصيصا من أجلها ، اكثر مما يفدون لزيارة متحف اللوفر !!

بل انك قد تدهش اذا علمت أن باريس تذهب فى ارضاء أذواق جميع السياح الى حد تخصيص أكثر من ملهى فيها للرقص الشرقى ، من راقصات مصريات وجزائريات .. بل ان ملهى « الفولى برجير » ، (البقية صفحة ١٩٤)

حلمي مراد

كتابى

اعـــداد نفدت

كتابى الاول : ((خطايا الحب)) وكتب أخرى ، وكتابى الثانى : ((قلب عذراء)) وكتابى الثالث : ((الهـاربة من الجنـة)) وكتابى الـرابع : ((حـواء الجـديدة)) وكتابى الخامس : ((أحدب نوتردام)) وكتـابى السادس : « جريمة حب » .

اعداد توجد نسخ منها بالادارة

كتابى السـابع ((عشـيقة نابليـون)) ، والثـامن ((مـذكرات كيوبيد)) ، والتاسع ((صنم تحطـم)) ، والعاشر ((حديقة الله)) ، والحادى عشر ((عندما تحقد المرأة)) ، والثانى عشر ((لعبة الحب والموت)) ، والثالث عشر ((توبة خاطئة)) ، والرابع عشر ((ايها الربيع ترفق)) ، والخامس عشر ((الشيطان على الارض)) ، والسـادس عشر ((ليدى هاملتون)) ،والسـابع عشر ((الارملة المرحة)) والثامن عشر ((حياة جورج صاند)) ، والتاسع عشر ((حياة سارة برنـار)) ، والعشرون ((رباعيات عمر الخيام)) ، والحادى والعشرون ((حياة بيتهوفن)) ، والثانى والعشرون ((حياة موسولينى)) ، والثالثوالعشرون ((كوخ العم توم)) والرابع والعشرون ((الزوج والعشيق)) والخامس والعشرون ((البوهيميـة)) ، والسـادس والعشرون ((فتاة لها ماض)) والسابع والعشرون ((ترويض النمرة !)) والثامن والعشرون ((فن الحب)) ، والتاسع والعشرون ((الجريمة والعقاب)) والثلاثون « المنافق » (طرطوف)

◆ **وتطلب** من ادارة كتابى: ١٤ شارع ٢٣يوليو بالقاهرة (عمارةالجندول)، **وثمن كل عدد ١٠ قروش خالص اجر البريد (المسجل) ما عدا الاعداد ١٣ ،** ١٦ ، ثم من ٢٥ الى ٣٠ ، وثمن كل منها بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، والعـدد العاشر والعدد العشرون وثمن كل منهما عشرون قرشا خالص اجر البريد

◆ **ملحوظة : ترسل القيمة فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد MONEY ORDER** أو بشـيك على أحد بنوك القاهرة ، ولا تقبـل العملة الاجنبيـة أو أذونات البريد الخارجية . وتحرر الاذونات والشيكات باسم صاحب المجلة شخصيا .

مطبوعات كتابى

صدر منها حتى الآن :

١ ـ قصة مدينتين	٢ ـ ذات الثوب الابيض
٣ ـ الخـالدون	٤ ـ الخاطئـة

وثمن كل من الأول والرابع عشرون قرشا خالص اجر البريد المسـجل (نظرا لوشك نفاده) ، والثاني ١٢ قرشا ، والثالث ١٠ قروش



قصة مصرية : للمحرر

عيون حالمة

◆ فى معرض للتصوير ، وقفت منذ أيام أتأمل صورتها طويلا ٠٠ وفى دليل المعرض عثرت على العنوان الذى أطلقه عليها مصورها : (« عيون حالمة » ـ تصوير « فريد »)

يا للمسكين ٠٠ انه ما يزال يذكرها !

*

عندما عرفنى به صديقى الدكتورشاكر ، لمحت فى عينيه أنه يتألم ٠ كان الملل من الحياة ناطقا فيهما يتكلم ، ويقول : ان المسكين يحيا ، ولكن رغم ارادته !

وحركت نظراته فضولى الفطرى ، وميلى الى دراسة الوجوه والنفوس ٠ وددت لو أصل الى أعماق هذا الفنان الشاب ، لأسبر أغوار نفسه

ومرت الايام ٠٠ حتى اقترح على الدكتور شاكر ذات مساء ، أن نمر على فريد كى يلتقط لنا صورة ٠٠ وطال بقاؤنا فى الاستوديو الى ما بعد مواعيد العمل ، فجلسنا نسمر ونتحدث فيما يروق الحديث فيه عادة بعد اجهاد العمل طوال اليوم ٠ وتشعب بنا الكلام الى بحث ألوان العواطف التى يفرزها القلب البشرى ٠٠ وحلا للدكتور شاكر أن يداعب صديقه فقال : « دعونا من هذا ، وحدثنا أنت يا سيد فريد عن اختباراتك واسعة النطاق ٠ ترى كم أحببت من هؤلاء الفتيات الجميلات اللواتى تزين صورهن جدران الاستوديو ؟ »

كيف أصف أثر هذه الدعابة فى نفسية فريد ؟ لقد قابلها أول الامر متكلفا ضحكة استهتار ساخرة ، ثم ما لبث أن شرد منا فترة بدا فيها كأنما يجمع شتات نفسه ، وبدت نظراته كأنها آتية من بعيد ٠٠ حتى تنبه أخيرا الى أن انتظارنا قد طال ، وأن أسماعنا معلقة بفمه ، فقال :

« أكنت تمزح يا شاكر ؟ ٠ يا بختك ! لقد كنت يوما مثلك حرا طروبا بلا قلب ، أعشق كل امرأة فاتنة كما أحب كل زهرة عطرة ، أو فاكهة شهية ، أو صورة جميلة !٠٠ وعشت هكذا أعواما ، متوهما اننى قد عرفت الحب مرات ومرات ، وانني — دون الناس — قد أفلحت فى الاستمتاع به مجردا عن سائر قيوده وأشواكه !٠٠ وكم سخرت من أشجان الهوى ، وكم هزأت بنزوات المحبين !٠٠ ايه ، ولكن « كريمة » بدلت كل شيء ٠٠اننى حين أفكر فى حاضرى وتقسو على قلبى آلامه ، أتمنى لو أننى لم أعرف الحب ، ولم أعرفها ، وأجدنى أحن الى نسمات «الميل» الهادىء الذى كنت أحسبه «حبا» ، والذى طالما نعمت به قبل أن تبدده العاصفة ٠٠ ايه ! نعم ، ولكننى لا ألبث أن أقتلع الندم من جذوره حين تشتعل فى حسى نشوة السعادة الدافقة التى غمرتنى بها كريمة ، فأحس أن آلامى قد غدت شفافة ، تسمح لى بأن أعيش وراءها فى الماضى القريب ، قانعا بأن أجتر اللحظات الخالدة التى نفحتنى بها حبها ٠٠



« ٠٠ كنا دائما نلتقى فى مشرب للشاى قريب من هنا ، ثم نخرج الى احدى الضواحى الهادئة : صحراء هليوبوليس ، أو الهرم ، أو ضفاف النيل فى الجزيرة ٠٠ ونسير متلاصقين نتهامس ، أو ننصت للطبيعة وهى تهمس بأحاديث الجمال والسحر والحب ٠٠ حتى نتعب فنجلس على أحد المقاعد الخشبية المتناثرة ، كى تغنى لى كريمة بصوت خافت سماوى أغنية

رقيقة من أغانى الراديو أو الافلام المحببة الى ، بينما أهيم أنا فى عينيها الحالمتين اللتين كانتا تحكيان لى فى كل جلسة حلمـا جديدا ، وأملا أعذب من نسيم الفجر ، مسكرا كعطر الربيـع ، ناعما كأوراق الورد ، وكبشرة خدها الخمرى ٠٠ وكم كان خدها حلوا ودافئا على الدوام ٠ كلما نظـرت اليه كنت أحس كأنى ألصق وجهى بوسادة من الريش ، مكسوة بالحرير !

وبقدر ماكانت الوسادة ناعمة ، كانت اليقظة دائما ترعبنا٠٠ كنا نخشى أن نفيق ، ونشفق من الفراق ، فنراوغ ونظل نراود الدقائق عن سيرها ، ونتملقها أن تقف ، ليطول لقاؤنا ونبقى أيضا ٠٠ ولو لحظات !

آه ٠٠ كيف يجترىء أحد على أن يتهم الحب بشر أو خطيئة ! ان قلبى ، الذى كان قبل أن تملأه كريمة لا يعبد غير ذاته ، وغير الشيطان ، قد غدا منذ عرفتها متبتلا ، يخر فى صـدرى كلما لقيتها ، ساجدا لله فى خشوع ، شاكرا للسماء أنها وهبته حاضره السعيد ٠٠ متعبدا لها كى تديمه عليه !

وكما علمنى الحب الشكران ، علمنى الاحسان ، حين كنـا نتمشى ذات مغرب جميل ، ومررنا بمتسول ضرير كان يحاذى سور احدى الحدائق الانيقة ، وهو يتلمس قضبانه بأصابعـه المرتعشة ، وفى يساره عصا يدق بها الارض دقات واهنة كجسده الهزيل ، الذى خيل الى أن منظره كان الغصة الوحيدة فى حلوق سادة المنزل وهم يتناولون الشاى فى الحديقة ، فى استرخاء ، كأنما يستجمون من عناء الراحة !٠٠ ورقت كريمة لمرأى الضرير فضغطت على ذراعى ، وهى تقول بصوت ذاب فيه الاشـفاق والحنان : « أترى يا فريد هذه المفارقة الاليمة ٠٠ هذا السـور الذى يفصـل بين النقيضين : فى الخارج أعمى جائع ، حافى القدمين ، بالى الثياب ، حرمته الدنيا كل شىء ٠٠ وفى الداخل ورود وعطور ، وسلم من رخام ، وقصر يضيق بالمقاعد المريحة

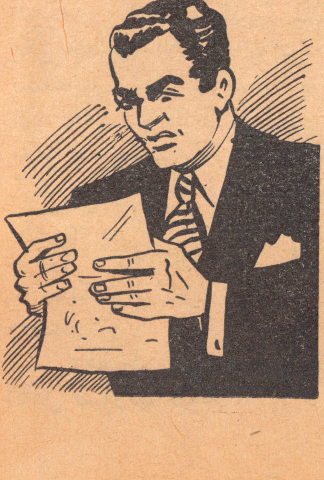
والفراش الوثير ، ومخازن الثياب ، والطعام الشهى ، والحياة الناعمة ٠٠ ترى ماذا جنى هذا التعس أو جنى أبواه ، وماذا أتى أولئك من أفضال ؟ »

وقبل أن تسترسل كريمة فى خواطرها ، وجدتنى أسخو على الضرير بالعطاء ، وأسارع معها بالابتعاد ٠٠ فقد أحسست بقلبى يرق حتى ليضنينى ، أنا الذى لم أكن أفهم الالم ، أو أقدر الحنان ، والغفران ، والبر والتسبيح ٠٠ وعشرات غيرها من المعانى الرقيقة واحساسات الناس التى ألهمتنى كريمة أن أراعيها ، وهى ترعانى بنظراتها الساخنة التى كانت تنضح بالعاطفة ، حتى لتكاد تعطينى فى كل نظرة ٠٠ قلبها بأكمله !

آه ٠٠ لماذا خلق الله لنا ذاكرة ، تعى ظروف الالم أكثر مما تعى ساعات السرور ؟

ان ذاكرتى كثيرا ما تتجاهل البداية السعيدة لقصتى ، ولكنها لا تعفينى لحظة من مرارة النهاية ٠٠

٠٠ فقد غابت عنى كريمة يوما فأياما ، تبينت خلالها قسوة ما كانت قد فرضته على من الجهل التام بكل ما يمكننى من لقائها كلما أردت أنا ، لا هى ٠٠ وهكذا بقيت حائرا ، أنتظرها كالمجنون ، ثلاثة أسابيع ، حتى وصلتنى منها هذه الرسالة ٠٠ مبللة بالدموع :



« يا فريد ٠٠ أعلم أنك لن تغفر لى هذا الغياب الطويل ، فكيف لو علمت اننى لن أعود ؟ ٠٠ لقد خدعتك يا فريد ٠٠

أخفيت عنك اننى انما أحببتك لكى أنتقم لكرامتى من الرجل الذى هويته فانصرف عنى ، أو ظننت أنه فعل ، حتى عاد منذ أيام ليخطبنى ، نادما مستغفرا ٠٠ فصفحت عنه ، بعد الحاح قلبى الذى لم يكن قد نسيه !٠٠ فاغفر لى يا فريد اننى ٠٠ سأتزوجه ، أو فحاول أن تكرهنى وتنسانى ٠٠ الوداع يا فريد ٠٠ »

وفرغنا من الرسالة والتفتنا الى فريد ، فاذا الدموع تهيم فى عينيه ، بينما نظراته تهيم فى عينيها هى ، وهو يتأمل صورة كبيرة لها كانت بين يديه !

*

قلت للدكتور شاكر ونحن نسير معا فى شارع قصر النيل قبيل منتصف تلك الليلة ، بعد أن ودعنا فريد : « انك قد اضطربت حين رأيت صورة كريمة ٠٠ ترى هل كانت لها قصة معك أنت الآخر ؟ »

قال : « نعم ، ولكنها قصة من نوع آخر ٠٠ فقد تذكرت هذا الوجه ٠٠ انها قد كذبت عليه كى يكرهها وينساها ، بينما لم يكن خطيبها الا ٠٠ الموت ٠٠ لقد رأيتها قبل زفافها اليه بساعات ٠ كان يترصدها فى اصرار ليأخذها معه ٠٠ لعلك فهمت أنها كانت مريضتى ، فقد لبثت أكافح (التيفوييد) ثلاثة أسابيع ، ولكن الموت غلبنى واستأثر بها ٠ وقبيل وفاتها كنت أعودها ، فانتهزت فرصة خلو الغرفة من أهلها وطلبت منى وهى تبكى أن آتى لها بورقة صغيرة كى تكتب كلمة وداع ، لرجل ٠٠ بعد أن رجتنى أن أصون سرها عن ذويها ! »

وسكت الدكتور شاكر ، وكان الترام قد وصل ، فمضى ٠٠ ومضيت ٠٠

ومضت شهور ، حتى وقفت منذ أيام فى معرض التصوير ، أتأمل صورتها طويلا

ومر بخاطرى فريد .. يا للمسكين ، انه لا يعلم أن العيون الحالمة قد كفت عن أن تنسج الاحلام ، وانه لم يبق منهـا الا هذه الصورة الراقدة فى اطارها الاسود ، الذى تراءى لى ـ وأنا ابتعد ـ كأنه نعش قاتم بغيض !

الحياة
قصة



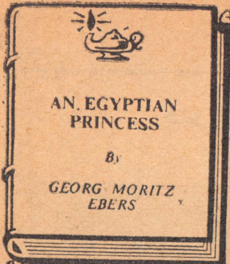
روائع
القصص
العالمى

عزيزى القارىء ...

قرأت معى فى الاعداد الماضية قصص :

- اموك : لستيفان زفايج
- مرتفعات وذرنج : اميلى برونتى
- قلب عذراء : جون جالزورثى
- التلميذ : بول بورجيه
- احدب نوتردام : فيكتور هوجو
- جريمة حب : بول بورجيه
- جين اير : شارلوت برونتى
- أيام بومباى الاخيرة : ليتون
- مانون ليسكو : الاب بريفو
- حديقة الله : روبرت هتشنز
- عندما تحقد المرأة : أونيه
- آسيا : ايفان تورجنيف
- كاس تمبرلين : سنكلير لويس
- الشيطان على الارض : رسل
- رسالة من مجهولة : زفايج
- تاييس : اناتول فرانس
- بلاد العميان : هـ.ج. ويلز
- نادى الانتحار : ستيفنسون
- كوخ العم توم : ستو
- البوهيمية : هنرى موجيه
- فتاة لها ماض : بورجيه
- شيرى : كوليت
- الجريمة والعقاب : دستويفسكى
- لحن كرويتزر : تولستوى

واليوم أقدم لك هذه القصة الرائعة عن مصر القديمة قبيل غزو الفرس لها بقيادة « قمبيز »



أميرة مصر

قصة فرعونية بقلم الكاتب الألماني

"جورج موريتز ايبرز"



تلخيص : الاستاذ محمد بدر الدين خليل

هذا المؤلف ... وهذه القصة



◆ ولد « جورج موريتز ايبرز » فى برلين فى أول مارس سنة ١٨٣٧ ، ودرس القانون ، ثم اصيب فى سنة ١٨٥٨ بمرض خلف بساقه عرجا ، فصرف النظر عن ان يصبح محاميا ، واقبل على دراسة اللغات القديمة والآثار، منصرفا انصرافا تاما الى تاريخ مصر القديمة .. ثم قام برحلات جاس فيها خلال مصر والنوبة وبلاد العرب ، وانتهى الى ان صار استاذا للتاريخ المصرى بجامعة « ليبزيج » ، حيث ظل حتى سنة ١٨٨٩ ..

وكان قد زار مصر مرة اخرى فى سنة ١٨٧٢ ، حيث قام ببعض اعمال الكشف الاثرى الجليلة ، واهمها ورقة البردى التى اصبحت تعرف باسمه .. ومات فى ٧ أغسطس سنة ١٨٩٨

وكان ايبرز مشغوفا اثناء مرضه ودرسه للتاريخ ، بقصص المصريين القدماء ، فراودته فكرة احيائها ونشرها فى روايات تاريخية يمزج فيها الحقيقة بالخيال .. والرواية التى نقدمها فى هذا الشهر « اميرة مصر » هى اول ما كتب فى هذا الباب ، وقد اصدرها سنة ١٨٦٤ ، فلقيت نجاحا ورواجا حفزا على اعادة طبعها مرارا ، وعلى ترجمتها الى معظم اللغات الاوربية

ويسر كتابى ان ينقلها اليوم - ملخصة - الى العربية لأول مرة

الفصل الاول

رودوبيس

◆ **كانت** مياه الفيضان تغمر الوادى وتفيض على جانبى النيل ٠٠ وليس ثمة نسمة واحدة من هواء ٠٠ وأشعة القمر تبسط على صفحة النهر العظيم الخالد ستارا من فضة ٠٠

وفى تلك الليلة من ليالى عام ٥٢٨ قبل الميلاد ، انساب من « نوكراتيس » ـ التى كانت معقلا لليونانيين ، والتي اختارها الاسكندر الاكبر فيما بعد ليقيم الاسكندرية على مقربة منها ـ قارب لم يلبث أن دلف عبر مصب فرع النيل ، وقد استوى بين وسائده رجلان ، كشف القمر عن أنهما من أصل اغريقى (يونانى) ٠٠ وكان أكبرهما سنا اسبرطيا فى حوالى الستين من عمره ، فارع الطول ، قوى البنية ، تهدلت جدائله التى وخطها المشيب على عنقه ٠٠ فى حين كان الآخر أثينيا يصغره بعشرين عاما ، ممشوق القوام ، متين البنيان ٠٠

وكان الصمت يلفهما ، حتى اذا اقتربا من الشاطئ بعد حوالى نصف الساعة ، قال الاصغر : « ها قد أشرفنا على غايتنا يا « اريستوماخس » ٠٠ فهناك الى اليسار ترى الدار البهيجة ، مقر صديقتى « رودوبيس » ٠٠ ان كل أصدقائها ، حتى الملك ، يتنافسون فى ادخال التحسينات على هذه الدار فى كل عام »

ـ انك تكثر من اطراء هذه العجوز يا فينس ٠٠

ـ أؤكد لك اننى لا أعرف فى مصر من هى أنبل منها ٠٠

ـ وكيف استطاعت « رودوبيس » أن تغدو كالملكة ، وأن تعيش فى جو ملكى ، وهى التى كانت جارية ومحظية ؟

وهنا راح الأثينى يروى لصاحبه قصتها : **كانت جارية يونانية ، جمعها الرق فى حداثتها بعبد أوتى علما وحكمة ، فعلمها الحديث والغناء والموسيقى ٠٠ ثم ابتاعها سيد حملها**

الى بلدة « نوكراتيس » حيث راح يستغل جمالهـا الباهـر الخلاب كي يثرى ، الى أن قدر لها أن ابتاعها نبيل من أبنـاء الاغريق اللائذين بمصر ، وتدله فى هواها ، فأعتقها وتزوجها ٠٠ وصارت دارهما مقصد اليونانيين الذين كانوا يعجبـون بجمال « رودوبيس » وثقافتها ٠٠

وعندما مات زوجها ، ظلت فى « نوكراتيس » مع الابنـة التى أنجبتها ، حتى اذا كبرت هذه الابنة تزوجت من تاجـر فينيقى نبيل المحتد ، نزح بها الى الخارج ، وهناك رزقا بنتـا أطلقا عليها اسم « سـافو » ٠٠ ثم دهم الوالدين وباء قضى عليهما ، فضمت « رودوبيس » حفيدتهـا وكفلتها ٠٠ وكان الهوان الذى لقيته هى فى صغرها ، يجعلها تغار على الصغيرة وتحول بينها وبين الاتصال بالرجال ـ على كثرة من كانوا يترددون عليها ، اذ اعتاد اليونانيون أن يجـدوا فى قصر « رودوبيس » المجتمع الذى تهفو اليه نفوسهم المشـوقة الى الوطن ٠٠ سيما وقد كانت «رودوبيس» تحظى برعاية سابغة من « امازيس » ـ أو « أحمس » ـ الـذى قاد ثورة الجيش وانتزع العرش لنفسه ٠٠ وكان «احمس» يميل الى الأجانب ، رغم ما كان يعلمه من أن الشعب ما نقم على سلفه الا لأنه كان يؤثر اليونانيين بحظوة أثارت عليه الكهنة والمصريين جميعا٠٠ بيد أن « احمس » كان يعرف كيف يتفادى ما تعرضله سلفه ، وان كان نفوذ الكهنة قد غدا عبئا يرهقه ويعكر عليه صـفو الحياة ٠٠

الفصل الثانى

على مائدة رودوبيس

◆ **كانت** « رودوبيس » تبدو أصغر من سنها الحقيقى ، وان لم تكن تحاول أن تخفى هذه السن ، بل كان يسرها أن

تبدو «أما» لهؤلاء المغتربين الذين اعتادوا أن يلوذوا بمجلسها ، وأن يستمتعوا بمآدبها ٠٠ وكانت كالملكة وسط حاشيتها ، فياضة اللطف ، تؤثر كل ضيف ببعض العبارات الرقيقة ٠٠

وعندما تناول الضيوف فى تلك الليلة كفايتهم من الطعام ، تحولوا يسمرون ويشربون٠٠ وجرى الحديث بين «رودوبيس» والأثينى « فينس » ، فاذا بها تعرف أن الاخير قد أقصى عن خدمة الملك أحمس، وانه راحل الى اليونان !٠٠ ومازال الحاضرون بفينس حتى انطلق يروى لهم قصة اقصائه : **فلقد كان « بسامتيك » ـ ابن الملك وولى عهده ـ يحقد عليه ويناصبه العداء ٠٠ وشاء الحظ العاثر أن يفاجأ خادم للأثينى وهو يلقى ببعض القطط فى النيل ـ وكانت القطط مقدسة لدى المصريين، اذ كانوا يصورون الالهة « باخت » برأس كرأس القط ، فكان الحاق أتفه ضرر بهذه الحيوانات يعتبر جريرة كبرى !ـ لذلك كاد القوم يفتكون بالخادم ، ثم قادوه الى المعبد ، حيث أمر كبير الكهنة بالقائه فى السجن ٠٠ وكان الحادث فرصة للكهنة الذين كانوا يحقدون على الأجانب ، ويتحالفون مع بسامتيك ، فألقوا مسئولية الخادم على مولاه ، وسرعان ما اعتقل « فينس » وقدم الى المحكمة العليا المؤلفة من كهنة (ممفيس) و (هليوبوليس) و (طيبة) ٠٠ فقضت عليه بالموت ٠٠ لولا أن اجتمع الضباط والجنود الاغريق الذين فى خدمة احمس ـ وكانوا حوالى ٤٠٠٠ ـ وهددوا بالاستقالة ان لم يعف الملك عن قائدهم ، فاستدعاه الملك من سجنه ، ووعده بأن يشفع له لدى الكهنة ، بشرط أن يغادر مصر قبل انقضاء ثلاثة أسابيع !**

واستطرد « فينس » يقول : « وعند أبواب القصر ، التقيت ببسامتيك ـ ولى العهد ـ فقال لى : « لقد نجوت من نقمتى مرة أخرى أيها الأثينى ، ولكنك لن تهرب من انتقامى ! » ٠٠

ومن ثم سارعت الى المجىء الى نوكراتيس لأتأهب للرحيل عنها الى وطنى ٠٠ »

ودارت بين الحاضرين أحاديث شتى ، وفجأة ، قال أحد الحضور : « الآن ، اليكم النبأ الذى تكتمته عنكم حتى تدب النشوة فى رؤوسكم ٠٠ ان الفرس قادمون ! »

وقفز الجميع عن مقاعدهم مذعورين ٠٠ ولكن المتحدث صاح يطمئنهم : « صبرا ٠٠ فليس القادمون جيشا ، وانما بعثة أوفدها قمبيز عاهل الفرس ولن تلبث أن تصل بعد أيام قلائل ٠٠ وليس ثمة من يدرى لمقدمها سببا ، وان قيل ان قمبيز سيعرض على احمس معاهدة تحالف ٠٠ بل وسيطلب يد ابنته ! »

فهتف فينس غير مصدق : « وما حاجة الفرس الى تحالف وقد غدوا يحكمون نصف الدنيا ٠٠ ولم ينج من غزوهم غير مصر واليونان ؟ »

ـ أنسيت ان الامبراطورية اذا اتسعت رقعتها وتعددت أجناسها ، بدأت بوادر التمرد تدب فيها ، فهى تحذر الحروب مع الأجانب حتى لا تنتهز الولايات المتمردة فرصة غياب الجيش فتنتقض عليها ؟

الفصل الثالث

رودوبيس وفينس

◆ **كان** الوقت ظهرا ٠٠ وقد جلست رودوبيس الى فينس بجوار نافورة فى حديقة قصرها الغناء ، وراحت تقول : « لو كنت ضعيفة لنزحت عن نوكراتيس ولعشت فى عزلة عاكفة على حفيدتى ، فهى دنيا كاملة تكفينى ٠٠ وانما أبقى لأننى أشعر بأننى ذات نفع لمواطنينا الذين آثروا حياة التغرب على

الحياة فى ربقة الاستعباد ٠٠ بل ان وجودى ـ بعد رحيلك ـ أصبح ضروريا لحمايتهم ٠ لقد شاخ أحمس ، ولو خلفه «بسامتيك» لعانينا المتاعب الجسام ٠٠ ولكننى سأبقى لأكافح من أجل حرية الاغريق ورخائهم ٠٠ »

وقال فينس : « هذا ما يروق لى منك ٠ لسوف يفتقدنى أحمس ، فان علاقاتى بجنوده الأجانب المرتزقين كانت تمكننى من أن أحسن سياستهم كما لا يتسنى لسواى ٠٠ اننى ما فارقت أثينا الا لأننى قهرت فى محاربة الطغيان هناك ٠٠ ولقد تركت زوجتى التى ماتت فى العام الماضى ، وتركت ابنى ـ الذى بلغ الحادية عشرة ـ وابنتى التى تصغره بعام ، فى حضانة عمتهما ٠٠ وقد أرسلت فى استدعائهما ، لكنهما لن يصلا قبل أن تنقضى الاسابيع الثلاثة التى أمهلتها كى أغادر البلاد ٠ فان شئت أن تثبتى صدق وفائك لى ، فاستقبليهما ، وأرسليهما ورائى فى أول سفينة تبحر الى (تراشيا) ، وأخفيهما عن أعين جواسيس « بسامتيك » ، فأنت تعرفين أنه عدوى الألد !٠٠ اننى أعرف أن الملك جعل بيتك حرما وخلع عليه حصانة ، ومن ثم فانه خير ملاذ للطفلين ٠ ولسوف تلمسين مدى تقديرى لك حين تتبينين أننى أعهد اليك بخير وأعز ما لى فى الحياة ! »

❋

◆ **ووصلت** البعثة الفارسية ، فاذا مصر تستقبلها استقبالا حافلا ٠ وكانت تتألف من ستة رجال ، بدوا فى أبهى الصور ، وأفخم الرواء : « بارتشا » رئيس البعثة وشقيق العاهل الفارسى ، وهو شاب فى العشرين أوتى كل ما يشتهى من الجمال ، من شعر ذهبى ، وعينين زرقاوين تفيضان بالحياة ، والهناء ، والرحمة ، والشجاعة ٠٠ وكأنما وجهه النبيل القسمات ، الذى تحوطه لحية حديثة النمو ، تحفة رائعة من

انتاج أبرع فنان ٠ والى جانب هذا الجمال كله كان الشاب على قدر كبير من الفتوة البادية ٠٠

وكان يتلو بارتشا فى البعثة « دارا » ، وهو شاب لا يقل عنه حسنا ، ومن الأسرة المالكة ٠٠ ثم رجل أشيب الشعر ، بادى الرزانة ، تفيض من وجهه الصبوح اشعاعات من الرحمة ، واللطف ، يخالطهما الذكاء ، والخبرة بالحياة ٠٠ ذاك كان « كروسس » ملك (ليديا) المخلوع ، الذى استقر فى بلاط قمبيز كصديق ومستشار له ٠٠ ثم « بركساسبس » سفير ملك الفرس ، وزوبيرس ـ أحد نبلاء فارس وصديق « بارتشا » و « دارا » ـ و « جايجس » الشاب النحيل ، الرقيق ، ابن « كروسس » ٠٠

واستقبلهم « بسامتيك » ـ ولى عهد مصر ـ فى الميناء ٠٠ كما كان والده الملك « أحمس » فى ارتقابهم فى قصره ، مرحبا ، مؤهلا ٠٠ فلما كان اليوم الرابع ، انتهز أحمس فرصة غياب شباب البعثة مع ولى عهده فى ممفيس ، وخرج يتمشى مع الملك المخلوع المسن « كروسس » فى حدائق القصر ، بعد أن فرغ من أعماله التى كان يكرس لها فترة الصباح من كل يوم ٠٠ وجلس الشيخان فى ظلال الاشجار الوارفة ٠٠ فقال الفرعون فى لغة يونانية سليمة :

ـ لكأنما الصداقة ربطت بيننا منذ أمد بعيد يا صاحبى ٠٠

ـ كذلك شعورى ٠٠ اننى أعجب بشجاعتك التى تمكنك من أن تفعل ما تراه صالحا ، رغم تحدى رجال البطانة الذين حولك ٠٠ اننى أرى فيك زميلا ، فلقد استمتعت مثلى بكل مايمكن أن تتيحه الحياة من بهجة وهناء ، ومن متاعب وأشجان ٠٠ لقد حملت لى ساعة النحس فى طياتها أولى ساعات الفرح ، فعندما انكسرت أمام الفرس رفع جندى منهم سيفه وكاد

يهوى به على عنقى ، لولا أن أمسك ابنى « جايجس » بيده فعاقه ٠٠ وكان ابنى ذاك أبكم منذ العام الرابع من عمره ، فأنطقه الفزع ! وكانت هذه أسمى نعمة أغدقتها على الآلهة : أن استعاد ابنى القدرة على الكلام ٠٠ فبدأت أرى ان المصائب قد تطوى فى أردانها الخير ٠٠ وانك لتعلم اننى غدوت بعد ذلك صديقا لكورش - والد قمبيز - فسمح لابنى بأن يعيش فى أحضانى ٠٠ **وعندما رأيت المتاعب التى عاناها كورش فى آخر أيامه ، والليالى التى كان يقضيها مؤرقا ، ارتجفت لذكرى ما كان له من عظمة وملك ، وتبينت أين تكمن السعادة الحقة : انها فى أعماق كل منا ٠٠ انها القدرة على القناعة ، والصبر ، والانتشاء بكل ما هو رائع وجميل ، وتحمل الحزن بلا شكوى، وتجميله بالذكريات ٠٠ انها الاعتدال فى كل الامور ، والثقة الوطيدة فى الآلهة ٠٠**

- الحق يا كروسس اننى أغبطك ، رغم اننى « اله العدل وصاحب المجد العسكرى » كما يلقبنى المصريون ، وأنت المحروم من عرشه ومجده ٠٠ لقد كنت سعيدا مثلك فيما مضى ، يحبنى جنودى ، ويعتز بى رؤسائى ٠٠ فلما أرسلنا سلفى « خفرع » لغزو سيرين (ليبيا) ، راح الموت يحصدنا فى الصحراء ، فتمردنا ورفضنا التقدم ٠٠ واذ ذاك نبتت فى رأسى فكرة خلع الملك ، فاذا الجيش يؤازرنى ، واذا الشعب يعضدنى ٠٠ ولكنني لم ألبث - بعد أن اعتليت العرش - أن منيت بعداء علية القوم ! ٠٠ فالكهنة لم يتقبلونى الا لانهم طمعوا فى أن أكون أداة فى أيديهم ٠٠ ولقد أفقدنى السلطان أصدقائى من ضباط الجيش ، فاضطررت الى الاستعانة باليونانيين الذين أعجبت بفنونهم وعاداتهم ، فحاولت أن أدخلها على مصر ٠٠ ولكن الغرض السامى الذى رميت اليه من وراء ذلك تحطم تحت ربقة الكهنة ، السادة الذين يسعون

لفرض سلطانهم على أعمالى ٠ وكان نفوذهم على الشعب أقوى من نفوذى ، فاضطررت الى أن أتخلى عن أروع مشروعاتى ، وأن أرتضى العيش عبدا لهم !٠٠ بل لقد أقاموا أبناءهم رقباء على ، وان قدموهم على أنهم مرافقون وخدم لى ٠٠ كل من هؤلاء الفتية حارس وسجان ورقيب !

واذ تجلت الدهشة على كروسس ، قال أحمس :

« لكل مركز ممتاز ضريبة ٠٠ وأنا كملك لهذه البلاد مضطر الى أن أرتضى أغلال تقاليد ترجع الى ألف عام ، والا حرم الكهنة دفن جسدى اذا مت !٠٠ وأنا قد أتأثر بالاغريق ، وأقتبس الكثير من أفكارهم وعاداتهم ، ولكنى مصرى قبل كل شيء ٠٠ مصرى بكل جارحة فى كيانى ٠٠ وقد اكتهلت ولم تبق لى فسحة من العمر ، فهل ترانى أضحى براحة آلاف السنين فى العالم الآخر ؟٠٠ لا يا صديقى ، اننى مصرى أومن بأن النعيم فى حياتى الثانية يتوقف على صيانة جسدى ٠٠ فهى مستودع روحى٠٠ وما اكتسب أطباؤنا شهرتهم ومكانتهم لو لم نطمئن الى فنهم فى حفظ كياننا الدنيوى ٠٠ وبهذه المناسبة ، كيف حال « نبنخارى » طبيب العيون الذى أرسلته لملك فارس ؟ »

ـ لقد كرم علم بلادكم ٠٠ وكان هو الذى أثار اهتمام قمبيز بجمال ابنتك ٠٠ ولك أن تطمئن الى اننى سأرعى ابنتك « نايتيتس » كما لو كانت ابنتى ، وستجدنى فى عونها دائما ، فان أجنحة النساء فى قصور فارس كثيرة المزالق ٠٠ على أن قمبيز سيرضى عنها ، وان كان نبنخارى لم يحدثه الا عن « تاخوت » ٠٠

ـ ان « تاخوت » ضعيفة البنية ، لا تحتمل عناء الرحلة ، ولوعة الفراق ٠٠ ولولا حاجة مصر الى السلام ، ما أرسلت نايتيتس هى الاخرى !

الفصل الرابع

مأدبة فى القصـــر الملكى

◆ **لبس** قصر الملك أحمس فى « سايس » أبهى الحلل ، وازدحمت قاعاته الرحبة بالضيوف الفارسيين والحاشـية التى صحبتهم - والتى كانت مؤلفـة من أكثر من ثلاثمائة شخص - وبالنبلاء وعلية القوم من المصريين ، رجالا ونساء ، من متباين الاعمار ٠٠ وكان « بارتشا » - الامير الفـارسى الشاب - ونايتيتس ، ابنة فرعون ، أكثر الحضور تألقا ٠٠ وقامت الملكة « لاديس » زوجة أحمس - التى كانت تنحـدر من الدماء الاغريقية - بتقديم أعضاء البعثـة الفارسـية الى ابنتيها ٠٠ وكان أحمس قد اختار زوجته هذه بعد موت زوجته الاولى المصرية ، أم ولى العهد « بسامتيك » ، بدافع من شغفه باليونانيين ، رغم معارضة الكهنة ٠٠

وكان لكل من ابنتيه « نايتيتس » و « تاخوت » طابعهـا الخاص من الجمال ٠ كانت « تاخوت » شقراء ، ذات عينين زرقاوين ، وجسد رقيق ، صغير ٠٠ بينما كانت أختها فارعة الطول ، ملتفة الجسد ، سوداء الشعر والعينين ٠٠

وقال « بارتشا » اذ قدم الى « نايتيتس » : « **اننى أحبيك كملكتى وأختى ٠ ومن السهل أن أدرك أنك مهمومة لفـراق الوطن والابوين والاخ والاخت ، ولكنك خليقة بأن تطـرحى عنك الهموم ، فان زوجك - أخى - بطل عظيم وملك قوى ٠٠ كما أن أمنا « كاساندانى » أنبل النساء ، ومثال الجمـال والعفة ، حتى ان الفرس يعبدونها عبادتهم لأشعة الشـمس التى تمنحنا الحياة ٠٠** »

ثم التفت الى تاخوت قائلا : « جدير بى أن أسـألك أن تغفرى لى كونى قد جئت أسلبك أختك ، وأعز صديقاتك ٠٠ »

وانحنت له تاخوت فى صمت ٠٠ ولكن عينيها الزرقاوين ظلتا تتبعانه خلال الحفلة ٠٠

*

◆ **وفى** تلك الليلة لم ينعم الملك أحمس بالنوم اكثر من ثلاث ساعات بعد الحفلة ، اذ أيقظه الكهنة الصغار مع صياح الديك كالمعتاد ، فقادوه الى الحمام ، ثم ألبسوه ثياب الملك ، وساروا به الى المذبح المقام فى ساحة القصر ليذبح القرابين أمام الملأ من الشعب ٠٠ ثم شرع الكهنة يقرأون عليه ـ كعادتهم ـ طرفا من أعمال ونصائح العظماء الذين وردت سيرهم فى المؤلفات الدينية ٠٠ ثم قادوه الى جناحه الخاص ، حيث عكف على الاطلاع على الخطابات والتقارير الواردة من كافة أرجاء البلاد ٠٠ حتى اذا فرغ ، استدعى ابنه ، الذى أقبل فركع اذ تجاوز عتبة القاعة ٠٠ وابتدره أحمس : « لم أردت مقابلتى ؟ ٠٠ ان وقتى محدود ! »

فارتجفت شفتا بسماتيك وقال : «لاسيما بالنسبة لابنك٠٠ لقدالتمست سبع مرات أن أحظى بلقائك فلم تسمح الا اليوم !»

ـ اننى أحدس سبب مجيئك ، ولكننى أبدد هواجسك بشأن نسب تايتيتس ٠٠

ـ بل جئت أحذرك من أن سواى يعلم السر ٠٠ أى ضمان يكفل لك ان « فينس » الذى تتركه يغادر مصر ، لن يشى بنا للفرس ؟

ـ اننى أثق بصدق حكمى على الناس ٠٠ ان فينس صديقى

ـ ولكنه عدوى اللدود ٠٠

ـ اذن فاحذره أنت ، أما أنا فلا أرى داعيا لأن أخشاه

ـ انما أخشى على بلادنا ٠٠ انك يا أبى قد تكرهنى ، ولكنك ملزم بأن ترعانى بوصفى العاهل المقبل لمصر ٠٠ وان

فى سقوطى ضياع الملك من أسرتك ، وخراب مصر ٠٠ يجب أن تصدقنى اذا أكدت لك ان فى وسع فينس أن يغدر بمصر ويخونها مع كل عدو ٠٠ وان فى صدره لسرا لو كشف لجعل صديقنا العظيم أفظع عدو لنا !

ـ أنت مخطىء ٠٠ صحيح ان نايتيتس ليست ابنتى ، ولكنها فى الوقت ذاته ابنة ملك ٠٠

ـ حتى اذا كانت ابنة اله ، لن يحول ذلك دون عداء قمبيز لك اذا عرف السر ، لأن الكذب أفظع جرم لدى الفرس ٠٠ وهم يرون أن الخداع عار يتطلب الثأر ٠٠

ـ أو خيل لك أيها الاحمق اننى لم أحسب لكل هذا حسابه ؟ ٠٠ دع فينس يشى بالسر ، فمن أين له البرهان ؟٠٠ اذا كنت تسعى لأن تثيرنى على صديق وفى خدمنى باخلاص ، فاعلم اننى على استعداد لأن أحميه من نقمتك التى أعرف سببها ٠٠ انك تبغى أن تقضى عليه لأنه صدك عن أن تغتصب حفيدة « رودوبيس » ٠٠ مالك شحبت ؟٠٠ لقد عينته قائدا بدلا منك لأننى وجدتك غير جدير بالمنصب ٠٠ فساعدنى على أن أحيط نفسى بأولئك الذين يسندون عرشى ويقدرون «رودوبيس» ٠٠

ـ أمعن فى اهانتى ماشئت ، ولكن لا تقل ان بلادنا تعتمد على الأجانب ٠٠ الا انظر الى تاريخنا ٠٠ وانظر الى ما صرنا اليه ، اذ يدعو الملك بلسانه المشردين والمغامرين من الأجانب ليسندوا عرشه !٠٠ ويسعى لكسب صداقة عنصر غلبناه فى معارك مجيدة قبل أن يفد الأجانب على وادى النيل

ـ ان مصر لم تصل من قبل الى ما هى عليه اليوم من ازدهار ٠٠ لقد أقام رمسيس مجده على اراقة الدماء ، أما أنا فقد صرفت الناس الى ما هو أجدى : الى التعمير ، والعمل من أجل الرخاء ٠٠ ومع ذلك ، فان أى عدو يهاجمنا ، سيجد القلاع والسدود ، وسيجد خير جنود حملوا السلاح ٠٠ ثلاثة آلاف يونانى ، فضلا عن الطبقة العسكرية المصرية ٠٠

ـ بل ان الترف الذى يعيش فيه الأجانب قد امتص دماء المصريين ٠٠ لقد استفحل عتو الاغريق حتى لقد غدوا ينالون من آلهتنا بالسخرية !٠٠ ولقد انشغلت بمعاركك مع الكهنة ـ وهم خير دعائم لعرشك ـ بينما كان الفرس يبنون قوتهم ويزحفون من الشرق الى الغرب كجبار مارد يبتلع الشعوب ٠٠ حتى غدوا يسيطرون على نصف العالم ، وحتى دانت لهم رقاب الملوك ٠٠ وعندما شاءت الآلهة أن تساعدك على انقاذ مصر ، ورغب قمبيز فى أن يتزوج من ابنتك ، اذا بك أضعف من أن تضحى بها من أجل الصالح العام ، واذا بك ترسل الى الملك العظيم بديلة عنها : ابنة مزعومة !

أخذ أحمس يهتز لفرط الغضب ، ثم صاح : « أيها الابن العاق ، أفتعرف من الذى سيقضى على مصر ومجدها العريق ؟ ٠٠ أنت ٠٠ الرجل الذى لا يعرف قلبه الحب ، ولا وجهه الابتسام ٠٠ لقد خلعت عليك لعنة الآلهة طباعك التعسة ٠٠ الا اعرف ما كنت أخفيه عنك : **عندما هزمت سلفى أجبرته على أن يزوجنى من أخته ٠٠ وفى الليلة التى وضعتك فيها ، رأيت فى المنام أنها ترقد على شاطىء النيل ، تشكو ألما فى صدرها ، فانحنيت عليها واذا بى أرى فى قلبها شجرة أخذت تنمو سريعا ويسود لونها ، وراحت جذورها تلتف حولها حتى قضت عليها ٠٠ وفجأة ، هبت الأعاصير ، وأسقطت الشجرة ، فاذا فروعها ترتطم بالنيل ، واذ ذاك غاض ماء النهر ، وتحول مجراه الى مومياء ، والمدن القائمة عليه الى نائحات نادبات ٠٠ وقد فسر كهنة معبد آمون الليبى هذا الحلم بأن مولدك سيقضى على أمك ، وان شعبا سيغزو مصر فى عهدك ، فيحيل النيل الى مقبرة لجثث أبنائه المدافعين عنه !** »

وصاح بسامتيك وهو يئن ويبكى : « كفى أيها القاسى ! »٠٠ ثم ستر الشاب وجهه في طرف ثوبه وخر علي الارض وقد استبد

به الأسى ، فأشفق الاب الشيخ عليه ، وانحنى يقبل جبينه ، ويعتذر اليه عن قسوته ، ويسرى عنه قائلا ان الاحلام كثيرا ماتكون كاذبة ، وان المفسرين كثيرا ما يخطئون ٠ ثم سأله أن يتمنى مايشاءليحققه له ، ترضية واسترضاء٠٠واذ ذاكأومضت عينا الشاب وهتف فى انفعال : « دع لى غريمى « فينس ! »

وفكر الملك برهة ثم قال : « سأجيب رغبتك ، وان حدثنى قلبى بأننى أقدم على عمل سيكون نذير القضاء على ، وعليك ، وعلى ملكنا ، وعلى كل شيء ، فترو فى الامر قبل أن تقدم على شيء ، ومهما كانت نيتك نحو فينس ، فلا يجب أن تمس شعرة من «رودوبيس» ، واحرص على أن يظل مصير فينس على يديك سرا مكتوما ، لا سيما عن الاغريق ٠٠ والآن لعل من الأصوب أن تعرف قصة نايتيتس »

وأصغى الشاب الى أبيه بكل حواسه ٠٠

الفصل الخامس

سايس

◆ **يمم** بسامتيك لفوره صوب معبد الالهة « ينيث » ، حيث استقبله « نييتوتب » كبير كهنتها العجوز فى ترحاب صادق ، فقص عليه الشاب ما دار بينه وبين أبيه ٠٠ وفى عطف ، أخذ الكاهن الشيخ يؤنب بسامتيك على ما جرؤ عليه من اغضاب أبيه ، وراح يذكره بما للوالد من حقوق ، وبما للدماثة واللطف من قدرة على تحقيق المآرب ٠

وقال بسامتيك : « لقد حدثنى الملك عن نسب نايتيتس ٠٠ ولكن ، كأنى بك غير تواق لأن تستمع لى ؟ »

ـ ان الفضول رذيلة لا تستمرئها سوى النساء ٠٠ ثم انني عرفت كل ما سوف تقوله ، منذ أمد بعيد ٠٠

ـ اذن فأنت تعرف من هو الأب الحقيقى لنايتيتس ؟

ـ لقد تلوت بنفسى الصلوات على قبر الملك خفرع ٠٠ وكان حريا بك أن تعرف أن النجوم الخالدة والكتب الالهية كفيلة بأن توحى لى بالسر ٠٠ وهى أبدا لا تخدع من يخلص فى فهمها ٠٠

فشحب وجه بسامتيك اذ تذكر رؤيا أبيه ٠٠ ولمح الكاهن التغير الطارىء فقال : « أراك تفكر فى النذر التى رافقت مولدك ٠٠ ولكن الفلكيين الذين أدركوا سوء طالعك ، نسوا أنه قد يتحول الى سعد ٠٠ لو ٠٠ لو أنك تناسيت كل شىء ، وعشت عمرك للآلهة وحدها ، وأطعت وحيها طاعة عمياء ٠٠

وأقسم الشاب أن يكون كذلك ٠٠ واذ ذاك قال الكاهن :

ـ والآن ٠٠ لو أمكن أن ترجىء مصرع فينس فانى أحب أن أتحدث اليه أولا ٠٠ لقد وصل بالأمس جنود من أثيوبيا لا يفهمون اللغة المصرية ولا اليونانية ، فاذا قادهم شخص مخلص أمكن أن يخلصونا من الأثينى ، ثم نردهم الى أثيوبيا فورا ، دون أن يتاح لهم أن يدركوا حقيقة السر !

وما أن بارح بسامتيك الحجرة ، حتى برز كاهن شاب من حاشية الملك ، كان متواريا ، وقال : « أرأيت يا أبى اننى أجدت الاصغاء ، فلم أفلت كلمة مما دار بين الملك والامير ؟ »

ـ عد الآن الى القصر ، وأخطرنى اذا تبينت أن أحمس يحاول أن يعرقل الاعتداء على فينس !

*

◆ **فى** تلك الليلة زار « كروسس » ومرافقوه (نوكراتيس) وقضوا سهرتهم فى ضيافة «رودوبيس» ٠٠ أما ابنه جايجس والامراء الثلاثة فقد بقوا فى «سايس» اذ أعجبوا بها ٠٠ وراق لهم ما كان الملك وزوجته وابنتاه يغمرونهم به من حفاوة واكرام ٠٠ وكانت نايتيتس بادية اللوعة ، موجفة القلب خشية الفراق والغربة ٠٠ أما « تاخوت » ، فقد كانت لا تكاد تحول عينيها الزرقاوين عن « بارتشا » الامير الفاتن ٠٠

وخرج الشبان يجوسون خلال المدينة ، فأوفد الملك فى رفقتهم أحد ضباطه اليونانيين المقربين ٠٠ واذ بلغوا الشارع المفضى الى معبد « نييث » ، وجدوا جمعا أمام دار أنيقة أغلقت معظم نوافذها ، ورأوا شيخا فى ثوب أبيض ـ وهو زى خدم المعابد ـ وقد وقف يحاول أن يصد جماعة من زملائه عن أن ينقلوا صندوقا ضخما من الدار ، قائلا : « من أذن لكم بأن تسرقوا متاع مولاى ؟٠٠ لقد أقامنى مولاى حارسا على الدار حين أوفد الى ملك فارس ، وأوصانى بأن أحرص على هذا الصندوق بالذات ، اذ فيه وثائق تهمه »

فأجابه أحد الخدم الآخرين : «هدىء من روعك يا «حيب» فان « نييث » الاكبر ، وهو مولى مولاك ، قد أوفدنا » ٠

وأزاح الخدم الشيخ العجوز عن طريقهم ٠٠ وضحك «زوبيرس» الفارسى ، اذ أدرك أن صاحب الصندوق هو الطبيب المصرى الشيخ الذى أوفد لعلاج عينى والدة الملك الفارسى ، فجلب على نفسه كراهية الحاشية لمسلكه المتزمت المترفع ٠٠ وود «بارتشا» أن يتدخل ، لولا أن «جايجس» رجاه بأن يتحاشى اقحام نفسه فى توافه كتلك ٠٠ ومن ثم استأنفوا سيرهم ٠٠ وكان الظلام يزحف سريعا ٠٠ وفجأة ، مس غريب يد « جايجس » وهمس فى أذنه بالفارسية : «متى أستطيع أن أراك بنجوة عن الرقباء ؟٠٠ لا تسلنى ، فلدى معلومات خطيرة ٠٠ اننى فارسى مثلك» ٠٠

وبعد ربع ساعة ، التقى ابن «كروسس» بالغريب عند باب منعزل من القصر الملكى ، وفى صحبته « دارا » ٠٠ وفى لهجة سريعة متهدجة ، انطلق الغريب يقول :

ـ اننى ادعى بوبارس ٠٠ وكنت ضابطا فى قوات كورش ملك الفرس حين غزا «ساردس» ، بلد «كروسس» ٠٠ وقد ارتكبت هفوة أغضبت كورش على ، فكدت ألقى حتفى لولا أن

شفع لى «كروسس» ، فنزحت الى قبرص ، وتعلمت اليونانية والمصرية ، وحاربت ضد أحمس ، فأسرنى «فينس» ، وعينت بين العبيـــد فى حظائر خيل الملك ٠٠ وقد آن لى أن أرد الى «كروسس» صنيعه ٠٠ فقد علمت أنه الليلة فى ضـــيافة « رودوبيس » ٠٠ وأعرف أن مركبين محشودتين بالاثيوبيين قد أقلعتا خلسة لمحاصرة قصر «رودوبيس» واعتقال ضيوفه ، بتدبير من الامير بسامتيك ٠٠

ووجف قلب «جايجس» وهتف : «ما الوقت الذى يستغرقه الجواد فى قطع المسافة الى نوكراتيس ؟ »

ـ ثلاث ساعات ، اذا مضيت دون توان ٠٠

ـ حسنا ، سأمتطى جواد بارتشا ، وليأخذ بوبارس فرسك يا « دارا » ٠٠ أما أنت فابق هنا واعتذر للملك عن تخلفى عن مائدته ومجلسه ، وازعم أننى أصبت بصداع ٠٠

*

◆ **كانت** الاضواء تتألق فى قصر «رودوبيس» ، وقد حفلت موائدها تكريما لكروسس ٠٠ وكان بين المـدعويين فينس وزميله الاسبرطى وأريستوماخس

وفيما كان القـوم فى سمرهم الطروب ، انبعث صوت فى القـاعة يقول : «اغفروا لى أيهـــا السادة ازعاجى لكم ٠٠ واغفرى لى أيتها الاغريقية النبيلة ان ولجت دارك غير مدعو ٠٠ اننى «جايجس» بن «كروسس» ، وما قطعت المســافة بين سايس ونوكراتيس فى ساعتين لأمر هين ! »

وأفضى الى الجمع بما لديه ، فهب الرجال وقوفا متحفزين ، بينما استطرد يقـول : «عنـدما وصلت ، صهل جوادى ٠٠ وتبدى لى بريق أسلحة بين أشجار الحديقة ! ٠٠ ولكم أخشى أن يكون الاثيوبيون قد وصلوا ! »

٠٠ ارتجفت رودوبيس ، فى حين صـــاح أريستوماخس متحـــديا ٠٠ واذ ذاك قال فينس : « ما أرى الا أن المصريين



جندول (البندقية) الخالد ، يمرق فى احـدى قنواتهـا تحت « جسر التنهدات » الذى كان يعبره المسجونون فى عهـود الاستبداد قبل ان يصلوا الى زنزاناتهم ، فيلقون منه آخر نظرة على الدنيا الخارجية .. ويتنهدون !



الهرم السقيم الذى اقامه الامبراطور « كايوس » فى احدى ضواحى روما ..
وهو لا يبلغ ربع حجم أصغر الاهرامات المصرية !

سيقتلوننى فى صباح الغد وأنا أتأهب لمغادرة البلاد ، دون أن يشعر أحد ‥ ولو أننى بقيت هنا لما رعوا للبيت حرمة ‥ ولست أرى داعيا لاراقة الدماء من أجلى ! » .

وفجأة صاح تاجر من احدى جزر اليونان : « وجدتها ‥ لدى سفينة ستبحر مع مطلع الشمس محملة بالقمح ، من «كانوبس» لا من «نوكراتيس» ‥ فليستقل فينس جواد الفارسى الى هناك ، وسنفسح له الطريق لمغادرة الحديقة الآن ‥ » وتطوع «جايجس» كى يرافق «فينس» حتى يجتاز نطاق الخطر ، **فارتدى كل منهما ثياب الآخر ، ثم خرجا الى الحديقة ، فامتطى الأثينى حصان الفارسى وهو فى ثيابه ، بينما وقف «جايجس» ــ فى الزى الاثينى ــ يودعه صائحا : « مع السلامة يا جايجس » ‥ حتى اذا اختفى الجواد وراكبه فى جوف الظلام ، سار جايجس الى سفينة فينس واستقلها‥ وما أن ابتعدت عن الشاطىء حتى ارتفعت منها صرخات فى الظلام ، وسمع ضجيج القتال ‥ وما لبثت أن غاصت فى الماء ‥ وكان بعض المهاجمين فى تلك الاثناء قد أسروا « جايجس» وحملوه الى سفينة ملكية ‥ ثم انطلقت بهم مراكبهم عائدة الى « سايس » !**

الفصل السادس

الحب الاول

• كانت «سافو» تلعب فى حديقة جدتها «رودوبيس» مع جارتها «مليتا» حين أقبل «بارتشا» يسأل عن صديقه «كروسس» وابنه ‥ فأخذت الفتاة بجمال الشاب الفارسى وابهته ‥ وهرعت الجارية توقظ مولاتها ، فهمت «سافو» بأن تلحق بها ، لولا أن اشتبك ثوبها بأشواك بعض شجيرات

الورد ، فبادر «بارتشا» الى تخليص ثوبها ٠٠ ولم تقو «سافو» على أن تنطق بكلمة شكر ، بل غضت من بصرها مبتسمة فى حياء ٠٠ ثم تحولت تجرى نحو القصر ٠٠ واذا بالامير الجميل ينفض عنه حرج الموقف ، ويلحق بها ، فيمسك بذراعها ، قائلا :

ـ كيف أفلتك وقد اقتطفتك من بين الورود ؟٠٠ ان اسمى بارتشا ٠٠

ـ بارتشا ٠٠ بارتشا ٠٠ أتعرف أننى أحب هذا الاسم ؟

ـ وأنت ٠٠ ما أجمل اسمك !

ولم يفلتها حتى فاز بوردة كانت تزين صدرها ، وقدم لها فى مقابلها نجمة ماسية كانت هدية يعتز بها كأثر لابيه ٠٠

وعندما ولجت «رودوبيس» مخدع حفيدتها فى ذلك المساء كعادتها ، لم ترها نائمة فى طفولتها الساذجة ، بل كانت شفتاها ترتجفان ، والزفرات تنبعث من صدرها آسية ٠٠ كما لو كانت فى حلم محزن !

أما بارتشا ، فقد عاد الى «سايس» وفى قلبه وقدة الحب الاول ٠٠ وهناؤه ! ٠٠ وما لبث أن وصل «كروسس» فيمم لفوره الى أحمس ، وروى له كل ماحدث ، ملتمسا رد حرية ابنه الذى اعتقله الاثيوبيون فى سفينة فينس وهو متنكر فى زيه

وما أن انصرف كروسس من حضرة أحمس ، حتى استدعى الملك ابنه ٠

✻

◆ **استقبل** أحمس ابنه بضحك امتزجت فيه السخرية بالغضب ، فصاح الشاب : « لا تجرح شعورى يا أبت ٠٠ لولا مبعوث قمبيز ما أنقذت قوة ما ذلك اليونانى من الموت ! ٠٠ لذلك أرجو أن تسأل ملك الفرس أن يعاقب الرجل الذى تدخل فى الامر ! »

ـ بل سأكتفى بأن أحذره من فينس ، خشـــية أن يكون ما حدث قد أوغر صدر الاثينى بحيث يحفـــزه على الانتقـام بالوشاية واثارة الفرس ضد مصر !

ـ أفهذا قرارك الاخيـر ؟٠٠ اذن فلا تخش فينس وحده ، بل أخش رجلا آخر فى قبضتنا ٠٠ وأنت فى قبضته !

ـ أتهددنى يا بسامتيك ٠٠ أنصحك بأن تذكـــر أنك فى حضرة ملكك وأبيك !

ـ لسوف أمضى فى المعـــركة بأسلحتى الخاصة ٠٠ انك لتعرف أن نبنخارى ـ طبيب العيون ـ فى قبضتى وأصدقائى الكهنة ٠٠ لقد أبعدته أنت الى فارس قبـــل أن يخطر لك أن قمبيز قد يرغب فى الزواج من ابنتك ، لتقصى عن مصر رجلا كان مطلعا على نسب نايتيتس ٠٠ وان أتفه اشارة من الكهنة كفيلة بأن تدعه يطلع الملك على خدعتك حين أرسلت له ابنـة سلفك المخلوع بدلا من ابنتك !٠٠ ان كل أوراق الطبيب فى أيدى الكهنة ، وبينها خطاب بخط يدك الى أبيه تعـده فيـه بألف حلقة ذهبية ان كتم عن الكهنة أن نايتيتس ابنة رجـل سواك !

ـ حسنا ، فما رغباتك ؟

ـ ان تسأل قمبيز أن يعاقب جايجس ٠٠ وأن تطلق لى الحرية فى أن أفعل بفينس الهـارب ما أراه ٠٠ وأن تقسم للكهنة بأنك منذ اليوم لن تسمح للاغريق باقامة معابد لآلهتهم فى مصر ٠

ـ لقد وجدتم السلاح الذى يضطرنى لان ارتضى رغبـات أعدائى الذين انضممت أنت لهم ، ولكننى أتمسك بشرطين : أن أحصل على الخطاب الذى كتبتـــه لوالد نبنخارى ، حتى لا يستغله الكهنة لاستعبادى ٠٠ والثانية ، أن لا أسأل قمبيز أمرا سخيفا كعقاب جايجس ٠٠ والآن دعني ولا ترني وجهك

الا اذا أرسلت فى طلبك ٠٠ ودع الكهنة يحلون محل الاب لك ٠٠ لقد اعتدت من أجل صون عظمة مصر أن أقدم راضيا على كل تضحية شخصية ، أما الآن وأنا أرى الكهنة لايتورعون عن اتهامى بخيانة وطنى ، فى سبيل غاياتهم ، فسأنظر اليهم كأخطر أعداء لى ٠٠ لقد رضخت فى هذه المرة ، ولكننى أقسم بالالهة «نيبيث» أننى لن أحجم فى أية مرة قادمة عن أن أضحى بالكهنة كلهم ولا أنزل عن شىء من ارادتى !

وبادر بسامتيك الى كبير الكهنة فأفضى له بما قال أبوه ، ثم أسرع الى قصره ، واذا به يجد أن أباه قد أرسل فى طلب ابنه الصغير ـ حفيد الاب ـ ومربيته ٠٠ وألفى رسالة ملكية كتب فيها أحمس لولى عهده : « أرسلت استدعى ابنك حتى لا يصبح ـ مثلك ـ اذا كبر أداة عمياء فى أيدى الكهنة ، وسأشرف على تعليمه بنفسى ٠٠ ولا مانع لدى من أن تراه ، على أن تستأذننى فى كل مرة »

*

◆ **وعندما** أعلن الملك أن نايتيتس ستستكمل استعدادها للرحيل فى خلال أسبوعين ، شعر شبان البعثة الفارسية بأسى لقرب فراق مصر ٠ وكان «بارتشا» أكثرهم حزنا ، اذ كان قد تدله فى هوى «سافو» ٠٠ ولم يشعر أحد بما طرأ عليه من تغيير سوى «تاخوت» ، التى كان حب الامير الفارسى الفاتن قد تملكها ، حتى اضطرت الى أن تفاتح أختها ، فشجعتها نايتيتس ليتاح لهما أن تعيشا معا ٠٠ ولكن «بارتشا» اذ أحس بعاطفة الاميرة الفتاة ، راح يتجنبها ويبدى لها الفتور ٠٠ مما عذب المسكينة فقاست منه الامرين ٠

وكم كان الفراق قاسيا على قلبى «بارتشا» و «سافو» !٠٠ ولم تخف على «رودوبيس» ـ وهى المرأة التى عرفت الحياة ـ حال حفيدتها بعد الوداع ، فما زالت بها في مساء ذلك اليوم ،

حتى اعترفت لها بهواها ·· وحز فى قلب الغانية العجوز أن تقع الفتاة فيما حاولت أن تجنبها عذابه ·· وحاولت أن تزعزع قبضة الحب فى قلبها ، فلما استبانت أن تلك القبضة أثبت من كل محاولاتها ، لجأت الى «كروسس» تستشيره ·· وفيما هما يتحدثان ، أقبل «بارتشا» يصارح «رودوبيس» بحبه لحفيدتها ، ويرجوها أن لا ترفضه زوجا لها ··

وأمسك كروسس بيده فى حنان أبوى وقال له : « ألم أحذرك من الحب مرارا ؟ ·· انه نار تحرق ! »

ـ بل ان لهبه يضىء الحياة ··

ـ انه يبعث الالم ··

ـ ولكنه ألم حلو ·· يقوى القلب ··

وجاءت «سافو» ، فنهض اليها الشيخ وقبل جبينها ·· ثم أهاب بها أن تقترب من بارتشا وأن تمسك بيده ·· ووقف الشابان يتأملان وجه «رودوبيس» فى ضراعة ·· وكانت تبتسم والدموع تغمر وجهها ·· وهى تبارك حبهما !

الفصل السابع

فى بابل

◆ **بعد** سبعة أسابيع ، شوهد رتل من المركبات على الطريق المفضى من الغرب الى بابل · وكانت نايتيتس تغوص بين وسائد مركبة أنيقة ذات أربع عجلات ، تتبعها خمسون مركبة ، ويحف بها الامراء الفارسيون وملك ليديا المخلوع وابنه على جيادهم ، ترافقهم كوكبة من الفرسان ·· واذ بلغت مركبة « نايتيتس » آخر محطة للاستراحة قبل بلوغ المدينة ، تقدم « كروسس » يساعد الاميرة الشابة على الهبوط الى الارض ، ويسألها أن تستبدل بثيابها زى ملكات فارس ، ويشجعها على التأهب للقاء الملك ··

وكأنما لم يقو قمبيز على الانتظار ، فقبل أن يبلغ الركب « بابل » ببضعة أميال ، أقبل الملك بوجهه الشاحب تحيط به لحية سوداء كثة ، وتتجلى على ملامحه أسارير القوة والعظمة والكبرياء ٠ وكانت عيناه أكثر سوادا من شعره ولحيته ، تندلع منهما نظرات كأنها لهب حامية ٠٠ **ولم تقو نايتيتس على أن تحول عينيها عنه ٠٠ قط لم تر رجلا تتجلى كل معالم الرجولة على وجهه مثله ! ٠٠ وخيل اليها كأنما الدنيا بأسرها - وهى بالذات - خلقت لخدمته ٠٠ وأحست برهبة وخشوع وضعف ، فتمنت لو تعلقت به ولاذت بحماه ٠٠ وراحت الحمرة المضرجة، والشحوب المتقع ، يتناوبان وجهها، ونظراته الثاقبة مسلطة عليها ٠٠ ثم قفز عن جواده ولوح بيديه مرحبا ، وهتف وهو يصافح كروسس ويسأله أن يقوم بدور المترجم : « انها لجميلة ، وانها لتروق لقلبى ٠٠ »**

وأدركت نايتيتس ما كان يعنى ، فبادرت قائلة فى فارسية ركيكة استمدتها مما كان يلقنها كروسس خلال الرحلة: « لكم أشكر الالهة اذ جعلتنى أحظى برضاك » ٠٠ وهزت الكلمات زهوه فابتسم ٠٠ وبدا له حرصها على الفوز برضاه غريبا ، وهو الذى اعتاد من زوجاته الاخريات البلادة ، والجهل ، والانصراف الى الدس والمكائد ٠٠ ومع ان نايتيتس أجفلت اذ سمعته يتحدث عن « تطهير روحها » بتعليمها طقوس عبادة الشمس لتعتنق دينه ، الا انه لم ينتبه الى ما اعتراها، وقال لها : « سترشدك أمى كاساندانى الى واجباتك كزوجة لى ، وسأقدمك لها بنفسى غدا ٠٠ وأحب أن يكون اتصالك بالخصى (الطواشى) «بوجس» الذى نصبته على شئون الحريم ٠٠ »

وبادرت نايتيتس قائلة : « **قد يكون مشرفا على الحريم ، ولكني لا أرى أنه ينبغي أن تكون لمخلوق سواك امرة على**

زوجتك .. اننى رهن أتفه اشارة منك ، ولكننى أميرة من بلاد تبيح لاضعف امرأة أن تشارك أقوى الرجال حقوقه.. وان الكبرياء التى تشع من عينيك لتملأ صدرى .. ويسعدنى أن أطيعك ، فأنت عظيم ، وأنت زوجى وصاحب السلطان على ، ولكن من المستحيل أن أنصاع لمخلوق ناقص الرجولة .. عبد اشترى بالمال ! »

ودهش قمبيز لروحها ، وازداد رضاه عنها ، فوعدها بأن يخصص لها مقرا غير الحريم ، لا يكون الامر فيه لسواه .. وسألها عما اذا كان مبعوثوه قد أرضوها ، فهتفت :

ـ منذا الذى يعرف كروسس النبيل ولا يحبه؟..ومن يملك نفسه من الاعجاب بخلال أصدقائك الابطال ، لا سيما «بارتشا» ، أخوك الجميل الذى ملك كل القلوب ، والذى اكتسب اعجاب المصريين على نفورهم وتوجسهم من الاجانب!

وتجهم وجه الملك فجأة ، فلكز جواده فى قسوة جعلته يقفز فيسبق الركب الى بابل .. وكانت الحشود مجتمعة خلف أبواب المدينة ، فقابلت الملك وعربة عروسه بصيحات فرحة انقلبت الى هتاف بلغ عنان السماء حين بدا «بارتشا» ، فنم عن مدى محبة الناس للامير الشاب الجميل !

وبلغ الركب قلعة الملك ، ثم تقدمت عربة العروس الى قصر أصغر ، يشرف على الفرات .. واصطف علية القوم والامراء حول قمبيز ريثما تهبط نايتيتس .. وفجأة ، اخترقت الصفوف فتاة ألقت بنفسها بين ذراعى بارتشا وهى تبكى وتضحك وتقبله .. وهتف قمبيز مبتسما : « استحيى يا آتوسا !.. انك لم تعودى طفلة ، وخليق بأميرة مثلك ألا تنسى الحشمة ولو كانت مشوقة الى أخيها .. والآن عودى الى أمك ، وأنبئيها بأننى قادم لفورى مع بارتشا »

وغامت على وجه الملك سحابة وهو يقول لبارتشا بعد انصراف أختهما : « تعال الى أمنا ، فقد سألتنى أن أقودك

اليها بمجرد وصولك .. كل النساء لا يرتاح لهن بال حتى يرينك .. ولقد أنبأتنى نايتيتس أن شعرك الذهبى وخديك المتوردين فتنت نساء مصر ! »

ــ أو تعنى أن ليس لى من فضائل سوى جمالى ؟.. سأسألك أن تتيح لى الفرصة لأثبت اننى لا أقل رجولة عن أى فارسى !

ــ هيا .. اننا على وشك الحرب مع « المساجيتيه » اليونانيين الذين أردوا والدنا .. فهاك فرصة ..

وان هى الا دقائق حتى كان بارتشا بين أحضان أمه العمياء ، تضمه فى لهفة وشوق ، وتتحسس شعره ووجهه.. وتدلله بأعذب الكلمات .. **وكان مثل هذا المنظر يبعث فى قلب قمبيز ألما خفيا موجعا . كان ــ بوصفه الابن الاكبر لأبويه ووارث الملك ــ قد درب على الخشونة من حداثته .. ثم ان الشعب كان يرهبه وهو « قمبيز الجبار » فيخشع له .. أما بارتشا فكان «محبوبا» دون مارهبة، سيما وأنه كان شديد الشبه بأبيه كورش .. وما كان قمبيز ليكره بارتشا ، وانما كان يسوؤه أن لا يمتاز الشاب ببطولة وأعمال تبرر حب الناس له .. لكنه فى هذه المناسبة ، وبعد ما سمعه من اطراء نايتيتس لبارتشا ، استشعر غيرة أكربت نفسه .. فلما انصرفا من الحريم قال لبارتشا : « لقد سألتنى فرصة تتيح لك أن تثبت رجولتك .. ان عشائر « تابورى » قد أعلنت التمرد ، فأوفدت جيشا الى حدودها .. فالحق به وتول القيادة ! »**

ورحب الشاب بالفرصة ، والتمس من أخيه أن يسمح لاصدقائه دارا وجايجس وزوبيرس بأن يصحبوه ، فلما أجاب قمبيز سؤله ، عاد يقول : « هل تحقق لى أمنية فى نفسى ، ان قدرت لى الآلهة أن أعود مظفرا ؟ »

وأومضت عيناه اذ أكد له الملك رجاءه ـ فقد كان يفكر في « سافو » ! ـ لكنه انتبه فجأة على صوت قمبيز يقول :

ـ لقد بلغت العشرين وخليق بك أن تتزوج ٠٠ ويقال ان « روكسانه » ، ابنة النبيل « هيدرانس » بارعة الجمال ، فضلا عن نبل محتدها ٠٠ وعن أنها أخت « دارا » أعز أصدقائك !

وحاول بارتشا أن يصد أخاه عن التفكير فى زواجه ، ثم تحول يتوسل ويلحف أن يعفيه من العروس التى يريد أن يزوجه اياها ٠٠ ثم انتهى قائلا : « والآن ، وداعا ، فسأرحل للحرب منذ الغد ٠٠ هل تسمح لى بأن أودع نايتيتس بعد أن أودع أمى وأختى ؟ »

وعض قمبيز شفته ، وراح يتفرس فى أخيه بنظرة ثاقبة ، وقد أوحى اليه خياله أن يربط بين الحاف أخيه فى ارجاء التفكير فى زواجه ، وبين الغيرة التى ثارت فى فؤاده هو حين أطرت نايتيتس بارتشا !٠٠ وهجس الريب فى نفسه بأن أخاه أحب عروسه الجديدة ٠٠ فقر عزمه على أن يرسله الى مكان لا ترتقب له منه عودة ٠٠ اذا هو اعترض طريقه !

وفى تلك الليلة ، أمر قمبيز الخصى « بوجس » بأن يفرد للمصرية الجناح الذى كانت تشغله ثانية زوجات أبيه كورش ، فى القصر المقام بالحدائق المعلقة ، وأن يعاملها باحترام ، ولا يفرض عليها شيئا من أوامره ، ثم قال له : « واحرص على أن لا يقابلها أحد ـ ولا كروسس ـ حتى أصدر اليك أوامر أخرى ! »

ـ لقدكان كروسس معها اليوم ، وكانا يتحدثان باليونانية ، فلم أفهم من حديثهما سوى اسم بارتشا وقد تردد مرارا ٠٠ وكانت المصرية بادية الحزن ، ولعلها تلقت أنباء سيئة ٠٠

فولاه الملك ظهره وهو يسبه صاخبا ٠٠

الفصل الثامن

غيرة ... وتآمر !

◆ **قضى** الملك ليله مسهدا ، لفرط الغيرة التى زادت من رغبته فى أن يحظى بالعروس المصرية - اذ كانت التقاليد الفارسية تقتضى مرور عام قبل أن تغدو زوجه الشرعية ! - ولكنه ما لبث أن عقد العزم على أن يخفض المدة الى شهور أربعة ٠٠ وأن يغير القانون والتقاليد ، بما له من سلطان ٠٠

وأحس بسأم واشمئزاز نحو زوجاته الاخريات ٠٠ حتى « فيديمه » ، ابنة خالته وأكثر زوجاته حظوة لديه قبل أن يرى نايتيتس التى بدت له أنبل وأرفع من كل النساء طرا !٠٠ لقد استهوت قلبه فقرر أن يبوئها من نفسه ما كان لأمه لدى أبيه من مكانة ، فتكون ملكته الحقيقية وصاحبة الشورى لديه !

وبدورها قضت نايتيتس هى الاخرى ليلة كئيبة ٠٠ وتولاها الحنين الى وطنها ، والى أختها المسكينة « تاخوت » ٠٠ كما فكرت فى « بارتشا » الذى أنبأها كروسس بأنه ذاهب الى القتال ٠٠ ومن يدرى ؟

وواتاها النعاس أخيرا ٠٠ فرأت فى المنام « قمبيز » على صهوة جواده الاسود ٠٠ وأجفل الجواد اذ رأى جثة بارتشا تعترض طريقه ، فألقى براكبه على الارض وجره الى النيل الذى فاض بسيل من الدم القانى !٠٠ وصرخت الفتاة فاذا الاهرامات تردد صرختها ٠٠ ثم استيقظت مفزوعة فجرت الى النافذة ، واذا الحدائق الغناء تستلقى وادعة فى أحضان القمر ٠٠ **وفجأة ، لمحت شبحين يتسللان من المبنى الذى خصص لها ٠٠ وعرفت فى أحدهما الخصى « بوجس » ٠٠ أما الآخر فكان لامرأة فارسية جميلة ، كانت تسائله ملهوفة :**

ـ أحقا ان في وجود هذه الغريبة خطرا على مكانتي ؟
ـ أجل ٠٠ انها لا تتلقى مني أوامر ، بل تتلقاها من الملك رأسا ٠٠ لسوف تحتاجين الى معونتي يا عصفورتي ٠٠ وعندما يرحل كروسس البغيض ، سندبر لها شركا !

وارتدت نايتيتس عن النافذة فى شمم صامت وقد بدأت تعرف أعداءها ٠٠ وداخلها فرح اذ أدركت مكانتها لدى قمبيز ، فتولاها يقين غريب بأنها ولا بد منتصرة على كل من يريد بها شرا ٠٠

وزاد من غبطة نايتيتس أنها وجدت من الاصدقاء من يعوضها عن الاعداء ٠٠ فلقد وقعت من نفس كساندانى ، أم الملك العمياء ، أحسن موقع ٠٠ كما أحبتها أخته « أتوسا » ٠٠

وعهد الملك الى كروسس بأن يشرف على تلقين عروسه العادات والدين واللغة الفارسية ٠٠ وقبلت الفتاة على مضض أن تتعلم الدين الجديد ، حين أقنعها كروسس قائلا : « اذكرى دائما أن لا الآلهة المصرية ولا الفارسية ولا اليونانية تحكم العالم ، وانما تحكمه قوة واحدة ، لا تتجزأ ، هى التى توجه مصائر الامم والمخلوقات ، وان كنا ندعوها بأسماء مختلفة ، ونصورها فى أشكال متباينة ٠٠ »

❖

◆ **وأصبحت** « كساندانى » بمثابة الام و « أتوسا » بمثابة الأخت لنايتيتس ٠٠ كما كان الملك يزداد كل يوم بها اعجابا ، ولها تقديرا ٠٠ ورويدا ، تحولت رهبة نايتيتس من الملك الى حب أخذ ينمو ، حتى غدا مشبوبا ٠٠

وذوى نفوذ الخصى « بوجس » ، اذ لم يعد الملك يتردد على « الحريم » ـ مملكة العبد ـ وكان حريا بالعبد أن يجد فى « فيديمه » ـ الزوجة الاثيرة المهجورة ـ حليفا ، فراحا يتآمران سرا ضد غريمتهما المشتركة نايتيتس !

وقدر لبارتشا أن ينتصر ، وأن يعود مظفرا ، فتلقته الجماهير فى حفاوة رائعة ٠٠ كما تلقاه قمبيز فى ابتهاج ، وصحبه الى أمهما كساندانى لدى وصوله ، وكانت نايتيتس فى حضرتها - فقد اطمأن الملك الى حب الفتاة له ، وشاء أن يظهر لبارتشا أنه يثق فيه ، سيما وان الحب مسح باللطف على خشونته ، وبث الرحمة فى فؤاده ٠٠

وحان عيد ميلاد قمبيز ، فاذا بابل تزخر بالامراء والنبلاء ، وقادة العشائر وحكام الولايات والمستعمرات ، وقد جاءوا بالهدايا والقرابين ٠٠ وكان هذا العيد خير فرصة كى يصارح بارتشا أخاه بالامنية التى سأله أن يحققها له لو عاد مظفرا ٠٠ فسعى الى أمه أولا يكشف لها عن قلبه ٠٠ وكان كروسس قد مهد له الطريق لدى أمه ، التى لم يكن يكدرها سوى أن قمبيز لم ينجب أولادا ، وان أى ابن ينجبه بارتشا من زوجة اغريقية لا يمكن أن يلى العرش !

وفى تلك الاثناء ، قدر للسعادة التى بدأت تسيطر على نايتيتس أن تتبدد حين تلقت من « أمها » المزعومة « لاديس » - زوجة « أحمس » - خطابا طار قلبها شعاعا لما حواه من أنباء : **فلقد خبا ضوء عينى أحمس فى نفس اليوم الذى وصلت فيه الى بابل ، كما أن تاخوت أصيبت بمرض قاس ، واشتد بها الهزال حتى أشرفت على الهلاك ، من جراء حبها لبارتشا وما يتملكها من يأس ٠٠ وهكذا سيطرت سحب النحس على بيت أحمس ، وأصبح بسامتيك يدير شئون الدولة نيابة عنه ، بمعونة نبيتوتب كبير الكهنة !**

وأحزنت هذه الانباء « نايتيتس » فظلت تبكى حتى خارت قواها ودهمها النعاس ٠٠ ولم تستيقظ فى الموعد المعتاد من الصباح ٠ وأشفقت عليها وصيفتها «ماندانى» فلم تشأ أن توقظها ، وهبطت الى الحديقة فى انتظار يقظتها ٠٠ واذا بها

تلتقى بالخصى « بوجس » وقد أقبل يحمل اليها نبأ سارا : فلقد كانت « ماندانى » تهوى « جاوماتا » شـقيق الكاهن الاكبر «أوروباستس» ، فلما كشف الكاهن الامر رأى فيه خطرا يهدد مطامعه ، اذ كان يرجو أن يزوج أخاه من احدى بنـات الاسرة المالكة ، كى يرقى على أكتاف هذا الزواج الى حكم البـلاد فى فترات غياب قمبيز فى الحروب ، لذلك أقصى أخاه بعيـدا ، وسعى حتى ألحق « ماندانى » بالخدمة فى القصر الملكى حتى ينسيا غرامهما !٠٠ لكن « بوجس » فاجأ الفتاة فى ذلك اليـوم بأنه يحمل لها رجاء من حبيبها ـ الذى كان فى جمال بارتشا ، بل كان شديد الشبه به ـ كى تلقاه فى الحـدائق المعلقة فى الليلة التالية ٠٠ ووعدها بأن يقصى الحراس حتى يخلو لهمـا الجو للقاء !

واذ فارقها ، يمم شطر كبير البستانيين فأخطره بأنه سيحضر بعض النبلاء ليريهم بعض الزهور النادرة التى كان البسـتانى يزهو باستنباتها ٠٠ ثم ذهب الى « الحـريم » ليأمر زوجات الملك بأن يتخذن أبهى زينة ٠٠ ولكنه أصر على أن تبدو «فيديمه» فى أبسط المظاهر ، ليثير بذلك أهلهـا وأقاربها فى مأدبة العشاء التى أقامها قمبيز بمناسبة عيده ٠٠ وامعانا فى الاثارة ، أمرها بأن تنحنى فى خضوع أمام المصرية حين تلتقى بهـا فى المأدبة ٠٠ حتى يوغر صدور أهلها ضد غريمتها !

الفصل التاسع

الكأس المسـمومة

◆ **كانت** نايتيتس وآتوسا نجمى المأدبة اللامعين ٠٠ وصح ما توقعه الخصى الخبيث ، فان جميع أبناء عشيرة « أخيمنديه » ـ التي كانت « فديمه » تنتمى اليها ـ ساءهم ما تبدى على هذه من ذلة وصغار !

واذ فرغ الجميع من الطعام ، وشربوا نخب الملك ، التفت هذا الى أخيه بارتشا يسأله عن الأمنية التى سأله أن يحققها اذا عاد مظفرا من الحرب ٠٠ وصارحه الشاب بحبه لسافو ورغبته في الزواج منها ٠٠ وابتهج قمبيز اذ تبين أن شكوكه فى أخيه كانت خاطئة ، فوعده بأن يوفده بعد أيام ليحضر عروسه ٠٠ وما أن سمعت « نايتيتس » ذلك ، حتى تذكرت أختها وتعاستها ، فأغمى عليها !

وقفز قمبيز وقد شحب وجهه حتي صار كوجوه الموتى ٠٠ واذ أفاقت نايتيتس ، تطلعت الى وجه قمبيز فى اعتذار وتوسل ، ولكن مخاوف الجبار كانت قد تأججت ، فصاح فى الخدم أن يعودوا بالنساء الى « الحريم » ٠٠ وقال لنايتيتس وهى تنصرف : « طيبى نوما أيتها المصرية ، وسلى الآلهة أن تهبك القوة كى تسيطرى على عواطفك ٠٠ الى بنبيذ ٠٠ بل ذوقوه أولا ، فاننى لأول مرة أخاف السم ٠٠ أتسمعين يا مصرية ؟٠٠ أجل ، فكل السموم ، وكل الترياق ، تأتى من مصر ! »

وصدرت الاوامر الى « بوجس » بأن لا يسمح لأحد - ولو كان أم الملك أو أخته أو كروسس - بدخول الحدائق المعلقة ، حيث قصر نايتيتس ٠٠ بينما تابع قمبيز الشراب ، وهو يفكر فى عقاب للمرأة التى خالها تخدعه !

وفيما هو منصرف ، رأى « بوجس » فى نزاع مع صبى كان يحمل رسالة زعم أن نايتيتس أمرته بأن لا يسلمها لغير الامير بارتشا ٠٠ وركع الصبى اذ رأى الملك ، فانتزع هذا منه الرسالة ، ثم دق الارض بقدمه غاضبا اذ ألفاها كتبت باليونانية التى لا يعرفها ٠٠ وأمر الخصى بأن يشدد الرقابة على المصرية ، وأنذره بأنه سيقضى عليه لو أن انسانا أو رسالة نفذت اليها ، فمنذ اللحظة غدا مسئولا عن الحدائق المعلقة كلها !

وزعم بوجس أنه محموم ، ثم التمس من الملك أن يعين رئيس « الطواشى » بدلا منه ، ولو ليوم واحد يتمالك فيه صحته ،

فقبل الملك أن يتولى « كانداولس » ــ زعيم الخصيان ــ الحراسة فى الغد ٠٠ واذ ذاك قال « بوجس » انه كان قد وعد خمسة من النبلاء ــ بينهم كروسس ــ بأن يريهم الزهور النادرة التى استنبتت فى الحدائق أخيرا ، فسمح الملك بأن يتولى «كانداولس» عنه مهمة مرافقتهم ، على أن يعلم أن حياته ستضيع لو أن أحدا منهم اتصل بالمصرية !

*

◆ **وانتهى** الصيد والقنص ، فدعا بارتشا أصدقاءه : «دارا» و « زوبيرس » و « جايجس » الى كأس للوداع قبل رحيله الى مصر ٠٠ وفيما هم منتشون بأحاديث الهوى والمخاطرات ، اذا « كروسس » يفد مضطربا ، فيهتف ببارتشا : « أو ما زلت هنا ؟٠٠ بادر الى الفرار ٠٠ ألا تعرف طباع قمبيز الهوجاء ، وغيرته منك ؟٠٠ فكيف سولت لك نفسك أن تزور ليلة أمس زوجته المصرية ؟ »

ــ أزورها ؟٠٠ اننى لم أبرح هذا البستان !

ــ لا تلجأ الى الكذب ، ولذ بالفرار ٠٠

ــ لست أكذب ، ولن أفر !

ــ انك غر مفتون ٠٠ لقد رأيناك بأعيننا قبل ساعة فى الحدائق المعلقة ؟

وأقسم الشاب فى حرارة جعلت الشيخ يصدقه ٠٠ وقبل أن يجد للأمر تفسيرا ، أقبلت ثلة من الجنود بقيادة ضابط كان تحت امرة بارتشا فى الحرب ، فأنبأه بأنه مكلف بأن يلقى القبض عليه وعلى كل من معه ، ولكنه يدع لهم فرصة الفرار ، ولو دفع حياته ثمنا لذلك !٠٠ وأبى بارتشا ٠٠ فلقد كان بريئا ، وكان يعرف نزق أخيه فى ساعة الغضب ، ولكنه كان يوقن من عدالته اذا ما هدأت سورته ٠٠

ولم يكن أصدقاؤه أقل شجاعة منه ، فأبوا أن ينفضوا عنه ، رغم ما كان يتهددهم من خطر !

الفصل العاشر

حكم بالاعدام

◆ **لم تنقض** ساعتان حتى مثل بارتشا وأصدقاؤه أمام الملك، الذى كان قد تغلب على الغضب الجامح الذى تملكه حين أفضى اليه « بوجس » بأنه ذهب ـ رغم مرضه ـ ليتفقد الحدائق ، فلمح بارتشا الى جوار نافذة نايتيتس ، وما لبثت هذه أن أشرفت من مخدعها ٠٠ وكان كروسس وبعض النبلاء يشاهدون الزهور النادرة ، فنادى الشيخ على بارتشا ولكن هذا لاذ بالفرار بين الاشجار ٠٠ ولم يملك النبلاء أن يكذبوا رواية الخصى ، وان كان كروسس قد قرر أنه ربما خدع بشخص شديدالشبه ٠٠ فشحب وجه «بوجس» لسماعه هذه الكلمات٠٠

على أن أصدقاء بارتشا أكدوا أنه لم يبرحهم طيلة الامسية ، وانهم جميعا كانوا فى القنص ٠٠ وراح قمبيز يتأمل الوجوه بنظرات ثاقبة محاولا أن يستشف الحقائق ، ولكنه لم يرمايفسر هذا التناقض الغريب ٠٠ بينما هتف بارتشا :

ـ ما كان لابن من صلب كورش أن يكذب ٠٠ ولو أن كل شعب فارس هب يتهمك بأنك ارتكبت سوءا ، وقلت لى انك لم تفعل ، دون ماقسم ، لصحت فى فارس بأسرها أكذب شعبها لأن ابن كورش لا يقدم على الكذب ٠٠ أقسم لك اننى برىء ، ولم ألج الحدائق المعلقة مذ عدت من ميدان القتال !

اذ ذاك لانت قسمات وجه قمبيز ، وبسط يده لاخيه ٠٠**وفى تلك اللحظة أقبل خادم فقدم للملك خنجرا وجد تحت نافذة نايتيتس ٠٠ وتأمل قمبيز الخنجر ، ثم امتقع وجهه٠٠وما لبث أن التفت الى أخيه فى غضب وصاح : « هذا خنجرك أيها الكاذب ٠٠ اقبضوا عليه وكبلوه بالاغلال٠٠ستعدم واصدقاؤك**

الاشقياء غدا ٠٠ وستضرب المصرية بالسياط فى الظهيرة على مرأى من الملأ فى الطرقات ٠٠ »

ثم تولته نوبة الصرع ٠٠

وكأنما كان القدر مصرا على أن يورد المساكين أبشع مصير ، فقد عرض قمبيز الخطاب الذى كتبته نايتيتس باليونانية على كروسس ، وأمره بأن يقرأه عليه ٠٠ فاذا به يتضمن هذه العبارة : « لدى أمر هام أريد أن أفاتحك به ، ولا يمكن أن أفضى به لمخلوق سواك ٠٠ أرجو أن أراك غدا فى جناح أمك ٠٠ فى يديك مواساة قلب محب حزين ، وادخال الفرحة عليه قبل موته » ٠٠ وحاول كروسس أن يشفع لكاتبة الخطاب لدى الملك ، فاذا به فى سورة الغضب يأمر بأن يكون مصيره مصير الآخرين !

❋

◆ **مرت** بنايتيتس ساعات حافلة بالشقاء ، فقدباتت سجينة فى مخدعها ، تحت حراسة « بوجس » الذى أنبأها فى شماتة ساخرة بأن خطابها وقع فى يدى الملك !

وراحت المسكينة فى غيبوبة من الأسى ٠٠ واشتد بها القنوط حين أقبل بوجس مع عبدين آخرين فكبلوا يديها وساقيها بالأغلال !٠٠ وفى لوعة الجزع قر رأيها على أن تتناول سما يقضى عليها قبل أن تتعرض لمهانة الاعدام ٠٠ وشرعت لفورها تكتب خطابا لقمبيز ، على الرغم من أصفادها ، وقد دبرت الأمر بحيث لا يتسلم الملك الخطاب حتى تكون هى قد لفظت أنفاسها ٠٠ وفعلا كتبت تقول : « أؤكد لمولاى اننى أحبه أكثر من حبى للآلهة ولحياتى ٠٠ فلتحسن « كساندانى » و « أتوسا » بى الظن ، اذ أن خطاب أمى كفيل بأن يثبت براءتى ويؤكد اننى ما رغبت فى رؤية بارتشا الا من أجل أختى البائسة ٠٠ اننى ارتكب جريمة قتل نفسى ، لاحول بينك يا قمبيز وبين عمل ظالم تلاحقك جريرته ! »

وعهدت بخطابها وخطاب أمها ـ زوجة أحمس ـ الى وصيفتها ماندانى كى تسلمهما الى قمبيز بعد أن تلفظ أنفاسها ٠٠ ثم ركعت واستغرقت فى صلاة حارة لآلهتها الأصليين ٠٠ آلهة الفراعنة ٠٠ وحين فرغت منها أطلت على الكون ، فاذا الفجر ينبثق ٠٠ وظلت سارحة الطرف ، شاردة الذهن ، ثم أحست بالخور والوهن يغلبانها ، وتهالكت على أريكة قريبة ٠٠ فغشيها النعاس ، ولما تمس السم !

ووقفت ماندانى ترقبها وقد أخذ ضميرها يستيقظ ٠٠ وخفق قلبها أسى للشابة المظلومة ، المهيضة الجناح ٠٠ وانتهى بها التفكير الى أن اعتزمت الاعتراف بأن حبيبها ـ الذى كان شديد الشبه ببارتشا ـ هو الذى كان فى الحدائق المعلقة فى الليلة السالفة !

كذلك قضى « بوجس » ليلة مسهدة ، وقد طردت نشوة الظفر كل أثر للنعاس عن جفنيه ٠٠ أما « فيديمه » ـ زوجة قمبيز المهجورة ـ فقد أرقتها لهفة الى معرفة ما دبره حليفها الخصى ، الذى بادر الى مخدعها في ساعات الصباح الباكرة يداعبها مزهوا ، ويصف فى شماتة موكب العار ٠٠ عار المصرية اذ توضع على ظهر حمار يطوف بها فى الطرقات حتى ينتهى الى ساحة الاعدام !

ومضى يروى لها خطته التى نفذها : كان قد فطن الى غيرة قمبيز على عروسه من أخيه ، فعول على أن يستغلها ٠٠ وكأنما شاء القدر أن يساعده فأرسل اليه « جواماتا » ـ شقيق الكاهن الاكبر ـ اذ وفد على بابل مع الوافدين فى عيد الملك ، فراعه ما كان بينه وبين بارتشا من شبه ٠٠ واذ ذاك واتته الخطة ، فقد منى هذا بأن يجمع بينه وبين « ماندانى » ، الحبيبة التى حرم منها ٠٠ وأخفاه فى داره زيادة فى الحيطة، وقد اعتزم أن يذهب به الى الحدائق المعلقة ـ من مدخل سرى ـ

فى نفس الموعد الذى دعا فيه كروسس والنبلاء كى يشاهدوا الزهور النادرة ، ثم يتعمد أن يرسله الى نافذة مخدع نايتيتس أثناء وجود النبلاء على مقربة من المكان ، فاذا خرجت اليه وصيفتها « ماندانى » خيل اليهم انهم يشاهدون لقاء بين نايتيتس وبارتشا !٠٠ ومرة أخرى ، بدا القدر فى عونه ، فقضى على نايتيتس بأن تقع مغشيا عليها فى المأدبة حين تحدث بارتشا عن زواجه من « سافو » ٠٠ وبأن يظفر الملك بالرسالة التى كتبتها للامير الشاب كى يستجيب لغرام أختها الملتاعة باخوت !

الفصل الحادى عشر

شاهد جديد

◆ **لم تكن** قد بقيت سوى سويعات قلائل على موكب العار ، فزخرت طرقات بابل بالناس ٠٠ وفجأة ، وفدت على باب « بعل » مركبة أنيقة جلس بداخلها رجل مليح فى الخمسين من عمره فى ثياب رجال البلاط ٠ وصاح الحوذى فى الجنود الواقفين لدى الباب : « افسحوا الطريق والا ندمتم على أى تأخر يضطر اليه مولاى ! »

وما ان بلغت المركبة قصر الملك حتى هبط الراكب ، فاذا به يونانى أقبل يرجو لقاء الملك ، زاعما أنه أوتى ما يبرىء ساحة الموشكين على الموت !

وصاح قمبيز : « دعوه يأتى ٠٠ ولكن ، ليذكر انه سيدفع رأسه ثمنا ان كان يبغى خداعى ! »

وأخذ قمبيز بمظهر الاغريقى ومسلكه ، فتلاشى توجسه ٠٠ ثم ذهبت عنه الريبة حين تبين ان الرجل لم يكن سوى « فينس » الذى ذاع صيته كقائد للجنود الاغريق فى خدمة فرعون مصر ٠٠ وحين علم انه جاء يعرض عليه خدماته !

ومضى الرجل قائلا فى فارسيـــة ركيـــكة : « صحيح ان ثمة أمرا آخر جئت الى فارس من أجله ، ولكننى أرجئه الى وقت آخر ٠٠ أما اليوم ٠٠ »

ولم يشأ الملك أن ينصت ، فقد كان متعجلا يريد الخروج للقنص ، اذ كانت هذه عادته اذا أراد أن يسرى غضبه٠٠ بيد أن «فينس» استطاع أخيرا أن يقنعه بالاستماع الى قصته :

ففيما كانت مركبته تقترب من بابل ، قبيل منتصف الليلة السالفة ، سمع صرخات مرتاعة ، قانطة ، وتبين ثلاثة أشقياء شرسى المظهر ، يجرون شابا الى النهر ٠٠ وجرت الدماء فى عروقه ، فتصدى لهم ونازلهم ، واستطاع أن يقتل أحدهم ٠٠ واذ ذاك فر زميلاه ٠٠ وانحنى « فينس » على الشاب الذى كاد يذهب ضحية ، وشد ما كانت دهشته اذ وجد أنه لم يكن سوى « بارتشا » الذى كان قد تعرف اليه فى بلاط فرعون ٠٠

وحمله الى أقرب محطة فى الطريق ، فضمد جراحه ، وعنى به حتى أفاق من غشيته ٠٠ وكم كان عجب « فينس » اذ علم منه انه لم يكن بارتشا ، وانما ٠٠ أخ كبير الكهنة ٠٠ ومضى « فينس » قائلا :

ـ وعاودته الحمى من جديد ٠٠ وبدا من هذيانه أن الحدائق المعلقة كانت تشغل باله ٠٠ وانه نجا من خطر شديد ٠٠ وانه التقى فى الحدائق بامرأة تدعى «ماندانى» ٠٠

وهتف قمبيز : « ماندانى ٠٠ ان وصيفة ابنة أحمس تحمل هذا الاسم ! »

وأخلد الاغريقى الى التفكير لحظة ، ثم قال : « أطلق مسجونيك يا مليكى ، فانى أضع رأسى ضـمانا لأن بارتشـا لم يكن فى الحدائق المعلقة ! »

وكان الملك يصغى فى دهشة ٠٠ لم تسؤه جرأة الأثينى ، بل أطال التفرس فى وجهه ، فاذا به يزداد اطمئنانا الى صـــدقه

وصراحته ونبله ·· وابتسم « فينس » أخيرا ، وسأله أن يسمح له بأن يسأل رجال بلاطه عن بعض معلومات تساعده على اظهار الحقيقة ·· وفيما كان يفعل ذلك ، استدعى الملك قائد حرسه وسأله عما يفعل المسجونون ، فأجابه : «النصر للملك!·· انهم ينتظرون الموت فى هدوء ، فليس أحلى من الموت فى سبيل ارضائك ·· ولولا خوفى من نقمة مولاى ، لقلت انك لو سمعت ما يتبادلون من حديث لما تمالكت أن تؤمن ببراءتهم ! »

والتمس « فينس » من الملك أن يستدعى كبير الكهنة و « ماندانى » ، ثم تولى بنفسه سؤالهما : فأقر الأول بأن له أخا يشبه بارتشا ، وانه كان قد أقصاه ليسلو هوى « ماندانى »·· واعترفت هذه باللقاء الذى جرى فى الحدائق المعلقة على يدى «بوجس» ·· ثم انطلقت فى حرارة تروى ما كان يبدو من مولاتها من حب لقمبيز ، حتى انها لتردد اسمه لنفسها فى نومها ويقظتها !·

وأرسل الملك يدعو « بوجس » ، فاذا الخدم لا يعثرون له على أثر ! وغضب الملك فأمر بأن يساق اليه فى الصباح التالى ، كيفما كان الامر ·· ثم أمر باطلاق سراح المعتقلين جميعا ·· ونهض فسار الى جناح أمه التى لم تكف فى تلك الاثناء عن الارسال فى طلبه كى يذهب اليها ··

كان الأسى يسيطر على جناح أم الملك ، فان كساندانى حين علمت بما تضمنه خطاب نايتيتس لبارتشا آمنت بخيانتها ، وحملتها جريرة مصير ابنها ورفاقه ·· أما « أتوسا » فقد جن جنونها للموت المعلق على عنق أخيها الأثير ، فراحت تشق ثيابها ، وتقطع شعرها ، وتسب « قمبيز » ، ثم راحت تصلى للالهة وتسكب الدمع مدرارا ·· وحاولت أن تحمل أمها على أن تصحبها الى الحدائق المعلقة ، لتستبينا حقيقة موقف نايتيتس ، ولكن اصرار الأم على الرفض زاد من هياجها ، حتى اضطرت كساندانى الى أن تأمرها بأن تلزم مخدعها ··

وأقبل أخيرا رسول من كروسس يحمل للملكة الأم بشرى اطلاق سراحه وبارتشا وأصدقائه ، وبراءة نايتيتس ٠٠ فبادرت كسانداني الى استدعاء نايتيتس ٠٠ وهرعت آتوسا الى الحديقة ترتقب محفة صديقتها فى لهفة ٠٠ ولم تكد تراها وقد عراها شحوب الموتى حتى انفجرت باكية ، وراحت تعانقها وتقبلها ٠٠ ولم تكد المصرية تبلغ حجرة أم الملك ، حتى كانت فاقدة الرشد ٠٠

وعندما فتحت عينيها ، وجدت رأسها مسندا الى حجر الملكة العمياء ، بينما كانت شفتا اتوسا تلتصقان بجبينها ، وقمبيز يقف مطلا عليها ٠٠ فابتسمت اذ عرفتهم ، ثم غمغمت فى لهجة خلت من اللوم وزخرت بالأسى : « كيف ظننت بى الظنون يا مليكى ؟ » ٠٠ فهمس فى ضراعة : « اغفرى لى ! »

ودفعت اليهم بخطاب أمها ، وهى تهمس : « لا تسخروا من أختى ، فان المصرية اذا أحبت لم تتحول عن حبها ٠٠ ولكننى خائفة ٠٠ ان النهاية تقترب ٠٠ ذلك البغيض « بوجس » ٠٠ أخبرنى بحكم الاعدام وموكب العار ٠٠ فتناولت السم ! »

ولم يقو الطبيب على شىء ، فقد كان السم الذى تناولته زعافا ، لا ترياق له ٠٠ وصرخ الملك مهتاجا : « بل يجب أن تعيش ٠٠ ادعوا أطباء بابل جميعا ٠٠ والكهنة طرا ٠٠ يجب أن تعيش ! »

وفتحت عينيها وكأنها تحاول اطاعة رغبة الملك ٠٠ وتطلعت اليه طويلا ، وهو يلصق براحتها شفتيه المحمومتين ، وتمتمت : « يا لها من سعادة ! » ٠٠ ثم راحت فى بحران الحمى ٠٠

الفصل الثانى عشر

غـزو مصر ٠٠

◆ **أخفقت** كل المحاولات فى انقاذ حياة نايتيتس ٠٠ وعصف الحزن بقمبيز لوفاتها ، فراح ينشد السلوى على طريقته : بالغزو والفتح والقتال !

وأضاء له « فينس » الطريق : روى له أن نايتيتس لم تكن ابنة أحمس ، وانما ابنة سلفه خفرع !٠٠ وراح فينس يزين لقمبيز غزو مصر ، والاستيلاء على عرشها بوصفه زوج الوريثة الشرعية لذلك العرش !٠٠ وكان حب الثأر ما يزال يتملك الأثينى ، لما ناله على يدى « بسامتيك » ولى عهد مصر ٠٠ سيما وان هذا قد استطاع أن يقتنص ابن « فينس » ويقتله !

أما ما بقي فيعرفه كل من درس التاريخ : **اذ غزا قمبيز مصر ـ يعاونه « فينس » ـ فهزم بسامتيك ، واستولى على امبراطورية مصر بأسرها ٠٠ ومع ذلك ، فان الحرب والظفر لم يسريا عنه الحـــزن الذى ناله لوفاة نايتيتس ، فانصرف الى الشراب ، واشتدت به نوبات الهياج والصرع ، وفرض على امبراطوريتـه حكما من الارهاب والفزع ٠٠ واستفحل طغيانه حتى لقد أمر باعدام أخيه بارتشا فى نوبة أخـرى من نوبات الغيرة ، ولم يحجم عن تنفيذ الحكم ٠٠**

لكن الأمر انتهى به أخيرا الى أن يذوق الهزيمة عـلى أيدى الاحباش ٠٠

وسنحت لكبير الكهنة «أوروباستس» فرصة تحقيق أطماعه حين مات قمبيز ، فحاول أن يستولى على عرش فارس ، ولكنه فقد حياته ثمنا للمحاولة ٠٠ ثم أفاقت فارس من الهزات التى أصابت كيانها ، فعادت تتحد تحت لواء « دارا » النبيـــل ٠٠ صديق بارتشا الوفى وقريبه !

كتب الأولون



كنوز الكتب القديمة

عزيزى القارىء ...

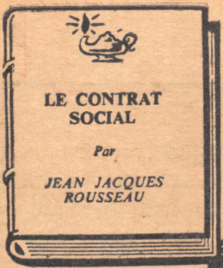
قرأت معى فى الاعداد الماضية من كتابى ، من روائع الكتب القديمة ،هذه الكتب على التوالى :

« ديكاميرون » : بوكاشيو
« دون كيشوت » : سرفانتس
« الالياذة » : هوميروس
« اميل » : جان جاك روسو
« حى بن يقظان » : ابن طفيل
«روبنسن كروزو» : دانييل ديفو
« غرام الاخوين » : (كاتب فرعونى مجهول)
« يوتوبيا » : توماس مور
« الجمهورية » : أفلاطون
« الكوميديا الالهية » : دانتى
« الاوديسة » : هوميروس
« العالم كما يسير » : فولتير
« غرام مشبوب » : لين يوتانج
« رباعيات عمر الخيام »
عفاف (كوزى سانكتا) : فولتير
رسالة الغفران : المعرى
« نظرية التطور » : داروين
« رأس المال » : كارل ماركس

وفيما يلى أقدم لك الكتاب الذى أحدث اكبر هزة فى القرن الثامن عشر، وكان من اقوى الكتب التى مهدت لقيام الثورة الفرنسية

جان جاك روسو

العقد الاجتماعى !





انجيل الثورة الفرنسية

◆ يسر كتابى ان يقدم اليك فيما يلى أول خلاصة وافية تنشر بالعربية لهذا الكتاب الشامخ الذى يعد من أقوى الكتب السياسية تأثيرا على الفكر البشرى فى تاريخه الطويل ، كما يعتبر اعظم مؤلفات المفكر الخالد « جان جاك روسو » على الاطلاق ، ومصدر مجده العريض .. وقد بلغ من حجر حكام فرنسا فى ذلك العهد على الحريات العامة - وحرية النشر بصفة خاصة - ان روسو اضطر يومئذ الى نشر كتابه هذا فى هولندا (عام ١٧٢٦) ، فرارا من الرقابة الفرنسية .. وقد كان الكتاب ، كما يدل عنوانه ، اول محاولة لتفسير وتبرير قيام الحكومات باتفاق كلمة المحكومين على اقامتها برضاهم واختيارهم كى ترعى امورهم وتسهر على راحتهم - وهو عكس المبدأ الذى كان سائدا فى عصور الطغيان القديمة - ومن هنا كان نشر الكتاب بمثابة الوحى الادبى الذى هيأ الأذهان لنشوب الثورة الفرنسية ، وأشعل فى النفوس شرارتها الاولى !

فسلام على روسو حيث يرقد راضيا مرضيا - بجوار نبى الثورة الآخر «فولتير» - فى مقبرة «البانثيون» بباريس .. وحيث حججت اليه منذ اسابيع - مع مئات الزائرين من كافة اركان الدنيا - فخيل الى ان روحه ترفرف من عليائها قريرة بالحرية الخالدة التى منحتها الثورة لفرنسا .. وللعالم بأسره !

السياج المشئوم !

◆ **يرجع** انشاء المجتمع المدنى الى أول رجل ضرب سياجا حول قطعة من الارض ، وجرؤ على أن يقول : « هذه ملكى » ووجد اناسا من السذاجة بحيث أقروه .. **ترى كم من جرائم واغتيالات ، وكم من فظائع وتعاسات كان يقدر للجنس البشرى أن يتفاداها ، لو أن رجلا قام لحظتئذ فانتزع السياج وصاح فى رفاقه : « حذار أن تنصتوا لهذا المدعى ، فلسوف تقضون على أنفسكم بالضياع ان أنتم نسيتم يوما ان ثمار الارض ملك لنا جميعا ، وان الارض ذاتها ليست لاحد ! »**

بيد أن المرجح ان الظروف كانت قد بلغت وقتئذ حدا لا سبيل الى استمرارها بعده ، لان فكرة الملكية انما قامت على كثير من الافكار التى سبقتها ، والتى ما كانت لتتكون جميعا فى الذهن البشرى دفعة واحدة ، وانما تواردت متعاقبة ، تنسخ كل منها ما سبقها على مر الاجيال ، حتى انتهت الى هـذا الوضع الاخير ٠٠

ذلك أن أول مشاعر الانسان كانت تنصب على حفظ كيانه ، وكان نتاج الارض يمده بكل ما كان يعوزه ، وقد أرشدته الغريزة الى وسائل استخدامه الارض ونتاجها كما هدته رغبة عمياء الى العلاقات الجنسية لحفظ النوع ٠٠ وكانت حياة الانسان الاول كحياة الحيوان ، مقيدة بالنزوات والاهواء ، فكان لا يكاد يفيد من هبات الطبيعـة فائدة تامة ، وبالاحرى ، كان أعجز من أن ينتزع من الطبيعة شيئا ٠٠ على أن الصعاب لم تلبث أن علمته كيف يتغلب عليها ٠ كيف يتسلق الاشجار ليجنى ثمارها ، وكيف يصمد لمنافسة الحيوانات الاخرى الراغبة فى اقتناص هذه الثمار ذاتها من أجل بقائها ٠٠ ومن هنا كان عليـه أن يتعلم كيف يحارب ، وكان من السهل أن يجد الاسلحة الطبيعية فى الاحجار والعصى ٠٠ كما كان عليه أن يتعلم كيف يعوض نفسه عما يغتصبه منه من هو أكثر منه قوة ٠٠

وازدادت شواغل الناس بازدياد عدد أفراد الجنس البشرى ٠٠ وأدخل اختلاف أنواع التربة ، والمنـاخ ، والفصول ، اختلافات على طرق معيشتهـم ٠٠ وأدت سنوات الجـدب ، وفصول الشتاء القـارسة ، وفصول الصيف القائظة ، الى وجوب البحث عن حرفة جـديدة غير الزراعة ٠٠ فاختـرع سكان الشواطىء الخيط والشص ، وصادوا الاسماك وأكلوها ٠٠ وصنع سكان الغابات الاقواس والنشاب فصادوا الحيوان، واتخذوا من جلوده كساء يقيهم غائلة الشتـاء ٠٠ وهداهم

البرق أو البراكين الى النار ، فكانت مصدرا جديدا لمكافحة البرد .. ثم تعلموا كيف يشعلونها ، ومن ثم كيف ينضجون عليها اللحوم التى كانوا من قبل يأكلونها نيئة ..

ابتكار اللغات .. واختراع الآلات

◆ **وكان** خليقا بالاتصالات المتكررة بين الانسان والكائنات العديدة ، وبين هذه وبعضها بعض ، أن تنتهى به الى نوع من التفكير ، أو الحكمة الآلية التى توحى له بالاحتياطات الضرورية من أجل سلامته . وترتب على الذكاء الجديد الذى تأتى عن تطور الانسان أن ازداد سموه على الحيوانات الاخرى ، اذ أوحى اليه الذكاء بكثير من الحيل التى مكنته من الغلبة عليها ، ومن أن يفرض سيادته على البعض ، وأن ينكل بالبعض الآخر .. ثم ان اتصالاته بالآدميين الآخرين جعلته أن يقابل بينه وبينهم ، فيخلص من ذلك الى تبين أنهم يتصرفون مثله ، ويفكرون كما يفكر ، فأغراه ذلك على أن يسلك من قواعد السلوك نحوهم ما يكفل له السلامة والمصلحة والخير .. **وعلمته التجارب أن حب الخير هو الحافز الاوحد لتصرفات الناس ، وأن ثمة حالات يخول له اشتراك الصالح فيها بينه وبين الناس أن يعول على مساعدتهم ، كما أن ثمة حالات يجد من تضارب المصالح فيها ما يخول له أن يركن الى الريبة والحذر .. ففى الحالات الاولى كان يسير مع من يشاطرونه المصلحة ، وفى الحالات الثانية كان كل فرد ينصرف الى ما فيه صالحه ، ويسعى الى تحقيق هذا الصالح اما بالقوة السافرة ، أو بالحيلة ..**

وبهذه الطريقة أصاب الناس شيئا من الادراك لقيمة الاعمال المشتركة والفوائد التى تتأتى عن تنفيذها .. ودعاهم هذا الى ابتكار اللغات ، فى صورها الاولية الفجة الخشنة ..

وأدت خطوات التقدم الاولى الى خطوات أعظم وأسرع .. فان بني آدم ازدادوا نشاطا بازدياد تنور عقولهم ، فاخترعوا

العديد من الآلات التى صاغوها من الصخر الصلد ليحفروا بها الارض ويقطعوا الاشجار ، ثم أقاموا من الاشجار أكواخا ما لبثوا أن تعلموا كيف يكسونها بطبقة من الطمى والطين ٠٠ وكان هذا عهد انقلاب أدى الى انشـــاء الاسرات والى نوع من الملكية أثار آلافا من المنازعات والمشـــاجرات ٠٠ واذ كان من المحتمل أن الاقوياء هم أول من أقاموا لانفسهم أكواخا شعروا بالقدرة على حمايتها والذود عنها ، فان الضعفاء لم يلبثوا أن انتهوا الى أن الحذو حذوهم أسهل وأسلم من محاولة اغتصاب أكواخهم منهم ٠٠ وشيئا فشيئا تعود الانسان أن يحترم حرمة مساكن جيرانه وملكيتهم لها ٠٠

نشأة الحب والغيرة !

◆ **وأصبحت** اقامة الزوج والزوجة وأبنائهما تحت سقف واحد عادة ، تفتقت عن أنبل وأسمى العواطف الانسانية ٠٠ وغدت كل أسرة مجتمعا صغيرا ، قوى الترابط ، لان الحرية والصلات المشتركة المتبـــادلة كانت دعائم وحدته ٠٠ وبدأ الجنسان ينفصلان فى العمل ، فأخذت المرأة تجنح الى الاستقرار والعناية بالكوخ والاولاد ، بينمـــا كان الرجل ينطلق سعيا وراء الحاجات المشتركة للاسرة ٠٠ وأدت أسباب الراحـــــة والدعة والامن الى أن ينزل كل من الجنسين عن شىء من قوته وبطشه ٠٠ ولعـــل هذا أدى الى أن يعجز الفـرد عن منازلة الوحوش وحده ، ولكنه ـ من ناحيـــــة أخرى ـ تبين أن اجتماعه مع أبناء جنسه لمقـــاومة الوحوش عصبة ، أجدى وأسهل ٠٠

وأتاحت بساطة الحياة ، وقلة الحاجات ، وكثرة الادوات التى اخترعها الانسان ، مجالا للفراغ أخذ يملأه بملاه ومسرات لم يكن لآبائه بها عهد ، ومن ثم نبعت أولى المساوىء والشرور ٠٠ اذ لم تلبث هذه المتع أن فقدت بهجتها ، بل أنها استحالت

الى حاجات حقيقية أخذ الانسان يشقى بها ٠٠ يشقى بفقدانها كما يشقى بوجودها !

وهكذا اعترى التغير كل شيء ٠٠ فبعد أن كان الناس يهيمون فى الغابات ، استقروا وأخذوا يكونون جماعات منفصلة ٠٠ وعلى مر الايام قامت فى كل بلد أمة معينة ، موحدة فى الصفات والاخلاق ، لا بحكم قوانين أو لوائح ، وانما بحكم ممارستها لونا واحدا من الحياة ، وبحكم تناولها أنواعا معينة من الغذاء ، وبحكم تأثير الجو على أفرادها ٠٠ وأدى الجوار الى ترابط العائلات ، والى اتصال أبناء الجنسين فى هذه العائلات ، فنما فى نفوسهم تقدير الجمال والخلال ، وتسربت الى قلوبهم عواطف عذبة جميلة تربط ما بينهم ٠٠ ومع الحب انبعثت الغيرة ، وأريق الدم فى سبيل أرق العواطف !

وازدادت الالفة بين الناس ، وأخذ أبناء الجيرة يجتمعون فى أوقات الفراغ أمام أكواخهم ، فبدأ كل يولى الآخرين اعتبارات ويطمع فى أن يولوه مثلها ، وصار أعذبهم غناء ، أو أجملهم رقصا ، أو أبهاهم شكلا، أو أقواهم عضلا، أحظاهم بالاعتبار ٠٠ ومع الحظوة والاعتبار، ولدت أولى أشكال عدم المساواة، وآتخذت أولى الخطوات نحو الرذيلة ٠٠ اذ بدأ كل انسان يعتز بما ينال من اعتبار، ويطالب الجماعة بمراعاته، فاذا مسه أحد ، أحس فى ذلك باهانة تستوجب الانتقام ٠٠



وأوغل الناس فى القسوة والعنف فى انتقامهم ٠٠ وهذا ما كان يلاحظ فى كثير من الامم الهمجية التى عرفها العالم المتحضر ، فأساء كثير من الكتاب الفهم وتسرعوا فى الحكم على الانسان بأنه فطر على القسوة ٠٠ والواقع أنه لم يك ثمة أرق وألطف من الانسان فى بداوته الاولى !

الطمع والاثرة أفسدا سعادة الانسان

◆ أما وقد تكون المجتمع وتوطدت العلاقات بين الناس ، فقد أصبح الموقف يتطلب منهم صفات تختلف عن تلك التى كانت لهم فى وضعهم الفطرى البدائى ، ومن ثم ظهرت بينهم قواعد الاخلاق تحكم تصرفاتهم قبل مولد القوانين ٠٠ وكانت هذه أسعد الفترات فى تاريخ الانسان ٠٠ وكان أحرى بها أن تمتد وتبقى ، فيظل الناس يستمتعون بمسرات الحياة ويستمرئون الصلات المستقلة على أساس المنفعة المشتركة والمتبادلة ٠٠ ولكن ٠٠ منذ اللحظة التى أحس فيها انسان بالحاجة الى مساعدة انسان آخر ، ومنذ اللحظة التى خيل فيها لأى امرىء أن من الخير أن يستحوذ من المؤن على ضعف حاجته ، تلاشت المساواة ، وتفشت الملكية ، وأصبح العمل أمرا لا غنى عنه ، واستحالت الغابات الشاسعة الى حقول ناضرة يرويها الانسان بعرق جبينه ٠٠ ومع محصولها نبتت العبودية والشقاء ٠٠

وكانت الزراعة وصناعة المعادن هما الفنان اللذان أحدثا هذا الانقلاب ٠٠ كان الحديد والقمح أول ما علم الناس المدنية ، وأول ما أفسد الانسانية ٠٠ ولقد ظلت الامم التى اقتصرت على الزراعة فى همجيتها حتى عرفت الحديد والمعادن ٠٠ ولعل من أهم أسباب ارتقاء أوروبا فى المدنية عن سواها أنها كانت يوما أكثر بلاد العالم نصيبا من الحديد ، وأغناها بالقمح ٠٠ ذلك أنه لم تكد تظهر الحاجة الى طرق الحديد لاستخدامه فى

الزراعة وغيرها ، حتى صحبتها الحاجة الى صيانة الادوات الحديدية واصلاحها ، وكلما أزداد عدد الايدى العاملة التى اجتذبتها الصناعة ، قل عدد الايدى التى تركت للزراعة وانتاج القوت ، دون أن يقل عدد البطون التى تنشد الغذاء !٠٠ ثم ظهر الاتجاه الى الاستبدال ٠٠ فالزارع فى حاجة الى أدوات ، والصانع فى حاجة الى غذاء ، ومن ثم شرعا يتبادلان السلع ٠٠ وهكذا قامت الصناعة وصوغ المعادن وترويج استعمالها الى جانب الزراعة وتربية الحيوان والاكثار منهما ٠٠

وكان حريا بالزراعة أن تستتبع توزيع الارض ، ومن ثم فان الاعتراف بالملكية أدى الى أولى قواعد العدالة ٠٠ سيما وقد شرع الناس يتطلعون الى المستقبل ، وغدا كل منهم – وقد أصبحت لديه ممتلكات – يخشى أن يوقع بأحد ضررا فيفضى ذلك الى أن يدفع الثمن من ممتلكاته ٠٠ وهذا أمر طبيعى ، مثله مثل الملكية ذاتها فى الاصل ، فهى لم تتأت الا عن طريق العمل اليدوى ٠٠ اذ كيف للانسان أن يتملك شيئا لم يخلقه بنفسه ، الا عن هذا الطريق؟٠٠ ففلاحة الارض واستنباتها يتيحان له حق ملكية انتاجها ، وملكيتها بالتالى ، الى أن يحصد ما زرع على الاقل ٠٠ وعاما بعد عام ، توطد حقه فى الارض ذاتها فامتلكها ٠٠

ولم يعد من الممكن الاحتفاظ بالمساواة فى هذه الحال ، فلو أن مواهب الناس تساوت لامكن الاحتفاظ بتوازن دقيق بين استخدام الحديد وبين استهلاك السلع ٠٠ ولكن المواهب لم تكن متساوية ، فكان القوى يعمل قسطا أكبر من سواه ، والماهر أتقن صناعة من غيره ٠٠ وكان صاحب الذكاء الموفور يبتكر من الاسباب ما يخفف عليه الجهد ٠٠ ثم ، كان الفلاح فى حاجة الى مزيد من الحديد ، والحداد فى حاجة الى مزيد من القمح ، ولقد يبذل كل منهما من الجهد قدر ما يبذل الآخر

فيصيب أحدهما من عمله كسبا كبيرا ، بينما لا يكاد الآخر يحصل على ما يقيم أوده ٠٠ ومن ثم بدأ عدم المساواة يظهر ويسود ، واشتدت الفوارق التى نجمت بين الناس نتيجة اختلاف ظروفهم ، وغدت أبقى أثرا ، وأظهر نفوذا ٠٠

ولا أريد أن أطيل على القارىء ، ففى وسعه ـ وقد بلغت الامور هذا المبلغ ـ أن يحدس ما بقى ، وأن يتصور ما ترتب على كل ما ذكرناه من تطورات ، وخاصة استغلال المواهب ، وتباين الثروات ، وفوائد ومساوىء الغنى ٠٠ والمهم أن الناس أصبحوا بعد ذلك يعنون بأن يظهروا بما يغاير ما هم عليه فى الواقع ٠٠ ومن هنا نبت الزهو الكاذب والتظاهر والغش ، بكل ما يتبعها من رذائل ٠٠ ومن ناحية أخرى ، نشأ عن تضاعف رغبات الناس وحاجاتهم ، أن نزلوا عن حريتهم واستقلالهم ، وان ارتضوا أن يخضعوا أنفسهم لبعضهم بعضا ، فالاغنياء غدوا يحتاجون للخدمات من غيرهم ، والفقراء غدوا فى حاجة الى معونة الاغنياء ، وحتى من كانوا وسطا بين هؤلاء وأولئك لم يستطيعوا أن يستغنوا عن زملائهم من الناس ٠٠ وهنا تحتم على الانسان أن يعمل على استدراج الناس الى الاهتمام بمصالحه والاقتناع بأن من الخير لهم أن ينموها له ، فلجأ الى المكر والحيلة مع بعض الناس ، والى القسوة مع البعض الآخر ٠٠ وأدى التعطش الى مضاعفة الثروة ـ لا عن حاجة بقدر ماهو عن رغبة فى التفوق على الغير ـ الى الايحاء الى الناس جميعا بنزوع خبيث الى ايذاء بعضهم بعضا ، وبغيرة كامنة عظيمة الخطر ، لانها تتخذ من البر والتظاهر بالخير ستارا تسعى من ورائه الى هدفها فى أمان !

ازدياد الفوارق ونشوء العدوان

◆ **وبالاختصار** ، نبت التزاحم والتنافس من ناحية ، والمصالح المتضاربة من ناحية أخرى ، مع رغبة خفية ـ فى

الحالين ـ فى الكسب على حساب الغير !٠٠ وكانت كل هذه المساوىء هى الآثار الاولى للملكية ، والعوامل التى تلازم ازدياد الفوارق وعدم المساواة ٠٠

ذلك ان التوسع فى الملكية لم يلبث أن وصل الى حد لم يكن من الممكن بعده لانسان أن يزيد من أملاكه الا بالعدوان على أراضى وماشية سواه !٠٠ وفى الوقت ذاته كان الفقراء ، بسبب ضعفهم أو عجزهم عن التملك ، قد ازدادوا فقرا ـ وان لم يخسروا شيئا ، اذ لم يكونوا يملكون ما يخسرونه ! ـ وقنعوا بأن يحصلوا من الاغنياء على ما يقيم أودهم ، أو يسرقوه !٠٠ ومن ثم نشأ عن هذا الوضع أحد أمرين : اما استكانة وعبودية ، واما عنف وعدوان ٠٠ فى حين أن الاغنياء لم يلبثوا أن استمرأوا متعة السلطان ، فاستهانوا بسواهم ، ولم يعودوا يفكرون الا فى استذلال من حولهم أو استعبادهم ، وقد انقلبوا ذئابا ضارية ٠٠

وهكذا صحبت انهيار المساواة فوضى فظيعة : استغلال وجشع من جانب الاغنياء ، وسطو وسرقة من جانب الفقراء ، وخنق اندفاع كل من الجانبين فى غيه ما تبقى من أصوات العدالة الواهنة ، فاذا نفوس البشر تفعم بالجشع والبخل والطموح والشر ٠٠ ومن ثم أفضى مولد المجتمع الجديد الى حالة رهيبة من المعارك والحروب ٠٠ ولم يعد من أحرزوا الثروات قادرين على النزول عنها ، بل اندفعوا فى غيهم باسم الشرف والكرامة والحق ، لينتهوا بأنفسهم فى الواقع الى هاوية الدمار ٠٠ فاذا الاغنياء والفقراء يكتوون على السواء بنيران العلل والمساوىء الجديدة !

وكان من المستحيل أن لا يفكر الناس فى هذا الموقف وفى النكبات التى حاقت بهم ، بل لعل الاغنياء ـ بوجه خاص ـ قد أحسوا بمدى ما عانوا بسبب الحروب المتواصلة التى كان الغرم كله فيها عليهم ، فمع أن الاغنياء والفقراء كانوا فيها يجازفون

بأرواحهم على السواء ، الا أن الاغنياء كانوا يعرضون ممتلكاتهم في الوقت ذاته للضياع ٠٠ هذا فضلا عن أن القلة منهم التى اقتنت أموالها بجدها ، لم تكن بأقوى من سواها حجة وحقا فى ادعاء الملكية ٠٠ وكان من العبث أن يقول أحد منهم : « أنا حفرت هذه البئر ، وأنا كسبت هذه البقعة بجدى » ، اذ من الذى خول له أن ينفرد بملكيتها ؟٠٠ وكان ثمة من يرد عليه قائلا : « بأى حق تطلب الينا أن ندفع لك أجر ما لم نسألك أن تفعله ؟٠٠ ألا تعرف أن الكثيرين من اخوتك فى البشرية يتضورون جوعا لحرمانهم مما توفر لديك بأكثر من حاجتك ؟٠٠ ان عليك أن تحصل على اقرار وموافقة الجنس البشرى بأسره قبل أن تستحوذ من القوت المشاع على ما يزيد عما يكفى لصون كيانك » ٠٠

نشوء فكرة الحكومات

◆ **واذ** كان الغنى مفتقرا الى ما يعزز ملكيته ، وعاجزا عن أن يحمى نفسه ، فقد كان يستعين بعصابات مرتزقة لا تلبث أن تثقل كاهله ٠٠ كما كانت الغيرة المتبادلة تحول دون تعاونه مع أنداده ضد أعدائهم العديدين ٠٠ ومن ثم ، ألهمت الضرورة الاغنياء فى النهاية أعمق فكرة خطرت ببال الانسان ٠٠ تلك هى أن يستخدم لمصلحته قوى أولئك الذين كانوا يهاجمونه ، وأن يتخذ من أعدائه حلفاء ، فيوحى اليهم بالحكم والمبادىء المختلفة التى تفيده بعد أن غدا قانون الطبيعة لا يجدى ٠٠ فعمد الى اظهار جيرانه على فظاعة الموقف الذى يضطر فيه كل انسان الى حمل السلاح ضد بقية الناس ، والذى تغدو فيه الممتلكات والثروات عبئا لا يقل فى الارهاق عن الحاجات والمطالب ، والذى تعز فيه السلامة والامان للغنى والفقير على السواء ٠٠ وفى لباقة ، خلص من هذا الى غايته ، فساقها فى شكل اقتراح مستخلص من المناقشات التى دارت بتوجيهه ،

قائلا : « **لنتحد كى نحمى الضعيف من الجور ، وكى نكبح جماح الطامع الطموح ، ولنضمن لكل فرد ملكية ماله ٠٠ لنضع قواعد للعدل والسلام ، يقرها ويلتزم بها الجميع دون ما استثناء ٠٠ قواعد تصلح بطريقة ما مابين الحظوظ من فوارق ، اذ يضطر بهــا القوى والضعيف ــ على السواء ــ الى مراعاة التزامات متبادلة ٠٠ وبايجاز ، لنجمع قوانا ــ بدلا من أن نشهرها ضد أنفسنا ــ ونركزها فى قوة عليا تحكمنا بموجب قوانين حكيمة ، فتحمى جميع أعضاء الجماعة وتذود عنهم ، وتكسر شــوكة الاعداء المشتركين لنا ، وتقر الوئام الخالد بيننا ٠٠** »

وخدعت الكلمات المعسولة الناس الذين كانوا فى غمــرة الجهالة ، فهرعوا جميعا الى أغلالهم وهم يأملون أن يصــونوا حريتهم ، اذ لم تكن لهم الخبرة والتجربة اللتان تبصرانهــم بمواطن الخطر فى هذه المبادىء السياسية ٠٠ وانما كان أقدرهم على استبانة الخطر ، هم أولئك الذين توقعوا النفع من ورائها ٠٠ بل ان أوفر الناس حكمة ، لم يروا كثير ضير فى أن ينزل كل فرد عن قسط من حريته ليؤمن بقية الاقساط ، كما يضحى الجريح بذراع تالفة لينقذ عمره وبقية جسده ٠٠

هكذا كانت ــ أو لعلها كانت ــ بداية المجتمع والقانون الذى أضفى على الفقير قيودا جديدة ، وأتاح للغنى سلطات جديدة ٠٠ فقضى على الحرية الطبيعية ، ووطد للابد قانون الملكية وعدم المساواة ، وحول الاستغلال الماكر الى حق مشروع لا مراء فيه ، وأخضع الجنس البشرى بأجمعه الى العمل والعبودية والمسغبة الدائمة من أجل مصلحة قلة من الطموحين ذوى المطامع ! ومن السهل أن نرى بعد ذلك كيف أن قيام جماعة واحدة جعل قيام جماعات أخرى ضرورة لازمة ، فأخذ الجنس البشرى يتحد تباعا فى جماعات لم تلبث أن آزدادت وانتشرت حتى شملت وجه البسيطة ، فلم يعد فى الارض ركن ينجو فيه الانسان من ربقة

الوضع الجديد ، الذى غدا كالسيف المصلت أبدا فوق عنقه ٠٠ وهكذا أصبح الحق المدنى هو الحكم الشائع المشترك بين أعضاء كل جماعة ، ولم يستبق القانون الطبيعى الا بين الجماعات المختلفة ، حيث يتفق عليه ضمنيا باسم حقوق الامم لتيسير ممارسة التجارة ، وليعوض التعاطف الطبيعى الذى فقد عند تطبيقه على الجماعات كل ما كان له من تأثير على الافراد ، ولم يعد له بقاء الا فى بعض المذاهب الروحية الشاملة ، التى تحطم الفوارق والحواجز بين مختلف الناس والشعوب ، وتؤاخى بين البشر ، عملا بتعاليم الخالق ، الذى يشمل برحمته الجنس البشرى برمته ٠٠

كيف بررت البشرية الحروب ؟

◆ **بيد أن** الجماعات السياسية ظلت على الوضع الطبيعى ، تعانى ما سعى الافراد للخلاص منه ، فقامت الحروب الاهلية ، والمعارك ، والمذابح ، مما هز الطبيعة وأذهل العقول ٠٠ فتعلم أشرف الناس أن قطع رقاب سواهم واجب !٠٠ وكانت هذه هى أولى آثار انقسام الجنس البشرى الى جماعات ٠٠

أعرف أن بعض الكتاب شرحوا أصل المجتمعات السياسية على صور أخرى ، منها غلبة القوى للضعيف ، أو اتحاد الضعفاء وتعاونهم ٠٠و لكنى أرى الصورة التى قدمتها أقرب الى الطبيعة من سواها ، وذلك للاسباب التالية :

أولا : لان حق الغزو والغلبة ليس مبررا أو أساسا مشروعا تبنى عليه حقوق أخرى ، فان الغالب والمغلوب يظلان على حرب ٠٠ ما لم يسترد الأخير كامل حريته ، فيختار راضيا أن ينضوى تحت لواء الاول ٠٠

ثانيا : لان كلمتى « قوى » و « ضعيف » ليستا دقيقتين ، اذ أن خير ما يعبر عنهما فى الفترة بين قيام حق الملكية وقيام الحكومة السياسية هما كلمتا « غنى » و « فقير » ٠٠

ثالثا : لم يكن الفقراء يملكون ما يعز عليهم فقده ، اللهم الا حريتهم ، **لذلك كان من الغباء المطلق أن ينزلوا عن هـذا الشيء الوحيد الذى يمتلكونه دون أن يحصلوا على شيء فى مقابله ٠٠ فى حين أن الاغنياء كانوا ينصرفون بكل عواطفهم الى ممتلكاتهم ، فكان من السهل الاضرار بهم ، وكان من الضرورى لهـم أن يتحوطوا ضد ذلك ، ومن ثم فمن المعقول أن يكونوا أول من فكر فى الدعوة لاقامة الحكومة**

من هذا نرى أن المشكلة التى واجهت النـاس فى البداية تمثلت فى : « البحث عن نوع من التجمع والاشتراك ، يحمى بكل القوى المشتركة شخص وثروة كل فرد من أعضاء الجماعة ويدافع عنهما ٠٠ ويظل فيه كل فرد ــ رغم اتحاده مع الباقين ــ حرا لا يخضع الا لنفسه ٠٠ »

فكرة العقد الاجتماعى

◆ **وتوفر** حل هذه المشكلة ، فى « العقـــد الاجتماعى » ٠٠ وتتمثل روح هذا العقد فى أن كل فرد ينزل نزولا كاملا ، غير مقيد أو مشروط ، عن جميع حقوقه للمجتمع ككل ، أى كوحدة ٠٠ فلا يحق لفرد أن يحتفظ بحـــق لا يمتلكه كافة الافراد الآخرين ــ على قدم المساواة ــ والا خرق العقد ونقضه ٠٠ ثم ان الفرد حين ينزل عن حقوقه للمجتمع ، لا يحولها أو ينـزل عنها لشخص معين ، ومن ثم فانه فى علاقاته بالافراد يظل محتفظا بكافة الحقوق التى ضحى بها ٠٠ ويمكن ايجاز الوضع فى هذه الصيغة : « **كل منا ــ عامة ــ يضع شخصه وكل ما له من قوة أو نفوذ أو مال تحت الاشراف الأعلى للارادة العامة ، ويعتبر كل عضو جزءا لا يتجزأ من المجموع » ٠٠ وبهذا تنشأ هيئة أدبيـة وجماعية تتألف من كافة أعضاء المجتمع ، وتستمد من هـــذا الوضع وحدتها ، وحقها ، وسلطتها ، وحياتها ، وارادتهـــا ٠٠ هذه هى الجمهورية ، أو الدولة ٠٠ وأعضاؤها هم الشـــعب ،**

وهم مواطنون وشركاء فى السيادة وفى سلطة السيادة ، كما أنهم ـ فى الوقت ذاته ـ رعايا ، يخضعون لقوانين الدولة ..

ولم يكن للحكومة ـ فى حداثة نشأتها ـ شكل منظم ثابت.. اذ كان نقص التجربة والفلسفة يقصر نظر الناس على علاج نقائص حاضرهم ، دون أن يتجاوزوا نطاق الحاضر الى المستقبل .. وقد ظلت الاوضاع السياسية غير مكتملة ـ رغم محاولات الحكماء من المشرعين ـ لأن هذه الاوضاع كانت فى الواقع من وحى الصدفة أكثر من أى شىء آخر ، ومع أن مرور الزمن كشف مواطن الضعف فيها وبين سبل العلاج ، الا أن الاخطاء الأصلية ظلت بدون اصلاح .. بل انها ظلت ترقع باستمرار ، فى حين ان المهمة الأولى كانت تتطلب تنقيتها من كل الشوائب الماضية ، وازالة أنقاض الماضى اذا أريد أن يكون الصرح ثابت الاركان.. **ذلك لأن المجتمع كان يتألف فى البداية من مجرد بضعة اتفاقات عامة اصطلح عليها الاعضاء والتزموا بمراعاتها ، وضمنت الهيئة كلها السلامة لكل فرد فى سبيل تنفيذ هذه الاتفاقات .. لذلك** لم يكن ثمة ما يكشف أى ضعف فى مثل هذا الوضع سوى التجربة .. فحيثما كان الجمهور هو الشاهد والقاضى ، كان من اليسير التهرب من القوانين بعدة طرق ، ولم يكن ثمة بد من أن تتضاعف الاضطرابات والتذمرات باستمرار ، حتى تولدت الضرورة التى تدعو الى ايكال مسئولية السلطة العامة ـ أو سلطان الشعب ـ على خطورتها ، الى بعض الاشخاص المعينين ، ومسئولية فرض الطاعة الى مأمورين منفذين للقوانين والاحكام .. فالواقع أن الحكام ومنفذى القوانين لم يكن لهم وجود قبل قيام القوانين ذاتها ..

الهدف من الحكومات كان الحماية لا السيطرة

◆ **وليس** من المعقول أن نفترض أن الناس ألقوا بأنفسهم بين ذراعى سيد مطلق فى البداية ، دون ما قيد أو تحفظ .. فهم فى الواقع لم يختاروا لأنفسهم رؤساء ـ أو حكاما ـ الا

ليقوا أنفسهم الجور ، وليحموا حياتهم وحرياتهم وممتلكاتهم ٠٠ وما كان من حسن الادراك فى شىء أن يبدأوا بأن يخلعوا على رئيس كافة الامور التى أرادوا أن يستعينوا به على صيانتهـا ورعايتها ، اذ ما الذى كان يستطيع أن يقدمه فى مقابل مثل هذا الحق العظيم ؟٠٠ **ومن ثم فلا مراء اطلاقا فى أن الاساس الاصلى والأول لكل الحقوق السياسية هو أن الناس ما أقاموا الرؤساء بينهم الا ليكونوا لهم حماة ، وليسوا سادة مسيطرين !**

ان الحصان البرى ـ الذى لم يهذب ـ يرفع رأسه ، ويثبت حوافره فى الارض ، ويجفل لمرأى السرج واللجام ، فى حين أن الحصان الذى درب وروض ، يتقبل فى صبر لهيب السـوط ووخز المهماز ٠٠ كذلك الانسان فى بداوته لا يرضى بأن يذل عنقه لما يفرضه عليه الانسان المتحضر من ربقة دون ما تذمر ، فهو يؤثر الحرية مع أقصى المتاعب ، على العبـودية مع الأمان والسلام !٠٠ لذلك فاننى حين أرى الحيوانات التى ولدت حرة تضرب قضبان أقفاصها برؤوسها برما بالأسر ٠٠ وحين أرى جموع العراة من الهمجيين ينبذون المتع الاوربية ، ويتعرضون للجوع والنار والسيف والموت لصون استقلالهم ، لا يسعنى الا أن أشعر بخطأ الساسة والفلاسفة الذين يعزون الى الانسـان استعدادا طبيعيا لارتضاء الاستعباد !

سلطة الاب ٠٠ وسلطة الحاكم

◆ **أما** ما يستند اليه بعض الكتاب من أن سلطة الأب عـلى الاسرة هى الاصل الذى أخذ عنه نظام الحكم المطلق ، فليس أقرب لدحضه من أن نذكر أن ليس على الارض ما هو أبعد عن روح الاستبداد الشرسة ، من تلك السلطة الرفيقة التى ترعى صالح من يطيعها أكثر مما ترعى صالح من يمارسها ٠٠ فان قانون الطبيعة يقضى على الأب بأن لا يفرض على الابن سـيادته الا حيثما تستدعى ذلك مسـاعدته ٠٠ وان الأب والابن اذا

ما تساويا ، استقل الاخير عن الاول ، فلا يعود يدين له بغير الاحترام ، لا الخنوع ٠ ومن ثم فبدلا من أن نقول ان المجتمع المتحضر قد اقتبس عن سلطان رب الأسرة ، يخلق بنا أن نقول ان هذا الاخير انما أخذ قوته الرئيسية عن الأول ٠٠ فما كان لأب أن يحظى بالابوة ما لم يستقر ويبقى حوله أبناؤه وبناته ٠٠ والخيرات التى يمتلكها الاب هى الروابط التى تستبقى تبعية أبنائه له واعتمادهم عليه ، وفى وسعه أن لا ينعم على أحد منهم بقسط منها الا اذا استحقه بما يبديه من احتفال بارادته ٠٠ أما رعايا الحاكم المستبد ، فانهم وما يمتلكون ملك له – فى نظره على الأقل – ومن ثم فهم مضطرون الى أن لا ينالوا ، اذا ما أنعم عليهم ، سوى مايحلو له أن يهبهم من حقوقهم وممتلكاتهم ٠٠

لذلك لا نكاد نجد أى مبرر يدعو الى الظن بأن الناس أقاموا الظلم والطغيان طائعين ٠٠ أو انهم أقروا عقدا يقع فيه كل الغرم على أحد الطرفين ، دون أن يرتبط الطرف الآخر بشىء !٠٠ ومن ثم لا ينبغى القول بأن السلطان لايخضع لقوانين دولته ، بل العكس هو الصحيح ٠٠ وليس ثمة انسان يبيع حريته مقابل الخضوع لسلطة مطلقة تفعل به ما يحلو لها ٠٠ اذ أن ذلك معناه أنه يبيع حياته ، وهى ليست ملكا له ، بل هى أمانة أودعه اياها الخالق ٠٠ ثم اننا حين ننزل عن حريتنا ، انما نهبط بأنفسنا الى درك الانحطاط ، وليس بين الخيرات الدنيوية ما يمكن أن يعوضنا عنها ٠٠ فضلا عن أن فى ارتضاء العبودية خروجا على الطبيعة وخرقا لها ، فلا بد من تغيير الطبيعة ان شئنا أن نقر مثل هذا الوضع ٠٠ والمشرعون الذين وجدوا الجرأة على الحكم بأن ابن العبد يولد عبدا ، انما قضوا على انسان بأن يولد فى الحياة محروما من حقوق الانسان !

لذلك أرى من المؤكد أن الحكومة لم تبدأ كقوة ذات سلطان استبدادى ، ولا كانت نكسة ترجع بالانسانية الى قانون الحكم

للأقوى ، وهو ما ابتكرت الحكومة لعلاجه ‥ وأخلص من هذا الى اعتبار الوضع السياسى بمثابة عقد بين الناس ورؤسائهم الذين يختارونهم ‥ عقد يلتزم بمقتضاه كل من الطرفين بمراعاة القوانين التى يتضمنها ، والتى تؤلف الروابط المثبتة لاتحادهم ‥ فيركز القوم ـ مراعاة لعلاقاتهم الاجتماعية ـ كل اراداتهم فى واحد، وتصبح المواد التى تعبر عنها هذه الارادة الموحدة ، قوانين أصيلة تلزم كل أبناء الدولة دون استثناء ، كما تنظم احدى هذه المواد اختيار وسلطة الاداريين ـ أو الوزراء ـ الذين يعينون للاشراف على تنفيذ بقيتها . وتمتد هذه السلطة بحيث تشمل كل ما يصون القوانين الاساسية ـ أو الدستور ـ دون أن تمسها بأى تغيير . وهى مصحوبة بمراتب تكريمية وامتيازات تكفل للقوانين ومنفذيها الاحترام. كما يؤثر الوزراء بامتيازات تثيبهم عما تتطلبه الادارة الصالحة من جهد وعناية . ويلتزم الادارى من ناحيته بأن لا يستخدم السلطة الموكولة اليه الا طبقا لما رمى اليه أولئك الذين اختاروه ، وبأن يكفل لهم الامن والاحتفاظ بما يمتلكون ، على أن يؤثر الصالح العام على صالحه الخاص فى كل مناسبة ‥

قدسية القوانين ، لا القائمين على تنفيذها !

◆ **ولا بد** أن مثل هذا الوضع بدا أبهى ما يكون روعة قبل أن تكشف التجربة عن المساوىء التى لم يكن ثمة مفر منها ‥ اذ كان لاولئك الذين أنيط بهم رعايته مصلحة كبرى فى بقائه‥ وكان الاضطلاع بالادارة التنفيذية وما يتصل بها من حقوق لا يقوم الا على القوانين الاصلية ذاتها ، ومن ثم كانت شرعية مناصب القائمين بها تزول اذا ما زالت تلك القوانين ، فلا يعود الناس ملزمين بطاعتهم ‥ **فان القوانين ـ لا القائمين على تنفيذها ـ هى الدعائم الاساسية للمجتمع والدولة ‥ وهى اللوازم الاصلية للعقد الذى نزل الافراد بمقتضاه عن حريتهم الطبيعية ‥**

ويجب أن نفرق فى النظام السياسى بين سلطتين : التشريعية - وهى الارادة التى تقرر أى عمل أو قانون - والتنفيذية ، وهى القوة التى تتولى تنفيذه ٠٠ ذلك لان القوة العامة - قوة الشعب - تحتاج الى وكيل يطبقها تبعا للارادة العامة ، وهذا هو دور الحكومة ، فهى شىء غير الحاكم أو السلطان ٠٠ هي وسيط بين الرعايا وبين السلطان فى صلاتهما المتبادلة ، تنفذ القوانين وتكفل الحرية الاجتماعية والسياسية ٠٠ وكلما قل عدد أعضائها ، زادت قوتها ٠٠ ذلك لان لعضو الحكومة - الوزير - ثلاث ارادات : ارادة خاصة - بوصفه عضوا فى المجتمع - وارادته كواحد من منفذى القانون، وارادته كعضو فى الهيئة الحاكمة صاحبة السلطان ، وهذه الارادة الاخيرة هى أضعف الارادات ٠٠

وعلى هذا ، فان الحكم اذا انحصر فى فرد واحد كان معنى ذلك أن الارادتين القويتين - ارادته الشخصية وارادته كمنفذ للقوانين - اجتمعتا فى انسان واحد ، فيكون الحكم قويا ٠٠ واذا انحصر الحكم فى أيدى أفراد قلائل ، تركزت الارادتان العليبان فى فئة قليلة ٠٠ أما اذا كان الحكم فى أيدى المواطنين جميعا ، فان الارادة الثانية تتلاشى ، بينما تتشتت الاولى على نطاق واسع ، فيكون الحكم ضعيفا ٠٠

ومن ناحية أخرى ، فان الهيئة الحاكمة تكون أكثر استعدادا لان تتمشى مع الارادة العامة اذا هى تألفت من عدد كبير من الحكام ٠٠ وتكون مهمة المشرع هنا هى أن يعمل على حفظ التوازن بحيث لا تفقد الحكومة قوتها ، وهى فى الوقت ذاته تدين للسلطان بالطاعة فى حدودها الصحيحة ٠٠

نظم الحكومات المختلفة

◆ **وتدين** نظم الحكم المختلفة بقيامها الى تباين درجات عدم المساواة بين الافراد ، فى زمن وضع أسسها ٠٠ فعندما

كان يوجد بين القوم رجل أبرز من سواه فى القوة ،والفضيلة، والثروة ، والنفوذ الشخصى ، كان هذا الشخص ينتخب ليكون الحاكم الاوحد الذى يستمد الباقون سلطتهم منه ٠٠ وهذا هو النظام الملكى

أما فى حالة وجود عدد من الافراد المتساوين فى الكفاءة ، والبارزين عمن عداهم ، فكان القوم ينتخبونهم مجتمعين ، وبذلك ينحصر الحكم فى أيدى أقلية ٠٠ وهذا هو النظام الارستقراطى ٠٠

أما فى المجتمعات التى لم ينحرف أعضاؤها كثيرا عن الوضع الطبيعى ، فلم تقم بينها فوارق كبيرة فى الثروات أو المواهب، فكان الحكم فى أيدى الشعب بأسره ، أو الشطر الاكبر منه٠٠ وهذا هو النظام الديمقراطى ٠ وقد يقال انه أصلح النظم جميعا، لان صانعى القوانين فى ظل هذا النظام هم منفذوها ، فهم أقدر الناس على تأويلها وتطبيقها ، **بيد انه ليس من الصواب فى شىء أن يتولى صانعو القوانين تنفيذها ، ولا أن ينصرف الشعب باهتمامه عن المسائل العامة الى أمور معينة ٠ اذ ليس هناك ما هو أخطر من تأثير المصالح الخاصة على الشئون العامة ، ومن المناقض للطبيعة أن يكون الحاكمون أكثر عددا من المحكومين٠٠ ولن يقوى شعب على حكم نفسه حكما ديموقراطيا صحيحا الا اذا كان مؤلفا من آلهة ٠**

وللحكم الارستقراطى ثلاثة أشكال : فهو اما طبيعى ، أو انتخابى ، أو وراثى ، والاول لا يمارس الا فى المجتمعات البدائية الساذجة ٠٠ أما الثالث فهو أسوأ نظم الحكم جميعا ٠ فى حين أن الثانى هو أفضل الثلاثة ، اذ أن الانتخاب يمكن من اختيار الحكيم ، النزيه ، مما يضمن سلامة الحكم ٠

وأول نقائص الحكم الملكى ، هو أن مصلحة العاهل تقتضى أن يبقى الشعب فى حالة ضعف وفقر، حتى يظل أفراده عاجزين

عن مقاومة سلطانه . كما ان الملكية تمكن الافاقين والانتهازيين من أن يلوا مناصب الشرف ، عن طريق دسائس البلاط ومكائد الحاشية .

أما الملكية الانتخابية ، فيعيبها أن موت الملك يصحبه اضطراب وفوضى .. فى حين أن الملكية الوراثية تترك شخصية الملك وأخلاقه فى يد الصدف والحظ ..

تطور الظلم السياسى

◆ **وكان** جميع رجال الحكم يختارون فى البداية بالانتخاب ، فاذا طرح الثراء جانبا ، فان الانتخاب كان يستند الى الجدارة والسن .. بيد أن الاقبال على اختيار الكهول كان يستتبع تكرر عمليات الانتخاب بسرعة ـ اذ لا يلبث الكهل أن يموت ، فتتجدد الحاجة الى اختيار حاكم ـ حتى غدت هذه الانتخابات مصدر قلاقل واضطرابات ودسائس ومؤامرات وانقلابات ، مما أفضى الى حروب أهلية كاد الناس يعودون بفضلها الى همجيتهم الاولى ..

وانتهز بعض الحكام هذه الظروف ليثبتوا الولاية والحكم فى أسراتهم . وفى الوقت ذاته كان الناس قد ألفوا أن يكلوا حقوقهم الى الدولة واستمرأوا الراحة ، فارتضوا ازدياد ربقة الحكام فى سبيل استمرار الطمأنينة .. وهكذا أصبحت ولاية الحكم وراثية ، يعتبرها الحكام من ممتلكات الاسرة ، ويعتبرون المجتمع ضيعة لهم ، وأفراد المجتمع عبيدا أو ماشية .. وأخذوا يشبهون أنفسهم بالآلهة ، وينتحلون ألقاب الاباطرة !

هكذا كان تطور عدم المساواة .. بدأ باقرار القوانين وحق التملك ، ثم تبعه انشاء الولاية والحكم ، وتلاه تحويل السلطة المشروعة الى سلطة فردية استبدادية .. وفى المرحلة الاولى تم اقرار الفوارق بين الناس ، فكانت للغنى الغلبة على الفقراء .. وفى الثانية أصبح التفريق يتمثل فى الاعتراف بتحكم

القوى فى الضعفاء .. أما فى الثالثة فانتهى التفريق الى وجود سيد وعبيد !.. وكانت هذه أقصى درجات عدم المساواة ، ما لم يقض على نظام الحكم بثورات جديدة ، أو يرد الى الطريق المشروع ..

ولو أنعمنا النظر فى الموضوع ، لوجدنا انه ما لم تكن ثمة سلطة عليا قادرة على ضمان وفاء الطرفين المتعاقدين بالتزاماتهما - فى العقد الاجتماعى - وحملهما على أداء تعهداتهما المتبادلة ، فلا بد أن يصبح كل من الطرفين حكما يقضى فى الامر من وجهة نظره ، ويستبيح دائما حق فسخ العقد بمجرد أن يتبين أن الآخر قد أخل بنصوصه ، أو أن هذه النصوص لم تعد تلائمه .. وهنا يجدر قيام حق الاعتزال والنزول عن السلطان ، ذلك لانه اذا لم يكن للحاكم القابض على السلطان كله ، والمستبيح لنفسه خير ما فى العقد من ميزات ، حق النزول عن سلطانه ، فان للناس - الذين يعانون نتائج أخطائه - كل الحق فى أن ينتقضوا على تبعيتهم له .. وتؤكد المنازعات والاضطرابات التى نشبت نتيجة لذلك مدى ما يعوز الحكومات البشرية من قواعد أكثر صلابة وتوطدا ..

ومن شأن الفوارق السياسية أن تستتبع فوارق مدنية اجتماعية ، فاذا ازدادت المساواة بين الحكام والشعب نموا ، انعكست على علاقات الافراد بعضهم ببعض .. والحاكم لا يملك أن يستغل أية سلطة غير مشروعة ما لم يؤثر على الاشخاص الذين سيشاطرونه هذه السلطة بامتيازات تفرق بينهم وبين بقية الناس .. كما ان الافراد لا يتقبلون الظلم الا بقدر ما يدفعهم فى الحياة الطموح الاعمى ، اذ ليس من السهولة فى شىء أن تحاول اخضاع رجل لم يبتل بطمع يتملكه ويسيطر عليه ، وعلى هذا فان عدم المساواة يتفشى بين ذوى العقول التى تدفعها المطامع الهوجاء الى المجازفة ، والى الاستهانة بما قد

تتعرض له فى سبيل مطامعها من تقبل للربقة ورضى بالخنوع ٠٠ وكان من جراء ذلك أن مر بالناس عهد كان مجرد انعام الحاكم فيه على الفرد بلقب كافيا لان يرفعه فى عينى نفسه وعيون الناس ، فتعميه المظاهر عن حقيقة ما تردى فيه !

الثراء هو منبع الانحراف والفساد

◆ **والخلاصة** أن عدم المساواة أصبح أمرا لا محيص عنه بين الاشخاص ، حتى بدون تدخل الهيئة الحاكمة ، فان مجرد اتحادهم فى مجتمع واحد أوحى اليهم بالمقارنة بين كل منهم وسواه ٠٠ والفوارق على أنواع : أبرزها الثراء ، والمرتبة والمكانة ، والنفوذ ، والمواهب الشخصية ٠٠ ولقد بدأت الفوارق بهذه الاخيرة ، ثم انحطت حتى بلغت الاولى ٠٠ **اذ بالثراء يستطيع الفرد أن يبتاع أية امتيازات أو فوارق أخرى ٠ ومن هنا نرى كيف انحرف الناس عن قوانينهم الاصلية ، أو دستورهم الاول ، وانحدروا الى أقصى درجات الفساد ٠٠ وفى وسعى أن أبين باسهاب ، كيف أن حب الشهرة والظهور ، هو مبعث المنافسة ، والنجاح ، والفشل ، بل هو مبعث كل ما نمتلك من فضائل ورذائل ، ومن معرفة وخطأ ٠٠**



ولو مضينا قدما فى الحديث عن عدم المساواة ، لوجدناه يسوقنا الى بحث فوائد ومساوىء كل نوع من الحكومات ، لما لها من علاقة بالانسان فى الوضع الطبيعى ٠٠ والى بحث جميع

النواحى المختلفة التى ظهر فيها عدم المساواة ، أو التى قد يظهر فيها فى المستقبل ، تبعا لطبيعة الحكومات العديدة المتباينة وما قد يدخله عليها الزمن من تحويرات وتغييرات ٠٠ واذ ذاك نرى أن الجموع انما تتلقى الظلم من بين صفوفها، نتيجة للاحتياطات التى تتخذها لتحمى نفسها من الطغيان الاجنبى ٠٠ ونرى أن الظلم يشتد باستمرار ، دون أن يتهيأ للمظلوم أن يدرك الحد الذى ينبغى أن يقف عنده ، أو الوسائل المشروعة التى تبقت له كى يوقفه ويكبح جماحه !٠٠ ونرى كيف ان الاساليب التى يلجأ اليها الحاكم الظالم لا تلبث أن تصرف الناس عن أعمالهم ، وأن تحول الابطال المدافعين عن البلاد الى أعداء لها ، وأن تضطرهم الى أن يشهروا سلاحهم فى وجوه اخوتهم فى الوطن ٠٠ وفى غمرة هذه الفوضى ، يبتلع الاستبداد كل ما تبقى سليما ، ويوطد دعائم صرحه على أنقاض الامة ٠٠ وينقلب الحاكم طاغية ٠٠ **وهذه آخر درجات عدم المساواة ٠٠ بل هى النقطة التى تكمل الدائرة ، وتردنا الى حيث بدأنا ، اذ يرجع بمقتضاها الاشخاص - كأفراد - الى المساواة الاولى ، لانهم غدوا سواسية فى العبودية ، وأصبحوا ولا قانون لهم سوى ارادة حاكمهم ، ولا سلطان على هذا الحاكم سوى نزواته ، وقد تلاشت كل بواعث الخير وحوافزه ٠٠ وهنا تكون العودة من جديد الى قانون الغلبة للاقوى ، والى الوضع الطبيعى وقد تجرد من نقائه وشاعت فى أرجائه عوامل الفساد !**

وبهذا يصبح العقد الاجتماعى - الذى قامت بمقتضاه الهيئة الحاكمة - مفسوخا ، اذ أن المستبد لا يستمد بقاء سلطانه الا من بقائه أقوى من سواه ٠٠ ومن ثم فان اقصاءه أو القضاء عليه يكون عملا مشروعا ٠٠ فان الغلبة للاقوى !

وأهم ما أنتهى اليه بعد هذا الاسهاب فى الحديث عن عدم المساواة وبيان ما تؤدى اليه من عواقب ، هو أن الارادة العامة وحدها هى القادرة على توجيه قوى الدولة نحو الهدف الذى

قام عليه وضعها ، ألا وهو الصالح العام . ومن ثم فان السيادة أو السلطان ، معناه ممارسة الارادة العامة ، وبالتالى فهو لا يعمل بوحى من ارادته .. ولهذا السبب فان السيادة – أو السلطان – لا يقبل التحويل ، ولا يقبل التجزئة !.. لان الارادة اما أن تكون عامة شاملة – ومن ثم تكون رغبة من الشعب وتصبح قانونا – واما أن لا تكون عامة ، بل مجرد رغبة من شخص أو أشخاص معينين فيخرج تفردهم بها عن نطاق السيادة وحدود الحكم .. اذ أن القانون انما هو تعبير عن ارادة عامة ، وليس للهيئة الحاكمة – أو السلطان – أن تسن تشريعا يقتصر على جزء ممن يؤلفون الدولة ، لان هذا معناه أن الارادة العامة تدخل فى علاقة خاصة مع قوم معينين ، وهذا ما يناقض طبيعتها ..

الحرية والمساواة هما أهم الاهداف

◆ **ومن** ناحية أخرى فان المشرع الحكيم لا يبدأ بكتابة قوانين تبدو صالحة فى أسلوبها وكلماتها ، وانما هو يتلفت حوله أولا ليستبين ما اذا كان الناس قادرين على تقبلها والتزامها .. ويجب أن يضع نصب عينيه اعتبارات كثيرة : منها موقع البلاد ، وطبيعة أرضها ، وكثافة سكانها ، وتاريخها القومى ، وميول أهلها وحرفهم .. آلخ

ومن الاعتبارات الهامة ، مساحة الدولة .. فهناك حدود لكل دولة ، اذا تجاوزتها تعذر حكمها حكما صالحا ، واذا قلت عنها كانت من الصغر بحيث يتعذر عليها أن تعول نفسها وتصون كيانها !.. ولكل هيئة سياسية حد أقصى للقوة لا ينبغى أن تتجاوزه والا تعثرت وسقطت .. وكلما اتسع نطاق المجتمع ، تفككت عرى الرابطة التى تربطه ..

والواقع أن القوة أو الاتساع ليسا أهم الاهداف ، بل ان أهمها جميعا هما : الحرية والمساواة ، وهما الغاية التى يجب أن يتجه اليها كل نظام تشريعى ..

ولما كانت الهيئة الحاكمة لا تعمل بغير القوانين ، وكانت القوانين نتاج الارادة العامة ، فان الهيئة الحاكمة لا تستطيع أن تعمل الا اذا اجتمع الناس وعبروا عن ارادتهم . ومن ثم كان لزاما أن تعقد فى فترات محددة ثابتة ، اجتماعات للشعب لا سبيل الى الغائها أو ارجاء اجتماعها ..

الشعب الانجليزى ليس حرا !

◆ **وقد** أفضى هذا الى ابتكار انتخاب النواب أو المندوبين الممثلين للشعب فى الجمعيات الوطنية . ولكن السيادة لا يمكن تمثيلها بمندوبين لانها تتمثل فى الارادة العامة ، والارادة العامة لا يمكن أن يعبر عنها التمثيل أو المندوبون ، على أتمها . **ومن هنا نرى أن الشعب الانجليزى مخدوع فيما يعتقده من أنه حر لأنه ينعم بنظام برلمانى . والواقع أنه لا ينعم بالحرية الا فى فترة انتخاب أعضاء البرلمان فحسب ، وبمجرد أن تتم عملية الانتخاب ، يرتد الى نوع من العبودية .**

غير أن من النتائج المنطقية المترتبة على العقد الاجتماعى ، أن الغلبة للاغلبية فى جمعيات الشعب ، أى المجالس النيابية .. والقانون الوحيد الذى يتطلب اجماعا تاما من الشعب كله هو العقد الاجتماعى .. ولكن ، كيف يكون الانسان حرا ، وهو يخضع فى الوقت ذاته لقوانين لم يوافق عليها ؟.. وأجيب على ذلك بأنه اذا ما عرض قانون على الجمعية الشعبية ، فان المسألة لا تتمثل فيما اذا كان المواطنون يقرونه أو لا يقرونه ، وانما هى تتمثل فى : هل يتفق هذا القانون مع الارادة العامة أو لا يتفق ؟.. فاذا أقرته الاغلبية فى الجمعية ، كان هذا برهانا للاقلية على أنها أخطأت اذ حسبت أنها تمثل الارادة العامة للشعب ، وبصدوره يعتبر أفراد الاقلية مساهمين - كأعضاء فى المجتمع - فى وضعه ، مادام معبرا عن الارادة العامة ، وبالتالى يلتزموا بالخضوع له ..

أخلص من كل هذا العرض الى أنه لا يكاد يوجد فى الوضع الطبيعى – الذى فطر عليه الانسان – شىء من عدم المساواة ، وانما نشأ كل ما يسود المجتمع الآن من عدم المساواة ، نتيجة اشتداد ونمو مواهبنا ، ونتيجة تقدم العقل البشرى .. ثم توطد واكتسب صفة الدوام وشرعية وجوده باقرار حق التملك ، وباصدار القوانين ..

عندما ترفع الستار..



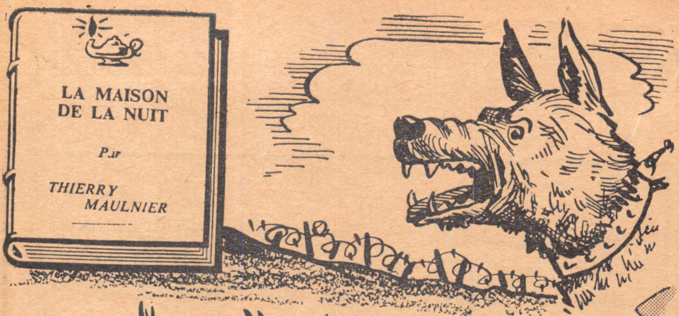
روائع المسرح العالمى
(التمثيلى.. والغنائى)

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى هذا الباب فى الاعداد الماضية المسرحيات العالمية الآتية :

- خطايا الحب : لاوسكار وايلد
- الحب الآثم : تولستوى
- نزاهة الحكم : جوجول
- سلاح المرأة : اريستوفان
- فولبون : بن جونسون
- جيوكندا : دانونزيو
- كلام الناس : جوزيه اشيجاراى
- مدرسة الفضائح : شيريدان
- سيرانو دى برجراك : روستان
- لعبة الحب والموت : رومان رولان
- مروحة الليدى وندرمير : وايلد
- فاوست : جيته
- أوديب الملك : سوفوكل
- فى سبيل الحب : جون درايدن
- وليم تل : شيللر
- الأم : مكسيم جوركى
- الملك يلهو : فيكتور هوجو
- الذبيحة : اندريه اوبيه
- الجنس الآلى : كاريل كابيك
- الابن الاكبر : جالزورثى
- هرنانى : فيكتور هوجو
- ترويض النمرة : شكسبير
- الحياة نفاق : لويجى بيراندللو
- اغلال الحب : ستيف باسير
- المنافق (طرطوف) : موليير

واليوم أقـــدم لك فيما يلى هذه المسرحية الحديثة التى تمثل على مسارح باريس منذ شهور بنجاح كبير ..



بيت الليل

قصة تمثيلية كبرى للروائى الفرنسى المعاصر "تيري مونييه"



عرض وتلخيص : الاستاذ انور لوقا

عزيزى القارىء ...

◆ قدمت لك فى العددين ٢٢ و ٢٣ من (كتابى) خلاصة كتاب (آلهة ومقابر وعلماء) ، ثم مسرحية (ثمن الريح) ، اللتين تولى تلخيصهما الاديب الاستاذ انور لوقا ، الحاصل على ليسانس الآداب من جامعة القاهرة منذ اربع سنوات ، والذى يكمل الآن دراسته بجامعة السربون بباريس ليحصل منها على دكتوراه الدولة..

وقد التقيت به اخيرا فى باريس ، فوجدته منهمكا فى جمع مادة كتاب شائق وهام عن « خفايا اسرة محمد على » ، استقاه من مذكرات مستفيضة للمستشرق الفرنسى « دافين » الذى امضى من حياته ١٧ عاما فى مصر ، عمل خلالها فى خدمة كل من : محمد على، وابراهيم ، وعباس ، ثم عاد الى مصر فى عهد سعيد واسماعيل ليكمل دراسته للمجتمع المصرى فى عهديهما .. وخلال ذلك استطاع ان يقف على الكثير من خفاياهم واسرارهم ومظالمهم ، فسجل فى مذكراته الصريحة هذه اخطر المعلومات التى تناقض وتنقض قلائد المديح التى صاغها لاولئك الحكام مؤرخون اشتروهم بالمال ! ..

وقد اختلس الاستاذ انور لوقا بعض الوقت الذى يعكف فيه على اعداد كتابه المذكور ، كى يقدم لقراء كتابى هذه المسرحية الحديثة التى تمثل على مسارح باريس منذ شهور بنجاح كبير :

مسرحية مثيرة ومؤلف شاب

◆ **اذا** كان أبلغ الكلام هو ما يناسب مقتضى الحال ، فان أبلغ مسرحية تقدمها لنا باريس اليوم هى مسرحية « تييرى مونييه » الأخيرة : (بيت الليل) . فموضوع هذه القصة هو الموضوع الذى يسيطر على العالم بأسره.. هذا القلق الذى يملأ صفحات الجرائد صباحا ومساء ، ويصطدم بهفكرك كلمانظرت فىحياتك وفى مشاكلك المادية والمعنوية : فاقتصادك وما تبلغه

من الرخاء أو القلة ، وحريتك وما تجد من ضيق أو تفريج ، وراحتك وما تحس به من أمن أو اضطراب ، وعواطفك التى تطغى على مصالحك ، أو مصالحك التى تطغى على عواطفك ، ووضعك فى منتصف القرن العشرين بين الحق والواجب ، وما أصبحت عليه علاقتك بالمجتمع وعلاقتك بالفرد ، كل ذلك مرتبط بآثار الماضى الذى لم يكد ينقضى ، وعلائم المستقبل الذى يوشك أن يحل . وهذا ما تتناوله قصة « بيت الليل » . هى اذن قصة الفرد والجماعة ، وملحمة العقل والعاطفة ، كما يحددها موقف الانسانية فى العصر الحاضر ..

هى قصة المرأة التى تخون زوجها حرصا على حياته ، والمواطن الصالح الذى يخاصم المواطن الصالح .. هى قصة المادة التى تنكر العاطفة ، والحياة التى تأبى أن تجمد فى قوالب المادة ..

وليست طرافة الموضوع وحدها أو مناسبته لمقتضى الحال هى التى تثير اعجابنا بهذه المسرحية . فهى بلا شك مسرحية قوية جريئة تعبر عن أزمة الضمير الانسانى الراهنة . ولكنها فوق ذلك ـ من ناحية الصياغة الفنية ـ أثر متقن ممتاز ، قد ارتفع بها مؤلفها الى درجات النقاء والصفاء والتركيز التى تميز فى المسرح الفرنسى الكلاسيكى ، وبخاصة مسرح «راسين»

فالمؤلف ـ وهو فى الخامسة والأربعين من عمره ـ أديب واسع الثقافة ، عميق الفكر ، مرهف الذوق .. تخرج عام ١٩٣١ فى مدرسة المعلمين العليا ، تلك التى أنجبت لفرنسا معظم أدبائها فى الأجيال الأخيرة . وسرعان ما أدار ظهره للتعليم وللجامعة ، وفرغ للتأليف والنقد الادبى والمسرحى ، فقدم كتابا رائعا عن راسين ، واقتبس للتمثيل الحديث بضع مسرحيات من الأدب القديم ، وما زال يحرر الصفحة الأدبية بانتظام فى جريدة حية فتية هى صحيفة COMBAT وقد أخذ نجمه الآن يتألق فى سماء المسرح الفرنسى بجدارة .

بين تييرى مونييه وراسين

◆ **فهم** تييرى مونييه عبقرية راسين ، واستكنه كيف استطاع الكاتب الكبير أن يحقق المثل الأعلى للمأساة التى لم يكن بد من أن تجرى حوادثها فى يوم واحد من أربع وعشرين ساعة لا أكثر ، وفى حدود منظر واحد لا يتغير ، وأن تعرض موضوعا واحدا محكم العقدة واضح المدار • وقد أشاد برشاقة راسين فى حمل تلك القيود البلاغية العتيقة وتضييقها على نفسه ، حتى نقى فن الانشاء المسرحى من شوائب الملابسات الكثيرة الغريبة ، وسخف المفاجآت غير المعقولة ، وفوضى الحركات التمثيلية التى تطرأ من الخارج على الأشخاص والمواقف • ولمس الناقد الشاب أن راسين حقق هذا المثل الأعلى للمأساة ، لأنه استجاب قبل كل شىء لسجيته الصادقة المرهفة التى استحوذ عليها نقاء الطبيعة وبساطة الحقيقة ، فكان أن اتخذ من العواطف وتطورها فى القلب مواضيع مسرحياته ، وصور لنا النفس الانسانية ازاء مصيرها عارية ، مجردة من ثياب الرياء والصنعة والتكلف ••

وكان القدماء يجدون موضوع مآسيهم بوجه عام في اصطدام ارادة الانسان بارادة القدر • وقد نقل « تييرى مونييه » هذا الصراع من السماء الى الارض ، أو مما وراء الطبيعة الى الواقع ، ومن العصور الغابرة الى العصر الحديث ، فعرض علينا فى هذه الرواية نزاع الفرد والجماعة ، وصراع النفس التى تنشد الحرية والسعادة ضد المذاهب التى تريد الغاء هذه الحرية وهذه السعادة فى سبيل حرية الانسانية جمعاء وسعادة الانسانية جمعاء •• ولكنه صرح بأنه لا يكتب فى السياسة ولا يحب أن يخوض غمارها ، وانما اختار بعض أبطاله من الشيوعيين وبعضهم الاخر من غير الشيوعيين لأن فى تعارض هؤلاء وأولئك مادة رائعة للكاتب المسرحى • فهناك أزمة وانقسام والتحام ، والمأساة المسرحية لا تعرض الا أزمة

وانقساما والتحاما · وانه ليركز هذه الأزمة فى نفر قليل ، وفى زمن قصير لا يتجاوز الساعات الثلاث التى يستغرقها التمثيل· وانه ليحاول أن ينأى بها عن الجدل العقلى ـ فالمناقشات الفلسفية والمنطقية تثير ملل النظارة وتقتل الحياة الجارية على خشبة المسرح ـ وهو يفلح فى أن يجعل العاطفة هى المسيطرة على أشخاص قصته من رجال ونساء · وكما كان راسين يتخذ موضوع مأساته من احدى العواطف الكبيرة ـ كالحب أو الوفاء مثلا ـ تلتهم هذا البطل أو تلك البطلة ، فان تييرى مونييه يتخذ موضوع « بيت الليل » من الشفقة ـ ويالها من عاطفة عميقة مستحكمة عاتية !

ليس فى هذه القصة الممتازة اذن ـ وان أثارت سخط الشيوعيين ـ دعاية لأى مذهب سياسى ، فهى لا ترمى الى اثبات فكرة أو رأى ، ولا تميل مع أهل اليمين ولا مع أهل اليسار ، وانما تحاول أن تنفذ الى أعماق النفس الانسانية فى مأساتها الحالية ، كما صنع القدماء ، وبالاخص « راسين »

- ١ -

◆ **نحن** فى داخل بيت واقع بين حدود دولتين من دول أوربا الوسطى ، فمن الشرق حدود جمهورية شعبية خاضعة لأوامر الحزب الأعلى ونواهيه ، ومن الغرب حدود جمهورية حرة · ويبدو على أثاث القاعة وجدرانها آثار التلف الذى الحقته الحرب بالمكان منذ وقت غير بعيد : كراسى بعضها سليم وبعضها مبقور ، ومائدة هى لوح من خشب فوق حاملين ، وصفائح « بنزين » فى ركن من الأركان ، وساعة عتيقة ثمينة قائمة بجوار أحد الجدران يشير عقرباها الى الساعة التاسعة عند ارتفاع الستارة ، وتدور دورانها الطبيعى ، أى أنها ساعة مضبوطة تقرأ عليها الوقت الحقيقى · فان أحداث الرواية تجرى أثناء الساعات الثلاث التى تستغرقها مشاهدتنا للتمثيل ، وتنقضى عندما ينتصف الليل ·

ونرى فى بيت الليل هذا امرأة ورجلا وفتاة ۰ وقد جلس الرجل والمرأة ـ وهما من نزلاء البيت العابرين ـ يلعبان الشطرنج ، ووقفت الفتاة ـ وهى ابنة البيت ـ لا تعمل شيئا بل تنتظر وتصيخ السمع ۰۰

أما المرأة فقد جاوزت سن الشباب ، هلوع ، ثرثارة ، نعلم أنها « كونتة » من أشراف الدولة الشرقية ، قد أفلحت أخيرا فى الفرار وعبور الحدود للالتجاء الى الغرب ، بعد أن نكل الفلاحون بزوجها «انكونت» الذى كان سيدهم الجبار ، وثأروا منه بأن خلعوا عليه جلد خنزير برى وأطلقوا عليه كلابا ضارية فمزقته اربا اربا ! وأما هذا الرجل الذى تلاعبه ـ ويدعى أدلر ـ فيصغرها سنا ولكنه يكبرها رصانة وجدا ، قليل الكلام ، لا يكشف اللثام عن شخصيته ، ولا يكاد يرحب بتوددها اليه واقبالها عليه ، اقبال المرأة التى انصرف عنها الجميع ، على رجل قد يشفى نفسها مما تجد !

لكن الرجل قلق لتغيب رب البيت « كلوسوفسكى » الذى خرج تحت جنح الظلام والضباب للقاء بعض اللاجئين من الشرق واعانتهم على عبور الحدود ، ونحن نشاطره هذا القلق اذ نسمع طلقات نارية ونباح كلاب خارج الدار ، واذ نسمع أقوال الفتاة « ليديا » ـ وهى التى اعتادت كل ليلة قدوم نزلاء يفلتون فى عناء من رجال الحدود الشرقية ـ تشرح لأدلر ماذا يعنى اطلاق الرصاص وماذا يعنى نباح الكلاب ! وها هى ذى تهرع الى المصباح فتطفئه ، فقد استنتجت ان اللاجئين قد اقتربوا من البيت ، وخير لهم ألا يسطع عليهم نور الدار فيظهرهم لرجال الحدود الذين يرمونهم بالرصاص من بعيد ، ويعلو فى الخارج صوت « كلوسوفسكى » كالمستغيث داعيا « ليديا » الى التعجيل بفتح الباب ۰ وفى الظلام يسرع اللاجئون ومضيفهم بالدخول ۰ ثم يضاء النور فنرى القادمين وعليهم علائم الاضطراب والفزع ، لاهثين مروعين ، يستردون علائم الاضطراب والفزع ، يلهثون مرتاعين ۰۰

ويسألهم كلوسوفسكى هل سلموا جميعا من طلقات الرصاص؟ فيجيبه أحدهم ـ «هاجن» ـ بأنهم قد نجوا جميعا ، ولكن رفيقه ضل الطريق . بيد أن كلوسوفسكى يصب خمرا ويشرب غير عابىء بشىء . وتخرج ليـديا للبحث عن الفتى الضال . وما أرخص الحياة على الحدود ! لن يكون ذلك الفتى المفقود آخر لاجىء يهلك ولا أول لاجىء ينجو . ففى كل ليلة ، ولا سيما فى الليالى الحالكة ، يزحف على بطونهم عبر الاسلاك الشائكة مئات من أهل تلك المناطق الشاسعةالممتدة من شواطىءالبلطيق الى جبال بوهيميا ، لاجئون من جميع الطبقـــات ، ضباط من الجيش القديم ، وأشراف وأغنياء ، وسجناء أفلحوا فى الفرار من معتقلاتهم ، وعمال ، وفلاحون طردوا من أراضيهم ، أولئك الذين يهربون من الجوع وأولئك الذين يهربون من الخوف ..

وكثيرا ما تكون بينهم عائلات مؤلفة من خمسة أفراد أو ستة ، قد لا يصل منهم الى هذا البيت الا اثنان أو ثلاثة ! ألم تبلغ الدار ذات ليلة امرأة تحمل على كتفها طفلها وقد كممت فاه بملفعتها لتكتم صياحا خليقا بأن يفشى أمرها ، وحين كشفت وجهه وجدت أنها أسرفت فى تكميمه وأنه قد فارق الحيـــاة منذ ساعات طوال !؟

وتدخل ليديا مقتادة « كراوس » ممسكة بيده . وانها لتنظر اليه برهة قبل أن تترك يده ، ثم تنظر اليه نظرة أطول ، فهى لم تر وجهه فى الظلام المطبق خارج الدار . وتدعوه الى الجلوس بجوار المدفأة ، ثم تسأله هل يرغب في تناول شراب ما ، فيحسده رفيقه « هاجن » على هذه العناية التى لم يلقها سواه . وتحسد « الكونتة » تلك الفتاة الرقيقة على صيدها الثمين ، سائلة اياها فى خبث هل تصيب فتى وسيما كهذا كل ليلة ، فتستدير « ليديا » وتخرج كالغزال النافر .

ويقص كلوسوفسكى قصتها ، فهى ليست ابنته ، وانما هى صبية جرفها الى ذلك المكان سيل من اللاجئين فى نهاية الحرب

عام ١٩٤٥ ٠ وكانت تلك الدار قد فقدت أهلها ، وكان هو قد فقد داره ، فالتقط الصبية المتخلفة من جمهور الهاربين ، كما التقط صفائح البنزين والساعة ، وأثث البيت بها جميعا٠ وكانت ليديا اذ ذاك فى نحو العاشرة من عمرها ٠ لم تقل له قط ماذا رأت قبل أن تلقيها الأحداث الى الحدود ٠ لعلها رأت قريتها تحترق ، وأهلها يتلظون فى نار ذات لهيب ٠٠ ولا بد أنها رأت أشلاء متناثرة فى كل مكان ، وجنودا بواسل ينتهكون أمها ، وينتهكون عذارى القرية ولا حول لهن ولا قوة !

على أن مصير هذه الشرذمة الحالية من اللاجئين مصير غامض مجهول٠ فلئن كانوا قد اجتازوا الحدود الشرقية فانهم لم ينتهوا بعد الى أرض الجمهورية الغربية ٠ والجمهورية الغربية قد أغلقت حدودها فى وجه الجميع منذ ثمان وأربعين ساعة ، ظنا منها أن جارتها الشرقية قد دست اليها عددا من الجواسيس ، أو عجزا منها عن ايواء هذه الحشود الجرارة من الناس ٠ على هذه الشرذمة اذن أن تقضى الليلة فى هذا البيت ، وان غدا لناظره قريب ٠٠

ويصعد بهم كلوسوفسكى ليرشدهم الى غرفهم ، ولكن «فرانز ورنر» و « كاترين » ـ ولا نعلم من أمر هذين اللاجئين شيئا بعد ـ يبقيان ليتحدثا فيما بينهما حديثا خاصا يكتمانه عن الآخرين ٠ لم تكن كاترين تعلم الى أين سيمضى بها فرانز، فقد سألها منذ بضعة أيام أن تأتى معه دون أن يستطيع مفاتحتها بسبب رحيله ولا بوجهته ٠ ولقد وثقت به ثقة عمياء لأنها تحبه ، وان كانت تعاتبه فى رفق على ما ساوره من قلق ومن شك فى اخلاصها، اذ خطر له أنها قد تكون من جواسيس الحزب عليه ، غير أنه يؤكد لها حبه بما فعل وما يفعل ٠ فهو يريد ان ينتشلها من عالم الغدر والنميمة والريبة ، من عالم يحذر فيه الزوج زوجته والأخ أخاه ، من عالم يتهم فيه الولد

أباه بالخيانة على رؤوس الأشهاد ويدعو المحكمة الى اعدامه ! ٠٠ من عالم يشترى فيه المرء حياته ـ بل أياما معدودة من حياته ـ نظير هوانه وتحقير نفسه٠ ها هما يديران ظهريهما لذلك العيش الرهيب ويقبلان على الطمأنينة والقرار والسعادة ٠٠

ولكن كاترين تشعر بأنها اقترفت ذنبا ، وبأنها تختلس السعادة اختلاسا ٠ فان للسعادة ثمنا لم تدفعه هى ٠ ذلك أنها انتزعت فرانز من أحضان زوجته « ليز » ، لكنها تخشى أن يظل محتفظا بشىء من عاطفته الأولى ٠٠ فان المرء لا يدير ظهره لماضيه كما يديره لحدود بلد من البلاد ! وان ذكرى تلك الزوجة لخليقة بأن تلاحقهما وتفسد عليهما أصفى الايام المقبلة ٠ وهنا يعترف فرانز بأنه قد أمسى خالص النية مرتاح الضمير ، فقد عرض على امرأته أن ترحل معه ـ وان كان ذلك تهورا منه ـ أفليس بين الزوج وزوجته، مهما كانت الظروف ، واشجة عميقة من الألفة والتضامن والبؤس المشترك تجمعهما دائما كما تجمع السجينين المكبلين سلسلة واحدة يجرانها معا فى كل خطوة نحو الموت ؟ بيد أن « ليز » امرأة ضئيلة الفكر ، ضيقة الأفق ، لا تقدر كبار الأمور ، ومن طبيعتها أن تزحف لا أن تطير ٠ بذلت كل جهدها وعنادها لتعيد الوفاق بينه وبين رجال الحزب ، لا عن اقتناع منها بأن رجال الحزب على حق ، بل تلافيا للأخطار التى يتعرض لها زوجها الوزير ، وتجنبا للعقبات التى لا بد أن تقوم فى سبيله اذا هو جهر برأيه وأظهر استقلاله ٠ ولو أنه أطاعها لظل قويا فى مركزه السياسى ، جبان النفس مستعبدا ذليلا فى واقع الأمر ٠ وكان لالحاحها عليه وحرصها على السلامة وتشبثها بالباطل أثر الداء المعدى ، فقد كان يدوى فى خاطره أحيانا صدى ما تلقنه ، ولم يكن له بد من الفرار لتوقى تلك العدوى ٠ فتسأله كاترين :

ــ أفلم تحبها قط ؟

ــ أين يبدأ الحب وأين ينتهى ؟ ان الأمور ليست بهذه البساطة ، حتى بالنسبة لجسمين يتحدان . ومن ذا الذى يستطيع أن يشرح جميع ما يثور فى ضمة جسمين من الضيق ازاء الوحدة وازاء الموت .. من الهزل ، ومن البغض .. من الحنان ومن الاهانة .. من الرحمة ومن الوجد ؟

ــ اذن فقد كانت جزءا منك . ألا ترى أننى فى حاجة الى أن أحس بأنها عدو ، وأن أتوقع من ناحيتها الخطر علينا ، ولا سيما الآن ؟

فيأخذها بين ذراعيه ، ويحاولان أن ينسيا الزوجة المهجورة وأن يذكرا غرامهما . ويغمرهما البشر اذ يفكران فى أنهما مقبلان فى غدهما على أوربا ، فان الدنيا الآن لهما ، من ألمانيا التى نضرت بمدنها الجديدة كالغابة استعادت خضرتها بعد حريق ، الى باريس التى تمد قصورها الزاخرة تحت سماء الاخاء الانسانى ، الى انجلترا التى تبرز صخور شطئانها من الضباب كذهب تاج يطفو على صفحة البحر ، الى ايطاليا الغنية ــ رغم فقرها ــ بنور الشمس وبهرج المرمر وأغانى الفرح ..

ويفيقان من حلمهما اللذيذ على صوت امرأة تستغيث فى خارج الدار ، صوت سمعته « الكونتة » أولا ، ثم سمعه رب البيت فهبط يستطلع الأمر تصحبه ليديا . ويكره العاشقان أن يزدحم القوم من حولهما فيقطعوا عليهما نجواهما . ويصعدان اذن الى غرفتهما . ولا يلبث كلوسوفسكى وليديا حتى يعودا من الخارج ومعهما امرأة فى حالة اعياء شديد ، لا تكاد تملك القدرة على الكلام . فيقدمان لها قدحا من الخمر تحسوه جرعة جرعة ويعود اليها صوابها . عجيب أمر هذه المرأة ! فانها عجلة تريد أن تواصل طريقها فى الحال لتبلغ بيت كلوسوفسكى ! ويندهش الجميع اذ يرون من حديثها انها قد عبرت الحدود

الشرقية بسهولة اعجازية ، وانها لم تدرك بعد انها انتهت فعلا الى بيت كلوسوفسكى ، وأن كلوسوفسكى هو هذا بعينه الذى يخاطبها . اذ ذاك تسأله هل أتى لديه الليلة رجل ؟ فيجيبها ساخرا : بل رجال كثيرون ! ولكنها تبحث عن رجل واحد ، رجل أسمر ، طويل القامة ، تصحبه فتاة . انها تريد أن تراه، وأن تراه بمفرده . فيصعد رب الدار ليدعوه . وتنصرف الكونتة مع أدلر ليستأنفا مباراة الشطرنج . ويقترب الرفيقان « هاجن » و « كراوس » ويحتلان صدر المسرح .

ويتضح لنا من حوار الرفيقين انهما من أعضاء الحزب فى الدولة الشرقية ، وأنهما أقبلا للقيام بمهمة خاصة ـ وان كانا لا يعرفان ماذا سيؤديان على وجه التحديد ! ـ على أن لكل منهما شخصيته وصفاته . فهاجن رجل يشعر بالحياة من حوله ، ويتكلم ، ويبتسم ، ويعلق على كل شىء تعليقات انسانية صريحة . وأما كراوس ففتى ساكن صارم ، لا يتكلم كثيرا ، لأنه لا يفكر كثيرا ، ولا يرى فى الحياة الا طريقا واحدا مرسوما هو طريق الحزب الأعلى . **يستبشر هاجن فى شىء من السخرية بأن رحلتهما الشاقة لا تخلو من ترفيه ، فها هى ذى امرأة ثالثة تفد الى البيت . وهو وان كان يعرف شخصيتها الا أنه لا ينظر فيها لغير « المرأة » . على حين لا يرى فيها كراوس ـ وهو يجهل شخصيتها ـ الا واحدة من الطبقة « البورجوازية » تبدو عليها التفاهة ، ولا يأسف على أن تلوذ هى وأمثالها بجمهورية الغرب ، اذ ينبغى أن يتخلص الشرق من تلك الطبقة على كل حال . ومعرفة هاجن بها معرفة جيدة ، فقد سبق له أن راقصها مرتين أو ثلاثا بل وطارحها الغرام ، تنفيذا لأوامر صدرت اليه . فيسأله كراوس :**

ـ من تكون ؟

ـ لا غناء فيها . انى متأكد من انك تفضل ليديا .

ـ ليديا ؟

ــ ليديا التى هدتك سواء السبيل فى الظلام والضباب والخطر

ــ ألا تظن أننا نستطيع أن نتحدث فى جد الأمور ؟ أترى أن نظل محاصرين فى هذا المكان ؟

ــ وما العمل ؟ اذا نحن حاولنا أن نتسلل خلال الحدود الغربية تعرضنا لخطر الاعتقال وانكشفت حقيقتنا · أليس من الخير أن ننتظر وأن نختفى عن العيون ما استطعنا ؟ هل لديك تعليمات عن المهمة ؟

ــ كلا · اسم وعنوان فقط · وهناك سيقولون لى ماذا أفعل

ــ وأنا مثلك ليست لدى معلومات أكثر

ــ هذا أفضل · فنحن متى صرنا بين أهل الغرب أصبحنا على أرض العدو ، وخيرا فعل رؤساؤنا اذ حمونا من أنفسنا بكتمان سر المهمة عنا !

ــ نعم ، لا ثقة الآن فى أهل الثقة

ــ وانهم على حق ، فالقاعدة هى ألا تثق فى شخص قط · انك تعتقد انك موضع للثقة ، وانى أعتقد أننى موضع للثقة ، ولكن قد يحدث أن نتورط كلانا فى الخطأ !

ــ أنا أحب على الأقل أن يستخدمونى حسب اختصاصى

ــ حسب اختصاصك أم حسب ذوقك ؟ ان الجمهورية الشعبية لا تسألنا أن نصنع ما نحب ، بل أن نصنع ما يجب !

ــ ألا تعتقد أن المرء يجيد ما يصنع اذا هو صنع ما يحب ؟

ــ ينبغى أن يصنع المرء أيضا ما لا يحب ، وأن يجيده نفس الاجادة !

ــ أهذه هى أول مهمة تنهض بها فى الغرب ؟

فلا يجيب كراوس ، بل يتجه الى النافذة ، ويحاول أن يغير مجرى الحديث · الا أن هاجن يذكر ما اجتازا من هول عند عبورهما الحدود الشرقية ، ويبدى دهشته من أن الحزب لم ينبىء رجال الحدود لكى يفسحوا لهما الطريق ، بدلا من اطلاق

الكلاب عليهما واطلاق الرصاص .. ولكن كراوس يرى فى ذلك حكمة التمويه على أصحاب الحدود الغربية . ثم يدعـو هاجن صاحبه الى الشراب فيرفض :

- انى لا أشرب قط ، ما لم أتلق أمرا بالشرب

- ولا فى مناسبة غير اعتيادية ؟

- ليس فى حياتى مناسبات غير اعتيادية

- سيأتى يوم مماتك !

- يوم مماتى يوم عادى

- ليكن . أما أنا فأشرب ، أشرب نخب ليديا ..

- ما دام ذلك يلهيك

- ... ونخب الرجل الخطير الذى يشرفنا بالنزول معنا الليلة فى هذا البيت المتواضع .

- أى رجل خطير ؟

- زوج الباكية الحسناء : « فرانز ورنر » !

- فرانز ورنر ؟ رئيس جماعة « الاشتراكيين الاحـــرار » ووزير الدولة ؟ .. انك تهزأ بى !

- لقد كسبت الرهان . فقد راهنت نفسى على أننى سأخرج كراوس من سكونه وأراه مضطربا

- فرانز ورنر .. هارب الى الخارج ؟

- فيما يبدو ..

- أما استطعت أن تنبئنى من قبل ؟

- أمامنا متسع من الوقت ، فان الحدود الغربية مغلقـة دوننا جميعا ..

- ينبغى ياهاجن ألا يعبر فرانز ورنر الى الخارج !

- ٢ -

◆ **ما أقسى** لقاء المرأة المهجورة بزوجها الهاجر ! وأيهمـا الذى يقسو على الآخر ؟ لكل منهما نفسه ومشاعره وموقفه ..

فكلاهما عادل فى جوره ، جائر فى عدله ! هذه « ليز » متولهة ملتاعة ، تنفث وجدها . تقول لفرانز انها اقتحمت الأهوال لتلحق به ، وان اجتراعها كأس الموت لأهون عليها من الرضا بفراقه ! .. **لكن «فرانز» لا يلين لها ، وهو الذى لم يستطع طوال حياته الزوجية أن يميز حديثها الصادق من حديثها الكاذب ! فتقسم له انها تقول الحق ، وتستغفره وتستعطفه.. ثم تسأله من تكون تلك المرأة التى اصطحبها فى فراره ؟ وتجيب نفسها بأنها لن تكون سوى سكرتيرته فى الوزارة ، عشيقته كاترين ! وبماذا عساها تمتاز عليها ، هذه الكاترين ؟ أتمتاز عليها بالصبا والجمال ؟ ربما كانت أرق خلقا ، وألطف طبعا ، وأثبت جأشا . ولا بد أنها من النساء البارعات فى فن اجتذاب الرجال وتسييرهم وراءها .. ما الذى أعجبك فيها ولم أقدمه اليك ؟**

وتتدفق عبارات المرأة المكلومة كأنها تهذى ، وزوجها صامت يسمع ولا يقول لها شيئا .. حتى تستدرك قائلة :

ــ كلا ، بل كل ما هنالك هو أنها أشد منى ثقة بنفسها ، تستطيع أن تخفى جزعها ، وأن تكتم ألمها . قل لى ماذا أعجبك فيها ؟ فانى لأستطيع أن أصبح جديرة بك يا فرانز لو أنك رغبت فى معاونتى على ذلك قليلا . سأقرأ كتبك . اننى منذ وقت طويل أريد أن أقرأها . ولسوف تشرح لى الصعب منها .. انى .. انى سأحاول أن أشبهها !

فيستنكر زوجها منها أنها تمثل أمامه دور المرأة المهجورة ، مع انها هى التى انصرفت عن حبه منذ أعوام ، وجهرت له بذلك ، وتمادت فى حماقتها فخانت عهده وارتمت فى أحضان غيره من الرجال ، وحالفت خصومه ، وأرغمته على الحد من حريته واستقلاله . أما هى فتعتذر عما سبق من التماسها لرجل سواه بحاجتها اذ ذاك الى من يجعلها تحس بالحياة ، بينما كانت شواغله هو تستأثر به من دونها .. وتعتذر له عن معارضتها

لآرائه بالخوف الذى كان يدفعها الى استرضاء ذوى السطوة والبأس الشديد فى الدولة· ثم تخبره بأنهـا قد مهدت الأمور لانضمامه رسميا الى الحزب ، وما عليه الا أن يعود الى الوطن ، فيجيبها فى حزم :

ـ عبثا تحاولين · لقد رحلت لأنه لا يوجد فى الشرق مكان لى ولا للآراء التى أدافع عنها وأريد الدفاع عنها ·

ـ آراؤك ! آه ·· أتعـرف أنت ما هى آراؤك ؟ ومن أين استقيتها ؟ هل هى خير من آراء الآخرين ؟ انى أقر أن يترك المرء كلّ شىء فى سبيل مبادئه اذا لم يكن صاحب أسرة وصاحب بيت وصاحب مال ،اذا كان مجرد طالب أو عامل ، اذا لم يكن له فى دنياه شىء ! أما أنت !·· انى على كل حال عالمة بآرائك ، فآراؤك هى تلك المرأة !

وينفجر سخط المرأة التى لاتفكر الا بعاطفتها·ولو أن زوجها كان راحلا بمفرده لهان عليهـا الأمر · فهى لا تستطيع أن تحتمل وصاله لامرأة سواها ، وترفض أن تعـود أدراجها خشية أن يثأر منه قادة الحزب فى شخصها ! وهنا يعـرض عليها فرانز أن تصحبه الى الغرب ، ويعرض عليها ذلك اصالة عن نفسه ونيابة عن كاترين التى ستصبح زوجته · فتثـور ليز فى وجهه ، وتلجأ الى استخدام سلاحها الأخير ، سلاح التهديد والوعيد ، وتنبئه بأنها أبلغت أمره فى خطاب عاجل أرسلته الى صديق لها من رجال الحزب ، وانه سيصبح تحت طائلة بوليس الدولة منذ أن يتسلم الرجل هذه الرسالة فى بريد الصباح · اذن ليس له من مفـر ما دامت الحـدود الغربية مغلقة دون الجميع ، ليس أمامه الا سواد الليل يتخذ فيه قراره بالعودة، اذاكان يفضل العودة وزيرا على العودة معتقلا!

اذ ذاك يتخلى الزوج عن زوجته·· ينبذها ويطردها عنه ، فتتوارى ·· وينادى كاترين فيخبرها بما حدث ، ويفضى اليها بأنه تأكد من أن كلوسوفسكى لديه تعليمات خاصة بشـأن

مرورهما بمجرد أن يبرز له بطاقة معينة ٠ وتبدو ليـــديا ، فيسألها فى الحال أن تدعو رب البيت ٠

ويحضر كلوسوفسكى ٠ ويطلعه فرانز على البطاقة ، فيخرج وريقة من جيبه ويقرأها ثم يقول :

– ستكون التعليمات الخاصة بكما بين يدى الضابط الذى يتسلم حراسة مركز الحدود الغربية فى الساعة الحـادية عشرة ٠ لا جمرك ولا معسكر ، بل الفنادق فى انتظاركما ٠ انى واثق من أنكما لا تفضلان الاستمتاع بضيافتى أطول مما ينبغى ، موعدى معكما هنا فى الساعة الحادية عشرة الا الربع لأخرج بكما الى الحدود ٠ واحرصا على ألا يعلم بالامر أحد من النزلاء !

ويخرجون من القاعة بينما تدخل الكونتة ، وقد فرغت من مباراة الشطرنج ، تسأل ليديا أن تسقيها كأسا من شراب قوى ٠ وتشرب ، وهى تسدى الى الفتاة الرقيقة نصيحة امرأة مجربة : **ان « كراوس » فتى وسيم لا ينبغى أن تدعه «ليديا» يفلت من يديها ٠ عليها أن تسعى اليه ، وأن تبدأه بالتحية ، وأن تخاطبه بعبارات الاطراء ٠ فان الحياء والتحشم مما يضيع أثمن الفرص ٠ وليس أفضل من أسلوب امبراطورة الروسيا الشهيرة « كاترين » ، تلك التى كانت كلما أعجبها فارس جميل استوقفته وقالت له « ترجل عن حصانك وتعال معى » ٠٠٠ ولكن ليديا تشك فى أن كراوس هو فتى أحلامها الذى تنتظره، لان ذلك الذى تنتظره سوف يقف ويتـــرجل عن حصانه بجوارها دون أن تومىء اليه ، بل ولن يكون فتاها من أصحاب الجياد ، ولسوف يقف أمامها من تلقاء نفسه !** على أن الكونتة تلقى اليها حكمة الواقع الخبيث :

– ليس الفتى الذى ننتظره هو الذى يتوقف ويسعى الينا، وانما هو الذى يمر بنا دون أن نرمقه بنظرة ٠ وأما ذلك الذى يتوقف فهو دائما فتى آخر غير الذى ننتظره ٠٠٠

وتلمح كراوس مقبلا ، فتترك « ليديا » وحدها معه كي تطبق ما نصحتها به ! ٠٠ لكن كراوس يجيل بصره فى القاعة ثم يعبرها خارجا ، فتدفع ليديا نفسها دفعا لتخاطبه ، سائلة اياه هل يبحث عن شخص معين ؟ فيجيبها بالايجاب ٠٠ لكن هذا الشخص الذى يلتمسه ليس شخصها كما كانت تتمنى ، بل هو السيد كلوسوفسكى ، فتتطوع لخدمته فى البحث عن صاحب البيت ، دون أن تتحرك من مكانها ، فانها فى الواقع راغبة فى البقاء حيث هى ـ أى حيث هو ! ٠٠ ويرى الفتى منها ذلك فيملأ فراغ الوقت بشكرها على هدايته السبيل فى الظلام حين ضل فى بداية الليلة ٠ ثم يسود الصمت، ويهم كراوس بالخروج ، فتسأله ليديا ما اسمه ، لانها تحب أن تعلم من يكون ٠٠

ـ وماذا عسى المرء أن يعلم عن شخص اذا عرف اسمه ؟

ـ منذ وقت قصير، فى الظلام ، كنت أقودك ممسكة بيدك ٠ وماذا عسى المرء أن يعلم عن شخص اذا أمسك بيده ؟ ومع ذلك ، فالمرء يجد الرضا أحيانا اذا أمسك يدا فى يده ٠ وقد يكون الاسم كاليد ، يد هذا الشخص فى غيابه ٠٠

رقة وطيبة وثقة غريرة ، يقابلها الجفاف والحذر والمكر ! هذه الفتاة تريد أن تفضى بذات نفسها ، فيستغل الفتى اقبالها عليه ، ويقف منها فى لحظة على سر انفتاح الحدود الغربية لفرانز وكاترين بعد ربع ساعة ! واذ ذاك ينصرف عنها ويسرع الى الاجتماع برفيقه ليتداولا ويحسما الموقف

وبعد نقاش عسير يقرر الرفيقان أن يمضى كراوس لاخطار البوليس الشرقى ، على حين يمكث هاجن فى بيت الليل ليستبقى الوزير ريثما يحضر من يعتقله !

ويظهر كلوسوفسكى ، فيطرى هاجن أمانته ونزاهته ووفاءه بالوعد ، ملمحا الى الموعد الوشيك الذى ضربه لرجل وامرأة

من النزلاء سوف يصحبهما بعددقائق ليجتازا الحدود الغربية . ثم يدعوه الى المقامرة فى مباراة قصيرة لا تستغرق ثلاثدقائق، مغريا اياه بكسب مبلغ ضخم من المال . فيجيب كلوسوفسكى دعوته ويتبادل الرجلان القاء « الزهر » والقاء الكلام . ويدور حوارهما موازيا للعبهما ، سريعا مقتضبا محكما . كل رمية تشير اشارة مباشرة الى درجة من أطوار الربح والخسارة اذا نظرنا الى هذين الغريمين ، وترمز من ناحيـــة أخرى الى موقف من المواقف بين النجاة والهلاك اذا فكرنا فى مصير العاشقين الهاربين ! **ويضرب هاجن على جميع الاوتار ، فيوحى الى كلوسوفسكى فى أثناء اللعب بأنه انما يؤدى خيرا ومعروفا ويحمى رابطة الزواج المقدسة لو هومنع ذلك الزوج من الفرار، ثم يمنحه فى النهاية مال الرهان منحا رغم نتيجة المباراة . ويفهم كلوسوفسكى ان ذلك المبلغ ـ من يد غريم جواد أتقن الغش فى القمار ـ ثمن لتمهله المنشود مدة عشرين دقيقة ، ويخرج صاحب الدار راضيا ليتوارى طوال الدقائق العشرين التالية ، بعد أن يرسل ليز الى هاجن وفقا لطلبه .**

وتسعد ليز بهذا اللقاء المفاجىء ، وتظن أن هاجن لم يأت الى ذلك المكان الا لانقاذها ، وأنه يخلص لها الحب . ويوحى اليها هاجن ، وهو يحصى الدقائق أمامها ، بأن البوليس يتعقبه هو أيضا ، ولكن النجاة مكتوبة لهما معا اذا هى أفلحت فى تعطيل فرانز وكاترين وسبقتهما فى صحبته الى الحـدود الغربية لاجتيازها بدلا منهما ، فان رجل الحدود لا يعلم من يكون العابران وانما عليـــه أن يفسح الطريق لرجل وامرأة معا . ويلقنها الدور الذى يجب أن تمثله في الحال : فعنـد نزول فرانز وكاترين ـ أى بعد نصف دقيقة ـ تتعرض لهمـا شاكية، باكية، لاعنة ، متشبثة بزوجها ، فيتدخل اذ ذاك هاجن ليصلح ما بينهما وينصح الرجل باعطاء مهلة لزوجته ، وعلى التو يلحق بها ويرحلان ...

- ٣ -

◆ **وهكذا** يدور المشهد التالى . وتتقن ليز التذلل والتضرع والانتحاب الى درجة تشككنا فى كذبها وتثير عطف غريمتها كاترين عليها . ثم ينفرد هاجن بفرانز ، بينما تخرج ليز من أحد الابواب ، وتخرج كاترين من باب آخر باحثة عن كلوسوفسكى .

ويدير الرجلان بينهما حوارا زاخرا بالمعانى ، تتلاطم فيه الفكرة بالفكرة ، ويصدم فيه العقل الشعور ، ونسمع خلاله صوت الضمير الانسانى واضحا رغم هذا الاضطراب وهذا التنازع المحتدم . وقد يعيب الناقد على المؤلف اطالته لهذا المشهد ، فقد بلغت الرواية لحظاتها الحاسمة ، وهى لحظات قصيرة عصيبة متوترة لا تحتمل الابطاء ولا تحتمل الجدل فى القضايا الاجتماعية والاخلاقية والفلسفية . ولكن المؤلف يريد فى هذه اللحظات الهامة الخطيرة أن يصب خلاصة موضوعه وأن يسجل رأيه ، أو بالاحرى آراء هذين الرجلين المتعارضين – وكل منهما يمثل احدى الكتلتين اللتين ينقسم اليهما عالمنا اليوم – وأما من ناحية الصياغة المسرحية فلا غبار على الموقف ، ومن حق المؤلف أن يطنب فيه ، لاننا نعلم أن هاجن يرمى الى تضييع الوقت وتفويت الفرصة على فرانز !

يدافع هاجن عن ليز ، ويبين لفرانز أن من واجب الزوج ألا يتخلى عن زوجته .. فيرتاب الاخير فى أمر العلاقة القائمة بين امرأته وبين هذا الرجل . ولكن هاجن ينفى الريبة :

– كلا ! لم تكن خليلتى ، وان كنت قد قابلتها مرارا . ذلك أنك كنت منصرفا عنها ، وهيهات أن تتحمل المرأة الوحيدة عبء وجودها . لقد جذبنى نحوها ، ما وجدت فيها من الحاجة الى محضرى . ان النساء لا يحببن الرجال بقدر ما يحببن الشعور بأنهن شىء مذكور لدى الرجال . والرجال لا يحبون النساء بقدر ما يحبون الشعور بالسيطرة على النساء ... متى تم زواجك بها ؟

– منذ عشر سنين .

– اذا عاش المرء عشر سنين بجانب امرأة ، كان هو المسئون عما تؤول اليه !

– لا ياسيد هاجن ! كل مسئول عن نفسه ، كل حبيس جلده فى السعد وفى البؤس وفى الموت ، بل وفى الحب أيضا ، عبثا يحاولان أن يتضاما . ماذا عسانى أفعل من أجل ليز ؟

– أن تظل معها ، أن تقف بجانبها فى المحنة . لقد وشت بك زوجتك . وأنت تلقى عليها وزر فعلتها كما يعلق امرؤ فى رقبة الضحية حجرا ثقيلا ويقذف بها فى البحر . هل الانسان بأكمله مجرد فعل صدر منه ؟ ألا تجد فى ليز أيضا تلك المرأة التى سكنت اليها ، وتأبطت ذراعك فى نزهاتك ، ومددت اليها يدك أثناء النزهة فى الريف لتعينها على عبور مجرى جارف ؟ ألا تجد فى ليز تلك المرأة التى حلمت بك فى غيابك عنها وسعدت بك بعض الليالى فى وجودك معها ، تلك المرأة التى كان النوم يحيل وجهها بجوارك الى وجه طفلة بريئة . ان هذه الطفلة هى التى تريد أنت القاءها فى البحر !

– بأى حق يؤاخذنى رجل من رجال الثورة على عدم اكتراثى بامرأة ضمن ملايين من النساء ؟ حدثنى عما يعنيك . حدثنى عن الشعوب ، مادمتم لا تتكلمون الا باسم الشعوب . حدثنى عن هذا العالم الجديد الذى تشيدونه بالعنف والامل ودم الضحايا ، ولا تحدثنى عن ليـــز .. وما قيمة امرأة لديكم ؟ ما قيمة ألف بل مائة ألف من البشر ؟ هل تنكر معسكرات الاشغال الشاقة ، تزجون فيها بمن تسمونهم المعارضين والخونة والفاترين ؟ هل تنكر نفى القوم من أرضهم حتى أقفرت أقاليم كاملة ؟ هل تنكر الارهاب الذى يدفع آلاف من الرجال والنساء الى عبور الحدود ، رغم تهـــديد أبراج المراقبة والانوار الكشافة والمدافع الرشاشة وكلاب الصيد التى دربتموها على قنص الانسان ؟ انكم تدافعون عن الانسانية ضد الناس . واذا كان مبدؤك قتل الخصوم والمشتبه فيهم ، أيا كان عددهم ، والى أجل غير مسمى ، فكيف تسألنى أن أدرأ عن واحدة من البشر شيئا من الالم ؟ ألا ترى يا سيد هاجن انك كمن يدعو الها ولا يؤمن به ؟

– أخطأت فهمنا يا سيد « وزر » . اننا نقتل لاننا متأكدون من أننا على حق . ولسنا مؤمنين ، فالمؤمن لا يستطيع أن يفعل شيئا أكثر من أنه يؤمن . لقد كشفنـــا المعنى الذى يستطيع الانســــان أن يصوغ الدنيا فيه ، واننا لمتأكدون من أننا كشفناه . لسنا نؤمن ايمانا ، بل نثبت اثباتا . وأود أن أعلم باسم أية حقيقة قاطعة أنت تضحى بليز . انك تضحى بها فى سبيل سعادتك الشخصية الصغيرة ، أى فى سبيل لا شىء ... وأنت شخصيا لم تكن فى خطر مباشر ، فلماذا ترحل ؟

– لانى أصبحت أرى التعاون بين حزبكم وبين الاحزاب الحرة مستحيلا .. لان غايتكم خلاص الناس ووسيلتكم هوانهم !

– ان الدبابات أثناء الحرب تسحق زهر الحقول الغض ، وانها لخسارة . وخسارة كذلك الابدان البشرية . غير أننا لانستطيع فى سبيلها شيئا . فالثورة ينبغى أن نصنعها من أجل الناس ، وفى الوقت نفسه بالنـــاس وضد الناس . قتل وتقتيل . علينا ازدراء الناس اذا أردنا أن نحبهم حبا

ينفعهم . وعلينا أن نهدم ، فلن نهدم العبودية ما لم نهدم سادة العبيد والعبيد الذين يحاربون فى صف السادة .

– ومع ذلك فقد انهدمت العبودية منذ نحو عشرين قرنا ، وهدمها حب لم يحمل سلاحا . ذاك لم يقتل سادة العبيد ، بل قتل العبودية فى ضمير السادة !

– مادامت احدى صور العبودية قائمة ، فذلك لان الحب الذى تتحدث عنه لم يكن كافيا .

– ولكنه كان حبا . أتريدون الهدم فى سبيل البناء ؟ أولئك ملوك أشور الذين شيدوا الصروح والقلاع كانوا يبنون جدرانا يسدون بها أبواب الصوامع التى يلقون فى غياهبها سجناءهم أحياء . وكذلك تفعلون بضحاياكم فيما تنشئون من المصانع والمدن الجديدة . انى لا أريد سدودكم ، لا أريد مصانعكم ، لا أريد مدنكم حيث آلاف من العيون مفتوحة الى الابد تتطلع الى الاحياء من خلال جدران كثيفة ..

– وعيون ليز ، ياسيد ورنر ؟

– عيون ليز ؟

– لسوف تلاحقك صورتها . سوف ترى جثة واقفة ، مفتوحة العينين ، داخل جدران بيتك الوثير فى فرنسا أو أمريكا . ولعل نظرات تلك الجثة لا تضايقك ، ولعلها لاتضايق صديقتك كاترين ..

– انك محام بارع يا سيد هاجن !

– لكل شىء ثمنه . لا سعادة ولا حرية بلا ضحايا . فهلا أنصفتنا ، نحن رجال الحزب الذين لانتقاضى الثمن المرقوم ؟ اننا لانعمل من أجل أنفسنا . اننا نقتل ، نعم ، نقتل لان لنا عالما نريد أن نحييه ، لاننا نريد أن نعطى لتاريخ الناس معنى مقبولا . أما أنت ، فلحسابك الخاص ، ولمنفعتك الفردية ، ودون كثير من تأنيب الضمير – فيما يبدو – ستقوم بعد بضع دقائق بنحر ذبيحتك البشرية . الى اللقاء يا وزير الدولة ، أتمنى لك رحلة طيبة !

– يا سيد هاجن ، أظن أننى سأفعل ما تسألنى .

– ستفعل ؟

– أظن أننى سأفعل ، وقد أجانب بذلك الصواب . هناك صوت آخر غير هذا الذى ندعوه صوت العقل ، صوت آخر نسمعه فى أعماقنا ، هو صوت سوانا ، صوت الاخرين ، نجاة غيرنا ونجاتنا ، انتصار غيرنا وربما هزيمتنا . وغريب أن تكون أنت الذى أسمعتنى فى نفسي هذا الصوت ، أنت الذى لا تسمع مثله .

وهنا تدق الساعة دقاتها الاحدى عشر ، وكأنهـا تؤذن لاروع من حلول ساعة جديدة ، كأنها تعلن حلول المصير الابدى !

– هل وزنت الامور يا سيد ورنر ؟

– لو أنى وزنت الامور لكنت الآن على غير هذه الارض . لا أريد أن أزن شيئا ، أنت خاطبتنى بالعبارات التى من شأنها أن تجعلنى أتألم لألم ليز ، وها أنذا مشلول لا أنطلق .

– ما زال أمامك الخيار ياسيد ورنر .

ثم ينادى هاجن «كلوسوفسكى» ليصحب ورنر ، فيدخل تتبعه كاترين . ويهم كلوسوفسكى باصطحاب فرانز وكاترين الى الحدود الغربية تنفيـذا للتعليمات الاولى ، فيدهشه أن الرجل لا يريد أن يتخلى عن زوجته . وتقترح كاترين – وقد أنبأها كلوسوفسكى أن رسالة قد وردت أخيـرا من مركز المراقبة الغربى تؤذن بانفتاح الحدود للجميع فى الساعة الثالثة صباحا – أن يظلا الساعات الباقية لتتمكن ليز من العبور معهمـا . **ترى هل انتصر الاخلاص فى قلب الرفيق هاجن ؟ فها هو ذا – وهو يعلم أن فى الانتظار هلاك هذين العـاشقين – يلح عليهما بمغادرة المـكان فورا . لعله كذلك يكون قد أرضى ضميره من ناحية الحزب اذ أدى واجبه ، ومن ناحية ليز اذ ضمها الى زوجهـا ، ومن ناحية أخوين له فى الانسانية اذ يحثهما على النجاة !**

ولا تكاد كاترين تفيق من دهشتها لتحول هاجن عن موقفه حتى نسمع جلبة غريبة فى الخارج ، ويدخل رجال البوليس الشرقى يتبعهم كراوس ، ويستولى الرعب على جميع من فى البيت ، الا أننا نستطيع أن نميز صوت ليز تستغيث بهاجن ، وصوت فرانز يستغفر كاترين !

– ٤ –

◆ **يأمر** كراوس باعتقال الجميع ، دون استثناء كلوسوفسكى وليـديا المتهمين بتدبير فرار القوم . ويختلى برفيقـه هاجن ، فيلاحظ هاجن أن صاحبه ممتقع الوجه جريح ، أصابه رصاص حراس الحدود . ويستنكر القرار العاجل الذى اتخذه رجال الدولة ، والذى آب الرفيـق كراوس ليضطلع بتنفيذه ، القرار القاضى باعدام جميع أهل البيت رميا بالرصاص ! نعم ، تلك أضمن وسيلة لكتمان سر التخلص من « ورنر » ، ولكن ما ذنب أولئك الذين ألقى بهم سوء الطالع الى بيت كلوسوفسكى فى هذه الليلة ؟

هب أنهم متهمون بمحاولة الفرار ، وهب أن كلوسوفسكي يعينهم على ذلك ، فماذا اقترفت ليديا حتى تستحق الموت في زهرة صباها ؟ كل جريمتها أنها أحبتك ، ووثقت بك ، وباحت لك بسر كان ينبغي أن تكتمه !

ـ ولكن ما عسى ذلك أن يغير من الامر ؟ ان ليديا لفتاة بريئة ، وانها لتحبني . ولو لم تكن تحبني ، ترى هل كنت أستطيع أن أقتلها وأنا أكثر اطمئنانا ؟ نعم ، هناك ليديا .. ولكن كم من فتيات مثلها لقين حتفهن لانهن وقفن ضدنا ، أو لان سوء الطالع أوقفهن في ميدان الوغى حيث لا تميز القنابل من تصيب ومن تدع ، فكان أن قتلناهن ، لان أمامنا ثلاثة أرباع الارض نريد أن نخلصها من العبودية ، لان في ثلاثة أرباع الارض عشرات الملايين من أمثال «ليديا» يعدن كل يوم من المصنع منهكات القوى ليستقبلن أمسية مملقة من الامل ، ويتركن أطفالهن للموت لان امرءا لم يعلمهن كيف يعتنين بهم ، ويرقدن على الطوى في طين آسيا الاصفر ، أو يقدمن أنفسهن على قارعة الطريق في أوروبا لشهوة السادة الذين جعلوا منهن بغايا ذليلات . انني ابن بغي من بلدة « ستيتين » يا هاجن !

ـ ومبادؤنا ياكراوس ؟ ومعنى جهادنا وواجبنا ، وجميع ما ينبغي أن نخلصه ، وجميع ما ينبغي أن نثأر له ، انى أهيب بهذا كله كما تهيب به أنت .. مثل امرأة وحيدة في البيت تنادي زوجها اذ تسمع اللصوص ، ولكن زوجها لا يأتي !

ـ اذا بقيت ليديا على قيد الحياة تكلمت ، واذا تكلمت ...؟

ـ آه كلا ! دع هذا ! دع المنطق ! منطقنا الصلب الذي يخترق كالرصاص صدرا انسانيا . أتظن أنني لا أرى تلك الرابطة المنطقية ؟ انها لرابطة مقررة لا سبيل الى انكارها ودحضها . ومع ذلك فهي رابطة لا وجود لها ولا معنى لها .. أنظر ! لقد انضممت الى الحزب لانني ضقت بمشهد الانسانية منذ بدء تاريخها تصارع بؤسها المارد المجنون المعصوب العينين وهو يهوى يمينا وشمالا بفأس في يده ! وها نحن قد صرنا جميعا ذلك المجنون نفسه ، نضرب على غير هدى ، وتحت الفأس توجد ليديا . ماذا تجدى ثورتنا ، وماذا تسدى من نفع اذا أصبح منطقنا باطلا ، وتجسم في صورة ذلك الوجه الذي بلا عينين ، وجه الاعمى المتخبط الجامح الغضب ، وجه القدر ؟

ـ اذا كان القتال دائرا ، وكانت هذه الدار مرصدا يصوب منه العدو النار على خطوطنا ، أكنت تتردد في تدميرها ؟ هل كانت ليديا اذ ذاك تخطر لك على بال ؟ انني أرثى لليديا كما ترثى أنت لها ..

ـ ان ليديا لا تثير رثائي بقدر ما تثير خوفي .. ترى كيف ستلقى اليها بالنبأ الفاجع ؟

ويقتاد هاجن رفيقه من كتفيه ويديره نحو الجدار ، فى المكان الذى اتخذته ليديا فى الفصل السابق . ويتخيل أن ليديا واقفة وجها لوجه أمام فتاها الاشقر ، تنظر اليه فى مقت ، وأن هذا الفتى ينظر اليهـا ثم يقول لها انه آسف لانه سيقتلها بعد هنيهة قصيرة !.. فيستنكر كراوس من رفيقـه هاجن أن يمازحه هذا المزاح البشع . وفى تلك اللحظة تهبط ليديا الدرج وتقف وراءهما صامتة !

هاجن : انك لا تريد أن تقول لها انك ستقتلها . لمـاذا لا تريد أن تقول لها ذلك ؟

فترددا ليديا :

ـ لمـاذا لا تريد أن تقول لها ذلك ؟

فيلتفت كراوس مجفلا مضطربا ويقول للفتاة الهادئة أمامه :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟ من أذن لك بالمجىء الى هنا ؟

فترتاع ليديا وتتلعثم :

ـ قالوا لى انك صاحب الامر .. لم أصدق .. كنت أريد .. كنت أريد.

وتلوذ بالفرار من حيث أقبلت !

- ٥ -

◆ **ولكن** المؤلف يتبعها الى غرفتها فى المشهد التالى ، حيث نراها ونسمع حوارها مع الكونتة . ويا له من حوار مؤثر : أحقا هذه هى آخر ليلة فى حياتها ؟ يخيل اليها أنها تحلم ، وأنها ترى فى حلمها شخصا يدنو منها ليقتلها دون أن تستطيع الهرب ولا الدفاع عن نفسها ، لانها أسيرة الكرى !.. غير أنها تكفر بحلمها ، وتنكر أن يكون له مكان فى الواقع . ثـم يخطر لها أنها دميمة ، وأنها لو كانت جميلة لاسـتطاعت أن تثنى الفتى عن قتلها . وذلك خاطر لم يطرأ على بالها قبل تلك الليلة !

ـ ينبغى أن أعرف : لو قد أتيح لى أن أعيش ، هل كان يهتم بى رجل من الرجال ؟ لاتكذبى أيتها الكونتة ! ما أنا الا فتاة دميمة لم يكن لها فى حياتها أى أمل . فتاة دميمة ما كان ليحدث لها أى شىء ،تموت ميتة لا معنى لها بعد حياة قصيرة لا معنى لهـا ... أما أنت فقد كنت جميلة أيتها الكونتة ،

وأحبك الرجال .. وستكتنفك جميـــع ذكرياتك فى لحظتك الاخيرة ، ولا تموتين وحيدة مثلى . أنا ليس لى ذكريات ، ولم يقع لى شيء .. لابد أن أعرف هل كانت حياتى ستتصل على هذا المنوال .. ؟

ـ انك لجميلة يا ليديا .. وانك لصبية ...

وتأخذ المرأة رأس الفتاة الشقراء بين يديها فتزيح شعرها الى الوراء قائلة لها :

ـ أظهرى وجهك ولا تختبئى وراء شعرك . انك كالحيوانات الصغيرة النافرة التى تتسلل بحذاء الظلال . لكى تكونى جميلة ينبغى أن تؤمنى بأنك جميلة ، ينبغى أن تتقـدمى الى النور . واننى لخليقة بأن أصنع منك فى عشر دقائق فتاة من أولئـك اللواتى كن يخلبن رجال السفارات فى الحفـلة الراقصة التى كانت تقيمها الرياسة فى فارسوفيا !

ـ جمليننى أيتهـــا الكونتة ! هلمى ! أسرعى ! فليس لدينا عشر دقائق كاملة . اننى أريد أن أكون جميلة . أريد أن أكون جميلة للمرة الاولى . انك لا تفهميننى . أنا أيضا ، لساعة واحدة خلت ، لم أكن أفهم من الحياة شيئا . كنت أنتظر ، وكنت خائفة . كنت أتهيب الحياة . أما الآن فانى لا أرهب شيئا منها . انها لصافية شفافة حتى قاعها ..

وتلح الفتاة الرقيقة على المرأة المجربة فى أن تجملهـا . فتقترب الكونتة منها ، وتصفف لها شعرها ، وتفتح ثوبها فوق نحرها ليظهر جيدها ، وتلون وجنتيها بمسحة من مسحوقها الاحمر ، ثم تمنحها عقدها اللؤلؤى الثمين . وتمسك ليديا مرآة صغيرة فى يدها ، وتنظر الى صورتها مليا ثم تقول :

ـ انك جميلة ياليديا !

وتنفخ على الفور فى مرآتها فتغشى أنفاسها الندية صقال الزجاج اللامع ، وتقول لنفسها :

ـ نفخة واحدة تمحوك . ليس بين الحياة والموت الا هذه النفخة !

ثم تجلو مرآتها وتطيل النظر فيها وتقول :

ـ وداعا أيتها الجميلة ليديا ..

وها هو ذا الشرطى فى معطفه الفضفاض ومشيته النظامية الثقيلة يدخل ويأمرهما بالخروج دون أن ينظر اليهما ، فقد حانت الساعة ! وترى ليديا فى هذا الرجل الجامد ـ هذا الانسان الذى حولته النظم الاجتماعية الى آلة صماء ، عديمة الشخصية ، تتحرك وتنفذ دون أن تشعر أو تفكر ـ ترى فيه رجلها الاول منذ أن تجملت ، وتريد أن تلمس أثر جمالها فى عينيه . فتدنو منه وتسأله فى سذاجة أن يسمح لها بأن تنظر فى مقلتيه . فيتحشم الشرطى قائلا :

ـ أيتها الرفيقة !

فتجيبه :

ـ اننى لست رفيقة . اننى ليديا . هذا الجسم الذى ألمسه من فوق هذا الثوب ، انه ليديا ، انه أنا ... أنا ، يالها من كلمة عجيبة !

وتظن الكونتة أن الفتاة فقدت صوابها ، فتحنو عليها .. ولكن ليديا تستأنف حديثها هذا الساذج الغرير الحكيم معا ، باسطة يدها للشرطى :

ـ هذه اليد ، انها ليديا . أنظر، اننى أثنى وأبسط اصبعا، واصبعا آخر واصبعا ثالثا . وأفتح يدى ، وأضمها. هذه ليديا. انه لشىء عجيب أن أكون « أنا » ، شىء عجيب أن أكون حية !

ويختلط فى حديثها دلال الصبا ، والغزل الذى تتوق اليه ، والفزع من الموت الذى ينتظرها ! تأنس فى هذا الشرطى الذى سيطلق عليها الرصاص عما قليل رجلها الاول والاخير ، عاشقها ، فرصتها الوحيدة لان تعرف الحياة والحب . تعرض عليه جيدها وقد أزاحت عنه شعرها سائلة اياه أن يصوب اليه



رصاصة ، دون أن ينذرها بشىء قبل أن يفعل • تعـرض عليه جيدها فى استسلام الذبيحة البـريئة ، وفى اغراء المرأة الفاتنة ، وتخاطبه بلغة الغرام :

ـ يا حبيبى ، هل أنا جميلة ؟

فيجيب الشرطى فى لهجتـه الصارمة :

ـ انك جميلة

ـ اننى جميلة ؟ فهل تحبنى ؟ هل تشتهينى ؟

ـ نعم !

فتضحك ثم تقول :

ـ هل تأخذنى بين ذراعيك اذا تجردت من ثيابى وأصبحت عارية ؟

ـ نعم

ـ قبلنى !

فيتردد الشرطى ، ثم يقبلها • وتغمض الفتاة عينيها لتتذوق قبلته ، أو لتتغيب فى حلمها المفقود ، فها هى ذى أول قبلة على وجنتها من شفتى رجل ، وان كان هذا الرجل هو الشرطى رقم ٢١٨ ، البالغ من العمر ثمانية وأربعين عاما • وتصمت قليلا ثم تقول له :

ـ انك ستمضى الى أيام من الحياة وسنين من الحياة • هلا اصطحبتنى معك ؟ فانى أريد أن أعيش معك هذه الحياة التى تشبه الابد

ـ لا أستطيع ٠٠

ـ لا تخش شيئا ٠ انى لا أريدك على أن تعصى أوامرك ٠ خذ هذه المرآة الصغيرة ٠ اننى أعطيك ليديا ٠ فقد حبست فيها صورة ليديا ٠ هذا الوميض الذى تمحوه نفخة ، ويقضى عليه وميض بندقيتك ٠ هل تحفظها ؟ هل تحفظ الوجه الذى جملته ؟

فيجيب الشرطى وقد أخذه التأثر :

ـ الى يوم مماتى

ـ الى يوم مماتك ؟ أنت أيضا سيجىء يوم تموت فيه ؟ ولكنه يوم بعيد ، ودونك قبله ملايين الايام ٠ انك رجل خالد ٠٠ ينبغى أن نمضى الآن ٠

ـ ينبغى ٠٠

وتتجه ليديا والكونتة نحو البـــاب ، بينما يظل الشرطى واقفا فى مكانه كالمشدوه ينتظر أن يفيق، فتنبهه ليديا فى رفق:

ـ هيا بنا أيها الشرطى ٠ تشجع !

وننتقل الى غرفة أخرى من بيت الليل ، فنجد كاترين وفرانز واقفين متعانقين ، فنيا فى عناقهما ، وغابا عن كل ما حولهما فى نظرة واحدة طويلة متصلة ٠ انهما لا يسمعان صوت ليز تخاطب زوجها ملهوفة مفجوعة مستيئسة ، تدعوه اليها ، وتقسم له انها لم تطلب الشرطة ، وانما سعت الى الفرار معه ، ولا أدل على ذلك من أنهم قرروا اعدامها هى أيضـا ! **ويتقارب فرانز وكاترين ، ويغمضان أعينهما كأنهما ينتظران شيئا ٠ ولا يلبث فرانز حتى يترنح فتسنده كاتـــرين دون أن تفتح عينيها ، كأنها قد أحست بذلك الخور فى جسمها هى ٠ ثم يدخل كراوس وهاجن والضابط ٠ وتجهد كاترين لحظـــة فى الاحتفاظ بفرانز متوكئا عليها ، ثم يهويان معا ، متعانقين دائما ، جامدين ٠ لقد تجرعا من السم ما أخرجهما من الدنيا الضيقة !** غير أن ليز ترتمى على الجثتين تحاول أن تفصلهما ، وتستسلم

لليأس والقنوط اذ ترى نفسها وحيدة منبوذة • فهذا زوجها يموت على مشهد منها دون أن يشاطرها موته ! وتتعلل المرأة المشردة بالسراب ، تلوذ بهاجن ، وتناشده أن يمسك بها وألا يتخلى عنها ، فانها فى حاجة الى شخص يقف بجوارها عند اعدامها ، وما زال وهمها يصور لها أن هاجن معتقل مثلها ينتظره نفس المصير • تلتصق اذن بهاجن ، ويحاول الضابط أن ينتزعها ، فتصيح صيحة رهيبة : « لا ! » • واذ يرى هاجن تعلقها به ، يذود عنها الضابط ، ويطيب خاطرها • ولكن الضابط يريد أن يؤدى واجبه ، فهو مسئول عن المعتقلين • وتفهم ليز من نقاش الرجال حولها ان هاجن هو الذى دبر اعتقالها ، ومع ذلك فهى لا تقوى على أن تتمثل نفسها الشريدة مطرودة من هذا الملاذ الاخير • ويصمت هاجن ازاء هذه المرأة التى تتضور من اللهفة والسخط والاسى ، ثم يقول :

ـ كفى • هلموا اعتقلونى !

فتعقد الدهشة ألسنة الجميع ، ولا يقطع الصمت الا شهقات ليز ، ثم يستأنف هاجن حديثه :

ـ اننى متواطىء مع هذه المرأة • وهاأنذا متلبس بالفرار معها من الجمهورية الشعبية الى الخارج !

كراوس : هل جننت يا هاجن ؟

هاجن : لقد كذبت عليك حين قلت لك اننى سأحاول استبقاء ورنر وزوجته هنا حتى تعود • فقد كنت أريد أن أبعدك عنى لاتخلص من رقابتك ولاعبر الحدود مع ليز • ولكنك عدت سريعا • أتسمعيننى ياليز ؟

تمسك ليز عن البكاء وترفع رأسها • انها لا تفيق من مفاجأة الا لتتلقفها مفاجأة أخرى • ولا تكاد من فرط دهشتها أن تصدق ما تسمع ، غير أن هاجن يقترب منها ، ويستغفرها معتذرا عن صمته بما ساوره من خوف منذ لحظة ، ويؤكد لها

أنه معها مهما يحدث . فترتمى على صدره فى فيض من الشوق والامتنان !

كراوس : هاجن ! هلا شرحت لى ماذا تعنى ؟

هاجن : اننى معها . معها وعليكم

ويجذب ليز ويخطو معها صوب الباب المؤدى نحو الغرب ، سائلا الضابط أن يعتقله . فيوجه الضابط الى كراوس نظرة المستفهم ، ولا يملك الرفيق كراوس الا أن يقول لرفيقه هاجن: « لك ما تريد » ، وللآخرين : « انه سيقدم حسابا عن تصرفه هذا أمام محكمة الشعب » . ويخرج الضابط للبحث عن المدعو أدلر واعتقاله ، بينما يقتاد الشرطة ليز الى حيث الآخرون ينتظرون .. وينفرد كراوس بهاجن :

يستوضحه فى عتاب رقيق أولا لماذا يتحول ويرتد فى وسط المعركة ؟ **فيعترف هاجن - وهو من المجاهدين الاشداء - بأن فى نفس الانسان شيئا أقوى من الانسان ، هو هذا الشعور الذى يدفعه الى الغوص فى الماء لانقاذ طفل أخذ فى الغرق ، رغم علمه بأن التيار عنيف قاتل!** لكن كراوس يأخذعليه افراطه فى الشراب ، فلا يجيب الرفيق المرتد الا بصب كأس من الخمر يجرعها بعد أن يرفض صاحبه أن يشرب مثله !

كراوس : انك لم تحترس من تهكمك كما ينبغى . والرجل الذى يسخر من نفسه رجل قد تسرب اليه الشك ... لقد أصبحت غير أهل للثقة ..

هاجن : اذا كنت قد أصبحت غير أهل للثقة ، فلماذا أرسلونى للخارج ؟

- أرسلوك تحت مراقبتى !
- أجل ! بمثابة اختبار لى ؟
- تقريبا ..
- ولمراقبتى اختاروا أحسن أصدقائى ؟
- لبعث الثقة فى نفسك

ـ انهم لم يسيئوا الاختيار ..

ـ لست متأكدا من ذلك

ـ لماذا ؟

ـ أشاروا على بأن أعرضك لبعض المغريات . وأعتقد أننى حاولت على النقيض ابعادك عن العثرات !

ـ ولماذا ؟

ـ لانى أحبك

ـ وأنا أيضا كنت أحبك يا كراوس

ويرفع كأسه ويشرب نخب صداقتهما القديمة ..

ـ هناك شىء أعجز عن فهمه ياهاجن ، ألا وهو أنك استطعت أن تحب هذه المرأة الى درجة الارتداد والهلاك من أجلها !؟

ـ أنا ؟ أحب ليز ؟ انك لمجنون !

ـ فما شروعك فى الفرار معها ؟

ـ فليتحول هذا النبيذ الغربى الممتاز الى سم زعاف اذا كانت هذه الفكرة قد خطرت لى على بال !

ـ اذن فكل شىء ملفق ؟

ـ يقينا ... لقد قمت بواجبى كمجاهد أمين ، فاستخدمت هذه المرأة لاستبقاء ورنر هنا حتى عودتك . أتقنت العمل ولكن حدث ما لم أكن أتوقعه

فهو لم يكن يتوقع مشهد هذا اليأس الخائر الذى لا سند له ، مشهد هذه المرأة المهملة المنبوذة التى اعتقدت لحظة أن شخصا يهتم بها ، ثم وجدت أنه خدعها وأسلمها الى الموت وحيدة ضالة مدحورة ! لعلها لو قد استقبلت مصيرها رابطة الجأش لما لان لها قلبه . انه على كل حال ليس بخائن ، وان ظهر بمظهر الخائن أمام رجال الحزب . وحسبه ما يجد من الرضا منذ آنس من هذه المرأة التعسة أنها ستموت فى كنفه سعيدة ، أسعد مما كانت طوال حياتها. وهل من شأن الشفقة أن تقف عند حد ؟ اذا تألم المرء ، قد يستطيع أن يتدبر ألمه

مع نفسه كما يروق له ، ولكن اذا تألم سوانا ، طفلا كان أم حيوانا ، هل نستطيع أن نحد من عطفنا عليه ؟ ان الشفقة لتملك أمر من تمسه حتى لا تدع له أضيق حيز للتملص من وطئها . وقد يتسرب الوهن أو الجبن لحظة الى النفس المخلصة فى جهادها ، فتدفعه وتتغلب عليه وتستأنف جهادها بعزيمتها المعهودة .. أما الشفقة فلا راد لها من قوة الشكيمة وحزم الارادة . ليس هاجن جبانا ، وانما هو لا يستطيع أن يقاوم نظرة ليز ولا نظرة ليديا فى شقوتهما . اذن لقد أصبح غير صالح للخدمة ! ورفيقه يذكره بأن الطريق أمام الحزب مازال طريقا طويلا شاقا ولابد من أن تضرجه الدماء، لابد من القسوة حتى يشيد النظام الجديد عالما ليس للشفقة فيه مكان ولا نفع ..

هاجن : ليس لآلام الدنيا آخر ياكراوس. لن تنتهى شقوة البشر قبل أن تنتهى كربة آخر الاحياء على ظهر الارض ، وهو يحتضر وحيدا وليس أمامه الا وجه الموت ..

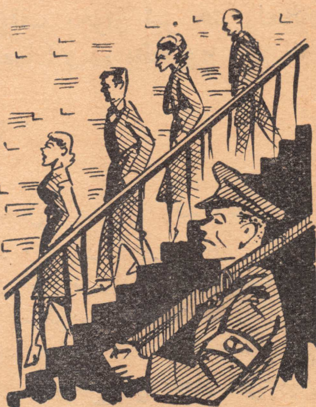
وماذا عسى أن يصنع ذلك الرفيق برفيقه ؟ يعرض عليه أن يشرع فى الهرب وأن ترديه أثناء محاولته الفرار رصاصة يطلقها عليه أحد رجال الحدود ، فهو لن يحاكم محاكمة علنية لو عاد موفور العافية ، لان الحزب يريد أن يكتم عن الملأ تلك القصة . يرفض هاجن هذا العرض فى شمم الانسان الذى يشعر بكرامة نفسه ، وفى اباء المجاهد الباسل الامين الذى يحرص على أن يؤدى حسابا عن أمانته ، وأن يعترف بخطئه اذا كان قد أخطأ ! .. **ويفترقان . عزيز على كراوس أن يودع صديقه ورفيق جهاده وداعا أبديا . ولكن هاجن يحذره من أن يلين ، وأن تتسرب الى نفسه العنيدة أشعة الشفقة فتصهرها وتفسد عليه أمره ! ينظر كل منهما فى عينى صاحبه ، ويكتفى هاجن بأن يضع يده على كتف كراوس ثم ينأى عنه، بينما يظل هذا الاخير فى مكانه جامدا . ويسأله هاجن أن يأذن له**

بمشاهدة اعدام النزلاء ، وبأن يقف بجوار ليز حتى لحظة مصرعها ، كى تعتقد أنه سيموت معها ! ويهم بالخروج ، الا أنه يعـود سائلا :

- كراوس . أتعدم ليديا أيضا ؟

- ليديا أيضا

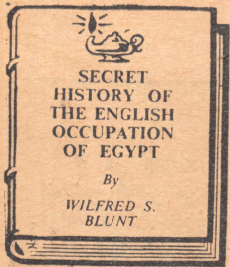
ويبقى كراوس وحده . ثم يدخل الضابط وقد قبض على « أدلر » الذى كان يحاول الفرار ، لا الى الغرب كما توقـع الجميع بل الى الشرق! ذلك أنه قسيس أراد أن يدلف الى الدوله الشرقية ليحمل الى أهلها المضطربين المتألمين - وماأكثر من يساقون هناك الى الموت ! - رسالة حب الله لهم ، وحاجتهم الى أن يشفق بعضهم على بعض . **ونسمع فى حوار الرجلين هذين الصوتين المتناقضين : صوت المذهب المادى الذى يحاول أن يحل مشكلة الانسان بالغاء وجود الله ، وصوت الايمان الوثيق الذى لا يرى فى غير الرحمة والتضحية مخـرجا للانسان من مأساته القـائمة** . وما من شك فى أن المؤلف قد أقحم شخصية هذا القسيس فى الرواية ، حيث لا يشترك فى توجيهها ولا يضطلع بدور فعال ، لمجرد النقاش الفكرى الذى يثيره الموضوع ، والذى لا تكتمل عناصره الا اذا تجادل متحدث باسم المادية مع متحدث باسم الله . وهذا النزاع بين المادة والروح قد أصبح بعد الحرب الاخيرة أهم ما يشغل الكتاب فى بحثهم المتصل للانسانية الضالة المتخبطة عن حل يعصمها من التردى فى هوة الهلاك التى انفغرت دونها . وما أكثر ما يظهر القساوسة على المسرح الفرنسى فى هذه الايام ! ولعل تييرى مونييه متأثر فى هذا الجزء من روايته ببطل من أبطال الكاتب الانجليزى المعاصر « جراهام جرين » رأيناه أخيرا يحيا حياة غريبة على خشبة المسرح وفى أشرطة السينما تحت عنوانى « القوة والمجد » و « قد مات الله « !



ومهما يكن من شىء فان خاتمة «بيت الليل» خاتمة قوية مؤثرة: فهؤلاء هم أهل الدار يهبطون السلم فى حراسة الشرطة ويتجهون الى الباب الخارجى . وتنشد ليديا وهى تسير فى وداعة ، هذه الابيات الرقيقة .. **وكأنها ترثى نفسها أو تعاتب القدر :**

لقد لبست ثوبى المتألق كالشمس
ولبست السماء ثوبها القاتم كالخريف
أهى السماء التى تخطىء أم أنا ؟
هل يأتى ؟ هل يأتى حبيبى ؟

وينهرها الضابط بعنف فتصمت . وتخيم الرهبة على الجميع . ويخرج الواحد تلو الآخر من هذا الباب الذى لن يعود منه الى الابد . أما كراوس فيظل فى مكانه جامدا دائما . ثم تسقط الستارة .



ويلفريد بلنت

التاريخ السّرى للاحتلال الانجليزى لمصر

(ضرب الاسكندرية وبدء الاحتلال)



بداية الاحتلال المشئوم

◆ فى الاعداد الثلاثة السابقة من (كتابى) ، قدمت اليك الجانب الاكبر من هذا الكتاب التاريخى الهام ، الذى فضح فيه مؤلفه « الانجليزى » خفايا السياسة البـريطانية الاستعمارية ومؤامراتها التى مهدت لاحتلال مصر .. كما كشف فيه الستار عن حقيقة الموقف المخزى الذى وقفه الخديوى توفيق من الصراع بين عرابى والانجليز !

وفى هذا العدد أقدم اليك فيما يلى القسم الرابع والاخير من هذا الكتاب ، وهو يروى بالتفصيل أطوار الخطة الماكرة التى دبرها الانجليـز لضرب الاسكندرية ثم احتلال مصر ، بعد الاجهاز على مقاومة جيش عرابى بكافة الاساليب الوضيعة التى أتقنهـا ساسة الانجليـز : من رشـوة ـ وتجسس ـ وشراء للذمم ـ وافساد للضمائر !

الفصل الثالث عشر

« درويش » مبعوث السلطان

◆ **لولا** الوثائق التى تؤيدنى ، لتعذر اقناع أحد بأن حكومة انجليزية تنتمى للاحرار ، ويرأسها رجل عظيم وطيب مثـل جلادستون ، تقدم ـ لأية ضرورة مالية أو سياسية أو شخصية ـ على مثل الخطة التى سأرويهـا فيما بعد ، والتى لا يقرها عرف خلقى أو أدبى !

ففى أوائل يونيو ـ سنة ١٨٨٢ ـ أصبح من المسلم به أن سياسة الارهاب وارسال الاسطول الى مصر قد فشـلت ، اذ اضطر الخديو تحت ضغط الشعب الى أن يعيد عرابى وزيرا للحربية ، وقد اتسعت مسئولياته وأحيـط بالتكريم ..

ورأت وزارة خارجيتنا انها أصبحت فى مأزق محير ، يضطرها الى اختيار أحد أمرين : اما أن « تبتلع » تهديداتها الجوفاء ، أو

أن تنفذها ضد رجل غدا معروفا لدى أوربا كلها كبطل وطنى ! ·· وكانت الخطة التى انتهت اليها من أغرب الخطط التى لجأت اليها حكومة متمدينة فى العصر الحديث ، اذ تضمنت استجداء معونة السلطان فى « التخلص من عرابى » ، لا بقوة السيادة العثمانية ، وانما بوسائل الغدر التى كانت معروفة لدى الباب العالى !

ووقع الاختيار على مندوب يدعى « درويش باشـــا » كان مرهوب الشخصية ، معروفا بالدهاء والبطش · وكان من قادة الجيش العثمانى قبل أن تقعده السن ، اذ كان حينذاك فى السبعين من عمره ··

على أن تدخل السلطان لم يكن على ما كان يرجوه الانجليز ، سيما وان عرابى كان لا يزال يتمتع برضى البلاط السلطانى ، كما كان عبد الحميد يضن بثقته على الخديو توفيق ، ويفكر فى أن ينصب « حليم » بدلا منه ·· لذلك أوفد مع « درويش » مندوبا آخر عرف بالتحمس لعرابى هو الشيخ « احمد أسعد » شيخ احدى الطرق الدينية فى المدينة المنورة ، وأحد الثقـــاة الذين كان السلطان يعتمد عليهم فى الترويج لفكرة الوحدة الاسلامية ··

« دوش » بارد يلقيه أهـــل الاسكندرية على « درويش » !

◆ **وأرســـــل** الخديو «ذو الفقار باشا» ، كما أرسل الوزير وكيل الحربية « يعقوب باشا سامى » لاستقبال المندوبين ·· كذلك أرسل عرابى الشيخ عبدالله نديم – الصـــــــحفى والخطيب – الى الاسكندرية كى يهيىء الاهالى للحفاوة بهما لدى وصولهما ، ولاعلان سخط البلاط على الانذار الذى قدمه « ماليت » وزميله الفرنسى ·· **وهكذا استقبل السكندريون الوفد السلطانى هاتفين « الله ينصر السلطان » و « اللايحة مرفوضة » ، و « اطردوا الاسطول » ·· وكان لهذه الهتـــافات**

أثرها السريع على الوفد ، ولا سيما على « درويش » ‥ ومع ما كانت وزارة الخارجية البريطانية تبثه فى نفسه ـ عن طريق الصحافة الانجليزية ـ ومع ان الخديو قدم له ٥٠٫٠٠٠ جنيه ـ كمنحة ـ فضلا عن جواهر قيمتها ٢٥٫٠٠٠ جنيه ، ليكسبه فى صفه ، الا أنه لم يقو على أن يقوم باجراء ذى خطورة ضد عرابى ‥ لا سيما حين تلقى مذكرة من مشايخ الازهر تؤيد عرابى ، وتطالب برفض الانذار وخاصة ما ورد فيه بشأن نفيه !‥ ولقد حاول درويش أن يعامل المشايخ فى حزم ، فاذا بهم ينصرفون غاضبين ، وسرعان ما أوفد الزعماء الوطنيون رسلهم الى الاقاليم لاثارة المشاعر ، كما عقدت فى القاهرة اجتماعات ضد درويش ، ثم نظم الطلبة مظاهرة كبيرة فى الازهر ، زعزعت اعتداد درويش بنفسه ، فبادر الى دعوة عرابى ـ وكان قد رفض من قبل أن يراه ـ ومحمود سامى ، وتلطف اليهما ، ثم راح فى لهجة معسولة يقنع عرابى بأن رحيل الاسطول ، وتحسن الموقف ، لن يتحققا الا اذا استقال ورحل الى القسطنطينية ‥ فرفض عرابى قائلا انه يحمل مسئولية صون النظام والامن ، وانه قد اتهم ظلما بالطغيان ، ولن يبارح منصبه الا اذا أقيل رسميا بكتاب يتضمن أسباب الاقالة !

الشرارة التى مهدت للمأساة !

◆ **وانفض** الاجتماع دون تفاهم ‥ وكان ذلك فى ظهر يوم السبت ١٠ يونيو ٠ **وفى صباح اليوم التالى ، أخذت الامور تتطور بسرعة فى الاسكندرية ، حيث وقعت مشاجرة بين مكارى (حمار) مصرى ورجل مالطى ، فاذا بثورة تقوم من الساعة الواحدة بعد الظهر حتى الخامسة ، انجلت عن موت مائتى شخص بينهم ضابط من احدى البوارج الانجليزية ، فضلا عن مائتين آخرين من الاوربيين ، كما أصيب القنصل الانجليزى « كوكسن » بجراح خطيرة ، والقنصلان الايطالى**

واليونانى بجراح خفيفة ، ولم يهدأ الهياج الا بوصول الجنود النظاميين . وكان هذا أول عمل عنيف فى أحداث ذلك العام ، وسرعان ما انتشرت أنباؤه فأثار فى أوربا - وفى انجلترا بوجه خاص - اهتماما كبيرا ..

ولما كانت تبعة هذا الحادث قد ألقيت ظلما على عاتق أكثر الاشخاص اصابة بأضراره ، كما تعللت به وزارة الخارجية وقيادة الاسطول الانجليزى لضرب الاسكندرية ، لذلك يجدر بنا - قبل أن نمضى قدما - أن نرد الجرم الى عاتق المجرم الحقيقى فيه - وان كنت لم أتلق التفصيلات الموضحة للحقيقة الا بعد الحرب التى نشبت :

كانت الاسكندرية أكثر مدن مصر ازدحاما بالاوربيين ، وكان الود مفقودا بينهم وبين المصريين من أهل المدينة ، لا سيما بعد وصول الاسطول باسم حماية الاوربيين .. ومن ثم فقد كان حفظ النظام يتطلب مجهودا شاقا من محافظ المدينة « عمر باشا لطفى » ، غير ان الرجل كان شركسيا ، مناوئا للوزارة الوطنية ، وعضوا فى حزب « السراى » ، ومن أذناب الخديو السابق اسماعيل ، والخديو توفيق .. لذلك عمد الى تشجيع العناصر المتذمرة بدلا من اخمادها .. وكان اليونانيون - فى الوقت ذاته - قد عمدوا الى تسليح أنفسهم عن طريق عميد جاليتهم ، وكان من وكلاء « روتشيلد » .. وحذا المالطيون حذوهم بمساعدة « كوكسن » ، القنصل الانجليزى .. وهكذا هيئت الامور - فى نهاية مايو - لاثارة الشغب ، على أمل اشعال حرب داخلية اذا رفض عرابى ما أريد املاؤه عليه !

الاغراض الشخصية تلعب فى الظلام !

◆ **وليس** ثمة شك فى أن الديبلوماسيين الانجليز فى القاهرة كانوا يتطلعون الى الاضطرابات كدليل على تفشى الفوضى .. كما انه لم يكن ثمة شك في أن عمر لطفى كان ذا

مصلحة شخصية ، اذ كان اسمه بين المرشحين لتولى وزارة الحربية خلفا لعرابى ، وقد استدعاه الخديو فى ٢٧ مايو الى قصر الاسماعيلية وعرض عليه المنصب ·· وقد قدم الانذار فى أول يونيو ، واستقالت الوزارة فى اليوم التالى ، فلما اضطر الخديو الى اعادة تعيين عرابى فى الثالث من يونيو ، كان من الطبيعى أن يهتم عمر لطفى بكل ما يثبت لمن آزروا اعادة عرابى — وخاصة القنصل الالمانى وزميله النمسوى — خطأ ثقتهم ··

كذلك لدينا من القرائن ما يبين أن عمر لطفى تلقى من الخديو فى ٥ يونيو برقية بالشفرة تفيد أن عرابى قد تعهد للقناصل بمسئولية حفظ النظام ، وانه لو نجح فسوف تثق فيه الدول الكبرى فيفقد الخديو هيبته ! واختتمت البرقية بهذه العبارة : « فاختر اذن ما اذا كنت تساعد عرابى فى تعهداته أو تخدمنا » ·· وكانت هذه العبارة بمثابة ايحاء ، بادر عمر لطفى باتباعه ! ·· ويؤخذ على عمر لطفى انه كمحافظ للمدينة كان قائدا لفرق من الجنود تشبه « بلوك النظام » ، وقد توانى عن انزالها الى المدينة ، الا بعد أن استفحل الهياج !

وهكذا تجمع القرائن على أن الفتنة كانت مهيأة لتنفجر عندما يصل درويش الى الاسكندرية فى ٨ يونيو ·· ولست مقتنعا بأن درويش نفسه كان يجهل هذا · ولعل الحادث العرضى بين المكارى والمالطى هو الذى أدى الى انفجارها قبل الموعد المختار لها ·· على أن المؤكد أن الخديوى وعمر لطفى أقاما نطاقا محكما على المواصلات التلغرافية بين القاهرة والاسكندرية ، وان الاخير أرجأ دعوة الجيش الى تهدئة الهياج !

يضاف الى هذا ان اللجنة التى شكلت للتحقيق ، تألفت من أذناب الخديو ، وقد عين عمر لطفى على رأسها !·· ومع ان هذا منح عطلة حين قويت الشبهات ضده بين القناصل ، الا أنه

ظهر عقب ضرب الاسكندرية ، ولحق بالخديو وتولى منصب وزير الحربية !

كذلك ثبت أن الخديو أرسل قريبه « حيدر باشا » الى الاسكندرية خلال اسبوع الحادث ، وكان يستقبله فى تكتم قبل وبعد السفر فى كل مرة ٠٠ وقد كان حيدر فى الاسكندرية يوم الحادث ، وعاد بمجرد انفجار الشغب ٠٠

وتضم رسائل ماليت فقرات توحى بأنه كان يتطلع – حوالى الوقت الذى حدث فيه الاضطراب – الى حل عنيف للورطات الديبلوماسية التى كان يتخبط فيها ، كما كان من الحجج التى تذرع بها لمعارضة الحكومة الوطنية ، انها كانت تخلق الفوضى فى البلاد ٠٠ على أن معرفتى بأخلاقه وشخصيته ، تجعلنى أرجح انه لم يكن على علم سابق بحادث الاسكندرية ٠٠ وكذلك الامر بالنسبة لكولفن

العوامل التى أدت الى ضرب الاسكندرية

◆ **ولم** تكن النتيجة المباشرة لفتنة الاسكندرية متمشية مع ما كان يرجو الخديو وأصدقاؤه ، فقد اشتطت الى الدرجة التى دعت الى ضرورة الاستعانة بالجيش ، فاذا به يخمد الفوضى ويمسك بأعنة الامور ، مما ضاعف من تقدير الجميع له ولعرابى ، حتى أن القناصل الاجانب – فيما عدا الانجليزى – انتهوا الى الاخذ بهذا الرأى ٠٠ **وكان فى وسع عرابى أن يصبح سيد الموقف ، لولا أن ماليت وكولفن راحا يثيران ذعر الاوربيين ، ويمهدان لضرب الاسكندرية ٠٠ كما أقسم السير بوشامب سيمور – قائد الاسطول – أن ينتقم لياوره ، وهو الضابط البحرى الذى قتل فى الفتنة ٠٠ وكان الانتقام هو : ضرب الاسكندرية !**

وفى ظهر يوم الاحد ١١ يونيو ، تلقيت من صابونجى برقية كان قد أرسلها منذ أربع وعشرين ساعة ، مؤكدا فيها أن عرابى يلقي تأييدا من البرلمان – عدا سلطان باشا – ومن

الازهر ، اللهم الا شيخ الاسلام ٠٠ وان المصريين عقدوا العزم على خلع الخديو ٠٠ وان عرابى يقول ان السلام لن يستتب طالما ظل ماليت وكولفن فى مصر ، وقد خطب عبد الله نديم فى ٠٠٠ر١٠ شخص مفندا المطالب التى وردت فى الانذار ومهاجما الخديو ٠٠

وفى خطاب كتبه صابونجى فى ١١ يونيو ، قال ان الشيخ عليش ـ شيخ الازهر ـ أصدر فتوى بأن الخديو ، باتباعه مشورة القناصل الاوربيين ، قد باع بلده ، فلم تعد له ولاية على مسلمى مصر ٠٠ وان الاقباط والمسلمين يؤيدون عرابى ٠٠ وان الوفود تترى من الاقاليم لتطلب الى درويش خلع الخديو ٠٠ كما انه تلقى رجاء من ٠٠٠ر١٠ عالم ، وآخر يحمل توقيعات ٠٠٠ر٩٠ شخص ، برفض المطالب الاوربية ، وبابقاء عرابى فى منصبه ٠٠

الفصل الرابع عشر

رجاء اخير

◆ **ذهبت** فى اليوم التالى الى « ايدى هاملتون » فأنبأته بأننى قد حصلت على معلومات لا يتسرب اليها الشك ، مضمونها ان عرابى يقبض على ازمة الامور فى مصر ، وان خطر عزل توفيق يشتد ، وقلت له ان من المستحسن المبادرة الى مهادنة عرابى فى اقرب فرصة ، فوعدنى بأن يحمل كلامى الى جلادستون ٠٠

وتلقيت فى المساء برقية من صابونجى بأن مبعوث السلطان قد اعلن سحب المطالب الاوربية ، وان شيخ الاسلام « الامبابى » قد عاد الى صفوف الوطنيين ٠٠ وبادرت الى الابراق الى صابونجى بأن يحذر عرابى من غدر درويش ، وان يدعو الزعماء الوطنيين الى المطالبة برحيله ، ون ينصح عرابى بمهادنة الخديو ليضيع على القناصل حجة التدخل ٠٠

ولقد قوبل بالدهشة نبأ الاتفاقية التى أبرمت بين كل من : الخديو ، والقناصل ، ودرويش ، وعرابى ، لصيانة الامن والنظام ٠٠ وما خطر لنا في انجلترا أن وراء هذه الهدنة خدعة دبرها ماليت وكولفن ٠٠ لا سيما

وأن عرابى أقسم بشرفه لتوفيق بأن يحمى حياته بأى ثمن ، فاستغل الخديو هذا القسم الى النهاية فى غدره ..

ولقد اخبرنى « بتون » بأن روتشيلد عرض ان يمنح عرابى معاشا سنويا قدره ٤٠٠٠ جنيه اذا هو بارح مصر .. (ولكننى علمت فيما بعد من عرابى انه لم يتلق هذا العرض ، وانما مناه القنصل الفرنسى بخمسمائة جنيه شهريا اذا هو قبل ان يرحل الى باريس فيعيش فيها كما كان يعيش الامير عبد القادر .. ولكن عرابى رفض)

وتلقيت من صابونجى برقية أخرى ارسلها فى ظهر يوم ١٢ يونيو ، مؤكدا فيها ان عرابى سيد الموقف ، وان درويش قد سافر الى الاسكندرية، وكذلك توفيق قد رافقه عرابى الى المحطة متأبطا ذراعه !

على أننى ما لبثت ان تبينت من تحرياتى ان سفر درويش وتوفيق الى الاسكندرية قد اثار الشكوك ، وتسربت انباء بأن درويش طلب جنودا من تركيا .. ومع ان طلبه لم يكن محتمل الاجابة ، الا ان الجيش المصرى اتخذ اهبته للطوارىء ، وان ظل عرابى محتفظا باعتداله .. وابرق لى صابونجى بأن ماليت لا بد مقتول اذا استمر على نشاطه الذى أثار سخط الوطنيين ، فبادرت الى رجاء « هاميلتون » بالعمل على ان يلوذ « ماليت » باحدى البوارج .. (وقد علمت فيما بعد بأنه تلقى امرا بذلك ونفذه)

انجلترا تستعد للتدخل المسلح

◆ **وتلقيت** فى ١٦ يونيو برقية من صابونجى بأن السلطان أوفد مبعوثا آخر وصل الى مصر دون أن يدرى أحد شيئا عن الاوامر التى سيعمل وفقا لها .. وان الشعب والجيش يتشاوران يوميا لرسم خطط الدفاع ، وقد تولتهم الريب نحو وفدى السلطان ..

وبدأت أفقد ثقتى فى جلادستون ونوايا الحكومة الانجليزية ، لا سيما حين طالعت فى صحيفة «سانت جيمس جازيت» اعلانا عن صدور أوامر بترحيل قوات الى مصر !.. ولم أعد أرتاب فى أن الحكومة قررت التدخل المسلح ، وان كانت فرنسا وبقية الدول الاوربية قد هادنت عرابى وصالحته ، وقد اقتنعت بأن لا بد من هذا لصون الامن والنظام ، ولو ترتب عليه خلع توفيق ..

وتلقيت فى ١٨ يونيو برقية بتأليف وزارة جديدة فى مصر تحت رئاسة راغب وعرابى .. كما تلقيت رسالة من صابونجى كتبت قبل أربعة أيام ، عن حديث جرى بينه وبين عرابى ، وقال فيه هذا : « لقد دربنا الزمن واسماعيل على أساليب الخداع التركية . ولن نكون المبادرين الى العدوان ، ولكنا سنقاوم كل من يحاول مهاجمتنا .. لسنا نبغى سوى الاصلاح ..



واذا كانت أوروبا ـ وانجلترا على الخصوص ـ تقول أن بوسعها أن تسحقنا فى أربع وعشرين ساعة ، فدعها تجرب .. ان أول رصاصة تطلق ستحررنا من كل التزاماتنا ! »

وفى رسالة أخرى بتاريخ ١٧ يونيو ، كتب صابونجى يقول : « **كنا فى مأدبة بدار الشريعى باشا حضرها عرابى ، عندما أقبل جندى يحمل رسالة من سيدة انجليزية تلتمس الامان .. فسألنى عرابى أن أبادر بالكتابة اليها مؤكدا أن لا خطر هناك ، وأنه سيحمى حياتها كما يحمى حياته اذا وقع أى اضطراب .. وهكذا أصبح عرابى بطلا تلوذ به كثير من الاوربيات ، حتى انهن يسارعن الى النوافذ يحيينه حين تمر عربته فى الطرقات !** »

وكتب فى ١٨ يونيو يقول :« ضمتنى وعرابى وقادة الحزب الوطنى مأدبة غداء فى دار السيد حسن العقاد .. ودار الحديث عن نظم الحكم ، فاذا الكل يجمعون على تفضيل النظام الجمهورى ، الذى تهدف اليه الحركة الوطنية منذ بدايتها .. »

وفى رسالة أخرى فى اليوم التالى ، قال ان الشيخ محمد عبده اعتزم أن يجمع كل ما لديه من وثائق بصدد القضية المصرية ويرحل الى انجلترا ليعرضها على جلادستون والبرلمان الانجليزى .. وقد حبذ البارودى الفكرة .. كما أخذ نديم والسيد حسن العقاد ـ كبير التجار ـ يستعدان للسفر معه ..

وكتب صابونجى بعد ثلاثة أيام أنه أعد مذكرة بالانجليزية ـ سلمها الى البارودى ـ موجهة من الحزب الوطنى الى جلادستون بطلب ارسال قنصل انجليزى ، بدلا من ماليت ، وأقدر منه فهما لشئون البلاد .. وان ماليت كرر نصحه لتوفيق بالقاء القبض على الشيخ محمد عبده ، وعبد الله نديم ، والبارودى ، وصابونجى ..

كلمة صدق فى الصحف الانجليزية

◆ **وليس** بوسعى أن أحدد بالضبط متى عقد جلادستون عزمه على العمليات العسكرية فى مصر ، ولكن الذى أدريه أنه لم يكن يتوقع أن تفضى

تلك العمليات الى حرب ، وانه كان مندفعا تحت ضغط حزبه ، وتحت الحاجة الى تغطية الفشل الدبلوماسى الذى منيت به وزارة الخارجية ..

وفى ٢٣ يونيو ، نشرت لى « التايمز » خطابا مفتوحا وجهته الى جلادستون، كشفت فيه عن الألاعيب الدبلوماسية التى أدت الى الموقف القائم فى مصر ، ملخصا فيه التطورات مذ صدرت المذكرة الثنائية ، والدور الذى قام به كل من السير ادوارد ماليت والسير أوكلند كولفن .. وما بذلت شخصيا من مساع ، سواء فى لندن أو فى القاهرة لتخفيف حدة التوتر .. وقلت فى النهاية : « **لو أن ممثل جلالة الملكة أفضى باعتراف صادق بأخطائه ، وباعلان لعطف انجلترا على حرية مصر ، لاستعادت انجلترا المكانة التى فقدتها** » .. **وبعد أن أكدت له حرص المصريين على السلام مع التشبث باستقلالهم ، قلت** : « **لم يبق الا أن تبسط لهم يد المودة صادقة ، فتقابل بتقدير الجميع** .. »

الفصل الخامس عشر

ضرب الاسكندرية

◆ **كان** ضرب الاسكندرية خطة حمل مسئولية تدبيرها الاميرال سيمور ، وكولفن – فان اقصاء ماليت عن مصر ، ألقى بالسلطة الدبلوماسية فى يدى هذا الاخير ، سيما وأن «كارترايت» ، خليفة ماليت ، كان جاهلا بمصر ، فأولى كولفن كل اعتماده وصار يأخذ بمشورته ..

وكان خطابى فى «التايمز» قد أثار ضجة على صفحات الجريدة وفى مجلس اللوردات ، حيث أحرج «لورد لامنجتون» وزير الخارجية .. وبدا لى من اتصالاتى ، أن تدابير الحرب كانت تجرى فى الخفاء بين الاميرالية ووزارة الحرب – حتى أن رجال جلادستون لم يعلموا بها ! – **بل ان «برايت» أكد لى أنه حين آن الاوان لعرض خطة ضرب الاسكندرية على مجلس الوزراء ، زعمت وزارة الخارجية أن الشعب المصرى ملتف حول الخديو ، وأن أول طلقة كفيلة بأن تثير الشعب على عرابى ، وتضطره الى السجود عند قدمى الخديو .. وقد بادر «برايت» الى الاستقالة عندما تبين كيف استدرج بالخداع الى الموافقة على ضرب الاسكندرية ..**

واذ أرجع الى مذكراتى ، أجدنى قد كتبت فى ٣ يوليو : « يخيل الى أنه لو حدث أى تدخل ، فسيكون على يدى ايطاليا .. وكم أكره هذا ، لان الايطاليين اذا أطلقوا فى غزو انقلبوا وحوشا فى أساليبهم .. (ولقد دعيت الحكومة الايطالية فى تلك الايام الى الاشتراك معنا فى غزو مسلح لمصر ، ولكنها اعتذرت بحكمة) .. »

وفى ٤ يوليو كتبت : « سمعت ليدى جريجورى من سير أرسكن ماى (أحد قادة الاسطول) ان الاميرالاى سيمور قد أصدر أوامره بضرب الاسكندرية فى الغد ! » .. ولقد كانت أول وثيقة فى المكاتبات الحكومية عن ضرب الاسكندرية هى برقية أرسلتها الاميرالية فى ٢٦ يونيو الى سيمور ، وقالت فيها : « اذا كان الجنود المصريون يتخذون الاستعدادات للهجوم ، فاتصلوا بالاميرال الفرنسى وأعدوا سفنكم » ... وتكشف هذه البرقية عن الحجة التى اتخذناها ذريعة للمأساة ، على نسق ما جرى بين الذئب والحمل ! .. ولقد عرف فيما بعد أن سيمور كان قد عقد العزم على ضرب الاسكندرية حوالى يوم ٤ يوليو ، وكان من الاسباب التى أثرت على جلادستون ومجلس الوزراء حتى وافقا على الخطة ، رواية زائفة عن مذابح وهمية فى (بنها) ، قصد بها اثارة الرأى العام الانجليزى ضد عرابى ! »

وأخبرنى « بتون » فى تلك الاثناء أن خطة الاميرالية كانت ترمى الى انزال جنود – أثناء ضرب الاسكندرية – لقطع خط الانسحاب على عرابى .. فبادرت فى اليوم التالى الى الابراق الى صابونجى لينصح عرابى بعدم الاحتكاك بالاسطول وللتعجيل بايفاد الشيخ محمد عبده الى لندن ، لا سيما بعد أن علمت أن سيمور وجه انذارا للحكومة المصرية ..

وفى ١٠ يوليو ، وجه الى عرابى انذار لم يكن من المعقول أن يقبله ، اذ طلب اليه فيه تسليم القلاع (الطوابى) – وقد رفضت فرنسا الاشتراك فى هذه « القرصنة » ! – والواقع أن موقف سيمور كان شديد الحرج ، اذ كانت قطع الاسطول فى متناول نيران الطوابى ، ولو كان الوطنيون فى خبث قومنا وشرهم ، لامكنهم أن يغرقوا السفن ، ولكن عرابى لم يكن بالرجل الذى يبدأ بالغدر . بل انه كان راغبا فى أن يتفادى اى اصطدام ، ومن ثم سمح لسيمور بأن يحرك بوارجه بحيث أصبحت على ابعاد تناسب الانجليز ..

ولقد خيل الى وقتئذ أن ضرب الاسكندرية واراقة الدماء سيثيران الرأى العام فى انجلترا بحيث يحول دون المضى فى مثل هذه الاجراءات .. كذلك خيل الى أنه سيغضب الدول الكبرى ، فى فترة لم يكن من مصلحة انجلترا أن تغضبها .. لكن شيئا من ذلك لم يحدث !

ونشرت الصحف فى ١١ يوليو أن ضرب الاسكندرية بدأ فى الساعة السابعة ... وكان من الواضح أن المصريين كافحوا فى بسالة ورجولة ، وانهم لن ينهزموا ، ولو اضطروا فى البداية الى الانسحاب من الاسكندرية.. وفعلا وردت الانباء فى اليوم التالى بأن «الطوابى» كفت عن ضرب النار ، ولكن القتال لم يكف .. وسرنى أن السلطان ثبت فى موقفه ضد هذا

الاجراء ، حتى غدا الموقف ينذر بما سبق أن تنبأ به عرابى من أن الحرب السياسية لن تلبث أن تنقلب الى حرب دينية !

وفى ١٣ يوليو ، أنبأنى « بتون » بأن الاحتلال سيقع لا محالة !.. وسرنى من الانباء أن الجيش المصرى استطاع أن ينسحب من الاسكندرية دون أن يقع فى الكمين الذى كان سيمور قد أعده ، وتراجع الى مكان حصين فى كفر الدوار بعيدا عن مرمى الاسطول ..

ومع أن جلادستون أعلن فى مجلس العموم أنه لن يرسل جيشا الى مصر ، لأنه ليس فى حرب مع أحد ، الا أن « بتون » أكد لى ثمة قوات ستوفد لضم مصر الى بلادنا !

وفى ١٦ يوليو كتبت فى مذكراتى : « أخبرنى بتون أن تركيا، اذا كانت قد وافقت على ايفاد جنود انجليز لمصر ، فقد اشترطت أن يذهبوا ويعودوا ، بعد أن يقبضوا على عرابى خلال شهر واحد . وهذا هراء ، لانهم اذا ذهبوا فانما ذهابهم ليمكثوا .. واذا كان ثمة عزاء فهو فى أن هذا قد يدعو السلطان الى اعلان الحرب ! »

الفصل السادس عشر

حملة التل الكبير

◆ بقى أن أورد أهم أحداث الحملة الانجليزية التى صمدت مصر الوطنية فى وجهها شهرين .. فليس فيما كتبه الانجليز والفرنسيون وصفا صحيحا صادقا لها :

أولا ـ مصر كلها كانت تدافع :

وأولى النقاط التى شوهت فى الكتب الزرقاء ـ التى أصدرتها الحكومة الانجليزية ـ وتجاهلها الكتاب الانجليز جميعا ، تتمثل فى الطابع القومى الذى اتسم به دفاع مصر ضد الغزو الانجليزى .. **فلقد زعمت المصادر الرسمية أن الجيش وحده هو الذى قاوم مطالب سيمور عند ضرب الاسكندرية ، وقاوم الغزو البرى الذى قاده « ولسلى » .. وما كان هذا سوى امتداد للقصة الخيالية التى كانت تؤلفها وزارة الخارجية الانجليزية لتبرر التدخل** .. والواقع أنه اذا كان عرابى قد أنذر دائما بالمقاومة ، واذا كان صوته عاملا هاما فى القرار الذى اتخذ فى ١٠ يوليو برفض مطالب الاميرال سيمور ، الا ان اعضاء المجلس العام ايضا اجمعوا على الرفض ، وعلى انه ليس من حق الخديو ان ينزل عن شبر من ارض مصر استجابة لطلب قائد اجنبي ، دون ما مقاومة أو امر صريح من السلطان .. ولم يكن رأي

الخديو نفسه يختلف عن ذلك ٠٠ حتى سلطان باشا ــ الذى استقر فى صف الانجليز ــ لم يجرؤ على المجاهرة برد آخر غير رفض مطالب سيمور ٠٠ وقد تلقى عرابى من الخديو ــ نتيجة هذا الاجماع ــ اوامر دقيقة بوصفه وزير الحربية بأن يعد الطوابى لتطلق نيرانها بمجرد اقدام الاسطول الانجليزى على اطلاق قنابله ٠٠ كما صدررت اوامر عاجلة فى مساء ١٠ يوليو الى وكيل الحربية بأن يعلن فى المديريات بأن الرأى استقر على الحرب وبدعوة الرديف الى الخدمة ٠٠**ومن الجائز ــ بل من الطبيعى ــ ان الخديو لم يكن مخلصا للدور الذى اضطر الى ان يؤديه ، وانما اتفق وسلطان باشا على ان يتخذا المظهر الوطنى ليحميا نفسيهما اذا اثبتت القلاع انها اقوى من الاسطول !**

ثانيا ــ الخديو يضع نفسه تحت الحماية :

وقد تضمنت الكتب الزرقاء اقوال الخديو لمستشاريه الانجليز ، فقد اطلعوه على نوايا سيمور منذ ٦ يوليو ونصحوه بأن يصعد الى احدى البوارج حرصا على سلامته ، ولكنه لم يستحسن هذه الفكرة واقترح ان يلجأ مع درويش باشا الى قصره القائم على ترعة المحمودية ، **وقال ان الخطر على سلامته يقل بالاسراع فى انجاز المهمة ! ٠٠ وهذا ما تم فعلا ، وان كان قد آوى الى قصر الرمل بدلا من قصر المحمودية ٠٠ وقد انبأنى ــ فيما بعد ــ لورد تشارلس بيرسفورد ، قائد البارجة كوندور التى اشتركت فى ضرب الاسكندرية ، ان الخديو صارحه يوما بأن السبب الحقيقى لبقائه على البر هو ان الفكرة التى سادت مصر وقتئذ هى ان سفن الاسطول كانت ولا بد ستغرق ٠٠ وقد ظل الخديو طيلة المعركة يجرى الى سطح القصر بين وقت وآخر ، حتى اذا اطمأن فى النهاية الى بقاء الاسطول وسكوت القلاع ، قرر ان يضع نفسه تحت حماية سيمور !**

ولايضاح موقف الوطنيين ، جدير بنا ان نقول ان تحول توفيق لم يكن ليلغى الأوامر التى سبق ان اصدرها ، فان الشريعة الاسلامية تقضى بأن الحرب اذا اعلنت بقرار من رئيس الدولة ، فان الواجب يقتضيه وشعبه بأن يستمروا فيها الى ان يحققوا نصرا أو يبوءوا بهزيمة ، ولو أسر رئيس الدولة او غدر بدولته اثناء القتال ٠٠

ثالثا ــ عرابى واخوانه يؤدون واجبهم على خير وجه :

وثالث النقاط التى يجب ايضاحها ، تتمثل فى قيام عرابى والزعماء الوطنيين بمسئولية حفظ القانون والنظام فى مصر ، وفى ادارة خطط القتال ، على خير وجه ، وبصفة مشروعة ٠٠ فما هو ان ظهر ان الخديو لم يعد يعتبر رئيسا للدولة ولم يعد يمارس اصدار الاوامر في حرية ، حتي

اجتمعت فى القاهرة جمعية عامة من الاقطاب الدينيين والأعيـــان درست الموقف ٠٠ ومع ان عرابى لم يحضر الاجتماع ـ اذ كان مع الجيش فى كفر الدوار ـ فان مندوبى الامة المجتمعين ، وكانوا يمثلونها اكمل تمثيل ، اجمعوا على ان الخديو لم يعد فى مركز شرعى يخول له ممارسة اصدار الاوامر ، ومن ثم فان كل أمر يصدره وهو فى ايدى الانجليز يعتبـــر غير مشروع ولا قانونى ، وان على عرابى ان يبقى وزيرا للحربيـــــة ويكلف بالاستمرار فى الدفاع عن البلاد ٠٠ وعين مجلس دائم ـ او لجنة للدفاع ـ لمعاونته ، برئاسة يعقوب باشا سامى وكيل الحربية ، فظلت طيلـــة الحملة تنظم التجنيد والامدادات العسكرية والمؤن ٠٠ كذلك تقرر ان تستمر اعمال الحكومة ـ بوساطة المصالح الحـــكومية ـ ما دام راغب ، رئيس الوزراء ، غائبا فى الاسكندرية حيث ارغمه الخديو وحارسه الانجليزى على البقاء ٠٠ **والواقع ان مصر لم تر حكومة أقدر على تصريف الأمور من الحكومة الوطنية اثناء الحملة ٠٠ فقد صانت أرواح الاوربيين ، وأوفدت من رغبوا فى الرحيل منهم الى بورسعيد فى حراسة البوليس ٠٠ وليس ابعد عن الحق من المزاعم التى راح اللورد « دفرين » يكررها فى مؤتمر القسطنطينية عن ان القاهرة كانت تشهد مذابح يومية يروح المسيحيون ضحايا لها !**

وكان لا بد لمركز عرابى من أن يظل مركزا سياسيا كوزير للحربية وقائد للجيش وزعيم وطنى ٠٠ الى ان شغل فجأة بزحف ولسلى البـــرى فأسرع الى التل الكبير ٠٠ ومكنه ما كان له من مكانة سامية فى نفـــوس مشايخ البلاد وفلاحى الدلتا ، من ان يستثير هممهم للحـــرب ، فتـــدفق المتطوعون على الجيش من كل فج ٠٠ ولم يتح لى ان ألم بتفصيلات العمليات الحربية بأكملها ، اذ كان صابونجى قد بارح البلاد ، وكان الأوربى الوحيد الذى رافق الجيش وبذل الخدمات لعرابى ، هو « جون نينيه » ـ وكان سويسريا من الوطنيين وصديقا من المتحمسين لحرية مصر ـ ولكن الكتاب الذى نشره فى سنة ١٨٨٤ كتب فى غير ما دقة ولا عناية* ، حتى ليتعذر الاعتماد عليه ٠٠

والذى جمعته من تحرياتى، هو ان المصريين قاتلوا فى أول ايام ضرب الاسكندرية ببلاء لم يكن سيمور ولا ضباطه يتوقعونه ، غير ان القلاع كانت قديمة ، كما انها كانت من الحجر ، وهى مادة خطرة تتفتت الى شظايا رفيعة وعديدة اذا تعرضت للقنابل الحديثة ٠٠ ولهذا كانت الخسائر فى الارواح بين المدافعين كبيرة ، فقتل نحو الف من مجموع حامية الاسكندرية، وكانت تتراوح بين ٨٥٠٠ ـ ٩٥٠٠ جندي ٠٠ واستطاعت الحامية ان تنقذ

كرامتها ، حتى ان بلاءها كان بداية رد الفعل الذى ازداد ظهورا فى انجلترا ضد الحرب ..

ومن العسير ان يفهم المرء كيف كان عرابى يذهب الى قصر الرمل ليرفع تقاريره الى الخديو ، وكيف عمى عن ان الخديو كان قد استقر على اتجاه معين .. على انه ما لبث ان فطن الى ذلك فأرسل فى ثانى ايام القتال حامية خاصة لمراقبة الخديو وحمايته ونصحه بالانتقال الى القاهرة ..

وكان خليقا به ان يعتقله ، فان اهماله فى هذا الصدد كان خطأ ذا نتائج جسيمة ، اذ انتهز توفيق فرصة انشغال عرابى بتدابير الانسحاب الى كفر الدوار ، وتسلل من القطار الذى كان قد ارسل لنقله الى القاهرة، وعاد الى الاسكندرية واضعا نفسه تحت حماية سيمور بشكل سافر علنى ! .. وصحب معه درويش ووزراءه ، فجعلهم بذلك شركاء له فى غدره .. وما ان استقروا فى رأس التين حتى أقيم سبعون جنديا بحريا انجليزيا لحراستهم ، فكانوا فى الواقع اسرى - فيما عدا درويش الذى حضر يخت بخارى سريع يحمل اوامر من القسطنطينية لاستدعائه ..

شرك انجليزى لعرابى !

◆ **وكان** اختيار كفر الدوار لينسحب الجيش اليها اختيارا موفقا - بحيث لو لم يكن ثمة مدخل لمصر سواها ، لقدر للوطنيين ان يكسبوا الموقف ! - وقد اقام عرابى مركز قيادته فى «ايكنجى عثمان» ، وتولى محمود فهمى اقامة المتاريس وخطوط الدفاع ، كما رحل الاهالى الهاربون من الاسكندرية تدريجيا الى داخل البلاد

وفى مساء ١٤ يوليو ، تلقى عرابى رسالة من الخديو اورد « نينيه » نصها .. **والظاهر انها كانت من املاء كولفن او أحد مستشارى توفيق من الانجليز ، لأن كل عبارة فيها بنيت على الموقف كما كان يراه الانجليز ، فبدأت بالقاء تبعة القتال على رفض مطالب الاميرال الانجليزى ، الذى ما كان يبغى الحرب ، والذى يريد ان يجدد علاقات الصداقة ويبدى استعداده لأن يسلم المدينة الى الجيش ، ومن ثم فالخديو يدعو وزير الحربية الى رأس التين ليتباحث مع راغب باشا وبقية زملائهما .. وفى الوقت ذاته يجب ايقاف كل الاستعدادات الحربية !**

ومن الكتب الزرقاء نعلم ان هذه الدعوة كانت شركا لايقاع عرابى فى أيدى الانجليز ، كما ورد فى برقية من القنصل الى وزير الخارجية الانجليزية فى ١٥ يوليو .. ولكن عرابى أجاب مذكرا الخديو بأنه ودرويش هما اللذان حبذا رفض المطالب ومقابلة العدوان .. وان حالة الحرب قد قامت

بذلك ، فلا سبيل الى عودة الجيش الى المدينـــة ما لم ينسحب الاسطول البريطانى ! •• وكان جواب الخديو منشورات بتوقيعه الى المديرين يعلن فيها ان عرابى قد جرد من سلطاته كوزير للحربية ، لرفضه أمر الخـديو بالذهاب الى الاسكندرية !

وهكذا ايقن الاهالى من تحالف الخديو مع الانجليز ، فأســفروا عن وطنيتهم دون اى تستر •• واثبت الجيش مناعة موقفه اذ وفق الى رد حملة انجليزية بقيادة الجنرال اليسون ، عدة مرات •• فازداد التفاف الأهالى حول الجيش ، وغدا عرابى محط الأنظار والآمال •• وكانت فكرته ، كما رواها « نينيه » ، هى انه اذا افلح فى اطالة المقاومة عدة شهور ، فان اوربا ستضطر الى مهادنته ، لا سيما وان مؤتمر القسطنطينية كان منعقدا فى تلك الاثناء ، وكانت الدول الكبرى تهيب بالسلطان ان يتدخل •• كما كانت فى نفسه بقية من الثقة فى اخلاص جلادستون لمبادئه ، واخلاص الانجليـز لتقاليدهم ! •• وهى احلام كانت مجـرد سراب زائف ! •• اذ لم يلبث ولسلى ان هبط الى الاسكندرية مع الدفعة الاولى من الحملـة البرية فى ١٦ اغسطس ، فوجدت اللجنة الحربية فى القاهرة ان توفر خطوط دفاع جديدة فى الجانب الشرقى الاقصى ـ الذى لم يكن منيعا ـ عند قنـاة السويس •• ومن ثم اوفد جيش شرقى بقيادة على فهمى احتل القناة ، وشرع فى تحصين الخطوط عند التل الكبير ـ وهى الخطوط التى كنت قد نصحت بتحصينها فى رسالة ارسلتها للشيخ محمد عبده فى ابريل •• وكان ثمة اجماع بين رجال الجيش على ضرورة سد الطرف الشمالى من قناة السويس للحيلولة دون تسلل السفن البريطانية •• ولكن عرابى لم يتخذ قرارا فى هذا الشأن ، فكانت هذه ثانية غلطاته الكبرى •• (اذ كان دلسبس قد أهاب به ـ حين تبدى احتمال استخدام الانجليز للقناة اذا قامت حرب ـ ان يحافظ على حياد القناة ، فتلقى منه ردا بالايجاب •• وقد ظن دلسبس لفرط اعتداده بنفسه ان مجرد وجوده يجعل حكومتنا تراعى هذا الحياد بدورها)

دلسبس يسمح للجيش البريطانى بالمرور

◆ **ولـكن** ، فى لرابع من اغسطس ، استقرت بعض بوارج بريطانيـــة بين الاسماعيلية والسويس ، بقيادة الاميرال هويت ، وشكا دلسبس من انهم يصدرون اوامر الى الاهالى ، فأنكر عرابى ـ باسم مجلس الدفاع ـ هذا الحق عليهم ، مؤكدا ان الحكومة الوطنية « لن تخرق حياد القنـاة الا فى اقصى الظروف ، وفى حالة ما اذا قام الانجليز بأعمال عدوانية فى الاسماعيلية او بورسعيد ، او اية نقطة على القناة •• »

ومع ذلك ، فقد كانت الاستعدادات تتخذ سرا ــ وعلى مضض من عرابى ــ لسد القناة فى بقعة بين الاسماعيلية وبورسعيد ، خضوعا لاجماع المجلس .. لا سيما بعد ان تبين عرابى ان دلسبس خدعه ، اذ سمح للبوارج البريطانية بأن تنقل ولسلى وجيشه الى بورسعيد .. لكن التأخر فى اعاقة المرور فى القناة كان قد ادى الى ابلغ الاضرار ..

وانتقل الدفاع المصرى الى مرحلة جديدة ــ وغير مجدية فى الواقع ــ باحتلال ولسلى الاسماعيلية فى ٢١ اغسطس بجيش مؤلف من ٣٠٫٠٠٠ جندى .. ولم تكن قوات عرابى فى كفر الدوار تزيد على ٨٠٠٠ جندى نظامى ، و ٨٠ مدفعا من طراز « كروب » . وما كانت مصر لتستطيع ان تحشد اكثر من ١٣٫٠٠٠ جندى مدرب ، فى حين ان المتطوعين الجدد لم يكونوا يصلحون الا للعمل اليدوى فى حفر الخنادق .. لذلك وجد ولسلى ان مهمته سهلة ، ولم يكن يفصل بينه وبين القاهرة سوى خطوط التل الكبير التى لم تكتمل تحصيناتها .. ومع ذلك فان المخابرات السرية الانجليزية ارادت ان تضاعف من ضمانات النجاح باجراءات سرية ــ واذا كان الكتاب الانجليز قد اعتادوا ان ينفوا فى اباء ان زحف ولسلى قد اقترن بمساعدات اشتريت بالرشوة ، فان الوقت قد حان لكشف الحقيقة :

ذلك ان غزو مصر من ناحية القناة كان قد دبر فى اوائل العام بين وزارة الحرب والاميرالية ، وتقرر فى اواسط يونيو تمهيد الطريق بالرشوة ، لا سيما لبدو الصحراء الشرقية .. ولعل القارىء يذكر اننى كنت قد توسطت لبعض شيوخ قبائلهم ، وكانوا مسجونين فى القدس فى ربيع سنة ١٨٨١ ، وقد عرف لورد نورثبروك هذه القصة ، فاستغل اسمى ــ مع الرشوة ــ فى كسب مساعدة هؤلاء البدو ضد عرابى .. واستعان باستاذ اللغة العربية فى « كمبريدج » ــ وكان يدعى ادوار بالمر ــ اذ كان على معرفة بالمنطقة . وقد زارنى بالمر فى ٢٦ يونيو قبيل سفره ، زاعما انه راحل الى الاسكندرية حيث عين مراسلا لصحيفة « ستاندارد » وسألنى ان اعطيه خطابات توصية الى اصدقائى الوطنيين ..

جاسوس بريطانى !

◆ **وكان** برنامجه الحقيقى ــ على ما تبينت من تحرياتى فيما بعد ــ ان يبحث مع سيمور فى الاسكندرية خططه ، ثم يرحل الى يافا فيستخفى فى ثياب شرقية ويرتاد الصحراء جنوبى وغربى غزة ، حيث يتصل بعشائر (الطياحه) و (الطرابين) .. وقد وفق فى هذا ، وانطلق فى الصحراء مستخفيا فى زى ضابط سورى عربى مسلم .. واستطاع ان يكسب شيوخ



العشائر الى صفه ، وان يدعوهم الى حشد رجالهم لحماية القناة « ولو ضد عرابى باشا » كما ذكر فى مذكراته بعد ذلك ٠٠ وكـــان جـزاؤه ان عيـن « كبير مترجمى قوات صاحبة الجلالة فى مصر » ، وضـم الى اركان حـرب الاميرال ٠٠ **وأصبح له خدم وكتبـة ومترجمين ، وفى يديه ذهب يسيل دون رقيب ولا حسيب ٠٠ الى ان قدر له أن ينطلق مع اثنين من زملائه الى بلـدة « النخل » ـ فى الصحراء الشرقية ـ مدمرين فى طريقهم الخطوط التلغرافية بين مصر وسوريا ٠٠ وكان فى حراستهم عرب من (الحـويات والحويطات) ، ادركوا ما كانوا يحملون من ذهب للعشائر الأخرى ، فقتلوهم فى بطاح وادى سدر ، واستولوا على الذهب ٠٠ وأثار الحادث ضجة فى البرلمان الانجليزى ، دعت وكيل وزارة الخارجية الى ان ينكر كل صلة للحكومة ببعثة « بالمر » السرية !**

الجاسوس العربى الذى غدر بعرابى !

◆ **كذلك** تضمنت مذكرات بالمر انباء مهمة أخرى قام بها غربى قنـاة السويس ، وكان مزودا بقائمة ـ بخط يد الخديو ـ تتضمن اسماء كبـار شيوخ العشائر ـ ومنهم سعود الطحاوى فى الصالحية ، ومحمد البقلى فى وادى طميلات

ولقد واصلت انا الحملة لكشف اسرار هذه المهمة ٠٠ فبعـد ان نفيت الحقيقة فى مجلس العموم ، اثارها شقيق زوجتى ـ اللورد ونتويرث ـ فى مجلس اللوردات ٠ وقام اللورد جرانفيل واللورد نورثبروك وزملاؤهما مرة أخرى بانكار الحقيقة فى اصرار ٠٠ وكان سعود الطحـاوى هو الشيخ العربى الوحيد الذى وفق فى براعة الى الغدر بعرابى ، اذ عمل جاسوسا فى نفس معسكره ، مذ نقلت القيادة المصرية من كفر الدوار الى التـل الكبير ، وقد تقاضى عن ذلك ٥٠٠٠ كراون نمسوى ذهبى ٠٠ وقد اعترف لى

مزهوا بأعماله ـ دون ان يعرف ميولى السياسية ـ حين مررت بالصالحية وعرجت على مضاربه فى ربيع سنة ١٨٨٧

على ان اعظم ضرر حاق بعرابى وسهل وعجل زحف ولسلى ، هو ما قام به عدد من الجواسيس الذين اندسوا بين جيشه ـ فى القاهرة والتل الكبير ـ مسلحين بالمال ووعود الترقية لمن يتمردون من رجال عرابى ـ وكان هؤلاء الجواسيس موفدين من الخديو ، يشد ازرهم عثمان رفعت بك ، الذى لجأ الى الضرب على الاوتار التى تثير غيرة الضباط ، لا سيما اولئك المنحدرين من اصل شركسى ـ والايحاء اليهم بأن ولسلى والانجليز انما يخدمون الخديو بموافقة السلطان الذى لن يلبث ان يعلن ان عرابى متمرد خائن !

اما بين الزعماء الوطنيين المدنيين ، فكان هناك مبعوث آخر لم يخفق فى التأثير عليهم ، ذلك هو الزعيم القديم لحركة الفلاح « سلطان باشا » ، الذى ارتمى فى احضان الانجليز ، ولم يعد يخجل من ان يشيع الفرقة بين من ظلوا متمسكين بوطنيتهم ! •• وأعتقد انه كان صادرا فى ذلك عن عناد اكثر منه عن طمع ، وقد استعمل فى مهمته سلاح المال ، ويبدو انه كان ينفق من جيبه الخاص ـ اذ كان أول قرار مالى اصدرته حكومة الخديو بعد معركة التل الكبير ، هو ان منحته علنا ١٠٫٠٠٠ جنيه كتعويض عن الخسائر التى حاقت به اثناء الحرب ، وان يكن ما انفقه لم يصل الى هذا الرقم ••

غدر وخيانة •• وسوء طالع !

◆ **ومع كل ذلك** ، فقد كان من الممكن ان يطول امد الدفاع الوطنى ، لولا الحظ العاثر : اذ وقع محمود فهمى فى الأسر بعد ايام من وصوله الى التل الكبير ، ولما يتم اقامة الاستحكامات الدفاعية ، فقد خرج الى الجانب الآخر من وادى الطميلات يستروح النسمات ذات مساء وقد تخفف من بزته العسكرية ، ولم يصحبه سوى ياوره ، واذا بجماعة من الحرس الانجليز يفاجئونه ويعتقلونه ، وهو بمنأى من الياور • وكان اعتقاله ضربة قاسية لدفاع التل الكبير

كذلك كان من سوء الحظ ان اصيب اثنان من القادة ذوى الدراية ، فى القصاصين •• فقد قام على فهمى ورشيد باشا بحملة استكشاف ، اتبعاها بهجوم على ولسلى ، وكاد « دوق كونوث » ان يقع اسيرا فى ايديهما ـ ولو تم ذلك ، لما كان ثمة شك فى ان يضطر الانجليز تحت ضغط الرأى العام البريطانى الى طلب الصلح والمهادنة ! ـ ولكن محمود سامى ، الذى كان مقدرا ان يزخف بألفى رجل من الصالحية ، أخطأ الموقع اذ ضلله بدو سعود الطحاوى اثناء الليل •• ومن ثم لم تصل كل القوة التى كانت معدة الى

الميدان ،كما جرح على فهمي ورشيد ٠٠ فضلا عن ان قائدا من زملائهمـــا ـ هو على بك يوسف ـ غدر بهما عمدا !

وهكذا ساد الاضطراب فى التل الكبير ، وفقد عرابى خيرة ضباطه دون ان يستطيع تدبير من يحل محلهـم ٠٠ اذ ان الضـــباط الباقين الذين كانوا موضع ثقة ـ ومنهم على باشا الروبى الذى عهد اليه بالقيادة هناك ـ كانوا ناقصى الخبرة والتجربة ٠٠ كما ان عرابى ظل فى معسكره محوطا بالاعيان الذين كانوا يتوافدون لزيارته ، ومعتمدا على سعود الطحاوى فيما كان يزيفه له من معلومات عن حركات جيش ولسلى ٠٠

الليلة المشؤومة !

◆ **ولم** يكن فى قوات عرابى فى التل الكبير من الجنود النظاميين المدربين ما يزيد على ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ ، والباقى من المتطوعين ، وقد راحوا يعملون ليل نهار فى استكمال خطوط الدفاع ٠٠ الى ان جاءت النهاية فى فجر ١٣ سبتمبر على حين غرة ـ ولقد اضفى الانجليز جوا خياليا على زحف قواتهم من (المحسمة) ليلا ، ولكن الطريق كانت فى الواقع ممهدة من قبل بوسائل الرشوة والغدر كما قدمت ٠٠ لا سيما وان اثنين من صغار ضباط عرابى الذين عهد اليهم بمراكز هامة ، قد قبلا رشـــوة الخديو ، وهما على بك يوسف وعبد الرحمن بك حسن ٠٠ وكان اولهما يتولى القيادة فى جزء من الخطوط المركزية ، فلم يكتف بمغادرة مكانه فى الليلة الفاصلة ، بل انه وضع مصباحا لارشاد الأعداء ! ٠٠ اما الثانى الذى كان قد عهد اليه مع رجاله ـ حرس الخيالة ـ بحراسة الطريق الصحراوى من الشرق ، فقد نقل رجاله فى تلك الليلة بحيث ترك الطريق مفتوحا للانجليز !

اما عرابى وبقية الجيش ، فقد اطمأنوا الى المعلومات الزائفة التى قدمها لهم سعود فى تلك الليلة ، فأخلدوا الى النوم ٠٠ واذا بهم يفاجأون بالعدو يخترق خطوطهم فى نقاطها الضعيفة ، فلاذ المتطوعون غير المدربين بالفرار ، ولكن الانجليز احدقوا بهم وقلبوا المعركة الى مجزرة ! ٠٠ وصمد الجيش ـ لا سيما المدفعية بقيادة محمد عبيد ـ ولكن مقاومتهم لم تدم اكثر من اربعين دقيقة ، استشهد خلالها عبيد وطائفة من خيرة رجاله ٠٠ ولم تنقض ساعة ، حتى كان الجيش الوطنى قد غدا حطاما ٠٠ ولقد حاول عرابى ان يتفادى هذه النتيجة ، وان يصل خلال افواج الهاربين المذعورين الى خطوط محمد عبيد، ولكنه لم يستطع ، واضطر فى النهاية الى ان يلبى رجاء خادمه ـ الذى كان يرافقه ـ وان يرتد الى محطة التل الكبير قبل ان يحتلها الانجليز ٠ فلما لم يجد قطارا ، عبر الجسر الصغير قبل ان يفتح ، وانطلق الى بلبيس ٠٠

وكان كل هم عرابى ان يصل الى القاهرة قبل ان تبلغها انباء النكبة ، فيحصن المدينة ويعدها للدفاع ..

ولكن دسائس الخديو ، والاعلان الذى اصدره السلطان باعتبار عرابى خائنا ، قضيا على كل امل .. ثم وضع وصول الفرسان الهنود الى العباسية فجأة ، حدا لمقاومة اللجنة الحربية .. واذ رأى عرابى ان كل فرصة قد ضاعت ، سار الى العباسية فسلم نفسه .. اسير حرب !

الفصل السابع عشر

محاكمـــة عرابى

فى تلك الاثناء لم اكف عن مواصلة جهودى فى لندن ، وكان مما ساعدنى ان قامت جماعة من « الراديكاليين » المعارضين للحرب بجولة فى الاقاليم حولوا خلالها الرأى العام لصالحى .. **كما اننى بادرت الى اثارة انتباه جلادستون الى ما بدأت الصحف تنشره عن الفظائع الانتقامية التى شرع توفيق ووزراؤه الشراكسة يوقعونها بالأسرى الوطنيين حتى انهم كانوا ينزعـــون اظفار محمود فهمى القائد المهندس ، ويعرضونه للضرب بالسياط ، وغير ذلك من الوان التعذيب .. وكان أخشى ما خشيته وسط الضجة التى احدثها فوز الانجليز فى التل الكبير ، ان يتعرض عرابى لعمل انتقامى ، فيتخذ كبش الفداء للأخطاء التى ارتكبها الخديو والانجليز .. لا سيما وان جلادستون ووزراءه كانوا يميلون الى ان يتقاضوا عرابى حياته ثمنا لجرمهم السياسى ، ولكن الرأى العام استطاع ان يحولهم عن هذا الاتجاه ..**

كذلك كتبت الى جلادستون مباشرة اعرب عن خوفى من ان تكون اية هيئة عسكرية يؤلفها الخديو لمحاكمة عرابى ، متحيزة ومغرضة ، ومن ان لا يستمتع الشهود العدول بحرية اداء شهاداتهم ، وان تحشد السلطات شهود الزور .. وانتهيت الى اننى ونفر من اصدقائى قد اعتزمنا ان نهيىء مجلس دفاع لعرابى وكبار المسجونين من الوطنيين فى القاهرة .

وفى الوقت ذاته ، رجوت ان يسمح لى بالكتابة الى عرابى فى سجنـــه مؤكدا له صداقتى ، وسائلا اياه ان يوكلنى عنه فى رعاية مصالحه وتدبير الدفاع عنه ..

ورد « هاملتون » نيابة عن « جلادستون » فقال ان الرسائل الموجهـــة الى عرابى لا بد أن تحـظى باذن من الخديو ومن القائد العام البريطانى ، ونصحنى بأن ارسل خطابى الى « ماليث » ليتولى الأمر .. ولكن « ماليث » لم يلبث ان رد الرسالة معتذرا بأن تعليمات وزير الخارجية تضطره الى ذلك ..

وكانت الظواهر كلها تجمع ـ يوما بعد يوم ـ على ان عرابى لن يحظى بمحاكمة عادلة . فلما قيل ان اسماء اعضاء المحكمة العسكرية ستعلن فى ٢٨ سبتمبر ، عدت اكتب الى جلادستون بشأن مجلس الدفاع عن عرابى وزملائه ، وأسأله ان يتيح لى ولزملائى حماية ديبلوماسية فى القاهرة تمكننا من العمل للأهداف التى ننشدها

ولكن الخطاب لم يصله ، اذ كان قد بارح لندن ، وحوله سكرتيره الى وزارة الخارجية .. غير اننا لم نحظ بجواب من جرانفيل ، **فقررت و « بتون » و « لورد ديلاوار » ان لا نضيع الوقت عبثا ، وابرقنا الى «برودلى» المحامى الشهير ـ وكان اذ ذاك فى تونس ـ كى يسافر الى القاهرة حيث سيجد فى انتظاره محاميا آخر يعمل كمساعد له .. وكان هذا المحامى المساعد هو « مارك نابير » الذى عرف بالكفاح فى قضاياه ، والذى كان على دراية بالأساليب الديبلوماسية ، اذ كان ابنا لسفير سابق .. وكان عليه ان يبادر فور وصوله الى القاهرة الى مقابلة « ماليت » والاصرار على رؤية عرابى بوصفه محاميا عنه .. وان يثير كل ضجة ممكنة اذا ابى عليه « ماليت » ذلك ..**

أما انا ، فقد رأى « ديلاوار » ـ ازاء حنق وزارة الخارجية على ـ ان لا اذهب الى القاهرة ، لأنه توقع ان اعتقل وارحل عنها ثانية الى انجلترا .. وفى الوقت ذاته ، سعى « ديلاوار » حتى حصل من جرانفيل على تأكيد بأن الخديو سيتيح للدفاع عن المسجونين كل فرصة معقولة ، فتناول « بتون » هذا الوعد ، ونشره فى « التايمز » محوطا بطنطنة أحرجت جرانفيل ، وألزمته به !

عراقيل .. ودسائس !

◆ **وأخذنا** فجأة بظهور « كولفن » من جديد على مسرح الموقف فى القاهرة ، وكان لا يقل تحمسا عن الخديو فى العمل على منع نشر شىء عن المحاكمة ، التى راحت وزارة الخارجية تتعجلها قبل ان يصل « برودلى » الى القاهرة .. فنقل عرابى الى حراسة الجيش الانجليزى ، ومنع كل اتصال بينه وبين الخارج دون موافقة الحكومة الانجليزية ..

وحدد يوم ١٤ لبدء المحاكمة ، فى حين ان برودلى لم يستطع ان يصل قبل يوم ١٨ .. بيد ان ظهور « نابير » على غير توقع ، قلب خطط الوكالة الانجليزية رأسا على عقب !

وزيادة فى عرقلة المحامين الانجليزيين ، اختير القانون الجنائى العسكرى الفرنسى لطبق فى المحكمة العسكرية ، وهو يتيح اجراء تحقيق كامل مع

المتهم ومناقشة الشهود قبل ان يتصلوا بالمحامين !.. وكان الخديو يرسل بعض « الطواشى » سرا الى عرابى وزملائه فى السجن ، فينزلون بهم اقسى الوان التعذيب الوحشى ، لتحطيم روحهم المعنوية .. كما اعلنت الحكومة المصرية انها لن تسمح بأى دفاع الا اذا كان بالعربية !

وكان كل ما فعلته الحكومة الانجليزية للحد من نقمة الخديو ، ان عينت انجليزيين يجيدان العربية ، للاشراف على اجراءات المحاكمة .. وشاء القدر أن يكون الاثنان من المخلصين ذوى الامانة والشهامة ، وكانا ــ بالمصادفة ــ من اصدقائى ، وهما « سير تشارلس ولسن » ، و « اندرين بيمان » .. وقد اعجبا بجلد عرابى وموقفه الكريم اثناء المحاكمة ، وقدما للمحامى « نابير » ما فى وسعهما من مساعدة خاصة ..

وأفلح نابير فى اقناع ماليت بأن يعترف به وبالمحامى « ايف » ــ الذى وجده لحسن الحظ فى القاهرة ــ كممثلين رسميين لاصدقاء عرابى .. وكان ماليت يرجىء كل محاولة له كى يقابل عرابى نفسه ، ويحيله على رياض باشا ــ وزير الداخلية ــ الذى كان يرفض على طول الخط .. بينما كانت المحاكمة تدار بسرعة ..

التآمر على حياة عرابى

◆ وفى ١٢ أكتوبر ، أنذرنى «ديلاوار» بأن حياة عرابى مهددة بالخطر، ما لم نتخذ اجراءات حاسمة .. وقررت مع «بتون» أن نهيب بالرأى العام الانجليزى ، وأن نشن حملة شديدة على وزارة الخارجية وجلادستون نفسه .. وفعلا كتبت رسالة قاسية الى جلادستون اتهمت فيها جرانفيل بكل ما فى نفسى ، وعمل «بتون» على أن تروج «التايمز» لهذه الرسالة ، وأن تتناول الموضوع فى مقالها الرئيسى فى اليوم التالى ..

وفعلت هذه الحملة فعلها فاعترفت وزارة الخارجية بضرورة اتاحة محاكمة عادلة لعرابى وزملائه ، وأمرت ماليت بأن يسحب اعتراضه وأن يعامل المحامين الذين أوفدناهم لعرابى معاملة طيبة .. وكان هذا كفيلا بأن يثير فزع الخديو ، اذ أن المحاكمة العادلة تفضح الاعيبه ، كما تكشف الاكاذيب الرسمية التى بنت عليها الحكومة الانجليزية تصرفاتها .. ولم يكن السلطان أيضا بمنجى من الافتضاح . ومن ثم تلقيت من نابير برقية فى ١٦ أكتوبر بأن من المتوقع ن تتخلص الحكومة المصرية من المحاكمة وأن تدفع كبار المسجونين الى مبارحة البلاد !

وفى تلك الاثناء ، وصل برودلى الى القاهرة وبدأ يعمل بنشاط .. وكان الاتهام ينصح بعدم التعريض بالخديو ولا بالسلطان ، وقد وجهت الاسئلة فى المحاكمة وفقا لهذا الاتجاه الذى كان يلائم أغراض حكومتنا ، اذ أنه

لا يهدم المبررات التى تذرعت بها فى سياستها ضد عرابى ، وفى ادارة دفة الحرب ..

مصير عرابى فى كفة ميزان !

◆ **وفى** ٢٢ أكتوبر ، سمح لبرودلى ونابير بمقابلة عرابى فى سجنه ، ووجدا أن لديه من الاقوال ما يضع أسسا لدفاع قوى .. وقد كتب لهما فى الايام القلائل التالية تاريخا عاما ، وصريحا ، ومقنعا ، لكل المسائل السياسية التى كان له شأن فيها .. وكان أهم نصر لهما أن استطاعا بمساعدة زوجة عرابى وابنه وخادمه ، أن يحصلا على الوثائق التى كانت فى حوزته ، وكانت مخبأة فى مكان أمين لم تستطع أيدى عبيد الخديو أن تصل اليه ! .. وقد كانت هذه الوثائق ذات قيمة عظيمة ، لا سيما وقد كانت بينها الرسائل التى كتبت اليه بأمر السلطان .. حتى لقد كتب لى نابير فى ٣٠ أكتوبر يقول أن الحكومة لا تستطيع أن تواجه دفاعهم ، بأن تعرض صلحا ترد فيه كل ما صودر من أملاك فى مقابل اقصاء عرابى وصحبه عن البلاد ..

ووجد التطور الذى وقع فى القاهرة صدى مضاعفا فى صحف لندن ، واستطاع « برودلى » بما كان له من صلات أن يكسب الصحافة فى صفه .. وعجز ماليت وكولفن عن مقاومة التيار ، فاذا الاسرار تتكشف واحدا بعد الاخر ، ففقد كولفن ثقة وزارة الخارجية ، كما بدا ماليت غير كفء لمركزه .. وجن جنون جرانفيل لما أحرزنا من انتصارات فى القاهرة ، فأوفد اللورد دفرين ليسعى لتسوية الموقف وتفادى الفضيحة .. وبادرت أكتب الى برودلى فى ٢ نوفمبر أحذره من أن دفرين سيحاول اقناع عرابى بقبول أن ينفى الى بقعة فى الامبراطورية البريطانية يبقى فيها كأسير سياسى ويعامل خير معاملة ، كما سيحاول أن يحصل منه على أوراقه ووثائقه ، ونبهت برودلى الى ضرورة احباط الغايتين ، والى ضرورة تشبث عرابى بالمحاكمة ، وبأن تسحب فى المحكمة ــ علانية ــ الاتهامات الموجهة اليه والى صحبه ! كما نبهته الى أن دستور فبراير سنة ١٨٨٢ ــ الذى اعترف به الخديو والسلطان ــ يحرم النفى .. ففى سلطة أى منهما أن يقصيه عن منطقة نفوذه ، ولكن ليس من حقه أن يحدد له مكان النفى الذى يستقر فيه.

الفصل الثامن عشر

بعثة « دفرين »

◆ **كان** الخديو ووزراؤه يعملون فى حرية لاغراضهم ، حتى وصل دفرين الى القاهرة فى ٦ نوفمبر ، فلم يدع للخديو فرصة خداعه بأكاذيبه ، وفتح

أبواب الوكالة الانجليزية لكل راغب فى أن يدلى بمعلومات ، وسرعان ما ألم بفكرة صادقة عما كان يجرى فى مصر خلال العامين الاخيرين ! ٠٠

وحظى برودلى ونابير بمقابلة دفرين مرارا ، وأطلعاه على كل ما كان يدور فى المحاكمة من خدع وألاعيب ٠٠ وفى ١٨ نوفمبر تلقيت برقية من برودلى جاء فيها :

« هناك أمل فى صلح رائع ٠ لا تهاجموا وزارة الخارجية ٠ التكتم التام ضرورى » ٠٠ **ولكن الحكومة المصرية ركبت رأسها ، وراحت تعمل جهرا وفى تحد ، لتدفع برأس عرابى الى المشنقة ٠٠ وراح برودلى ونابير يخوضان المعركة، واستطاعا أن يكسبا عون ولسن ودفرين ، ولكن حكومة الخديو كانت تمضى فى خططها الجهنمية بسرعة عجيبة ٠٠ وأخيرا ، كتب لى برودلى فى ٢٧ نوفمبر ١٨٨٢ يقول ان من الممكن الوصول الى صلح مرض ، على أن ينفى عرابى ومحمود سامى وطلبة الى رأس الرجاء الصالح ، وان يجردوا من رتبهم العسكرية وممتلكاتهم ٠**

وكتب نابير فى نفس التاريخ يبين كيف ان ادارة البريد كانت تفتح الرسائل التى كنت أبعث تعليماتى فيها ، ويشير الى الألاعيب التى كانت تجرى فى المحاكمة ٠٠

وكان حريق الاسكندرية ــ أثر ضرب الاسطول لها ــ هو العقبة الكبرى فى طريق الدفاع ٠٠ فمع ان « نينيه » أثبت أن الحريق نشب نتيجة القنابل والمتفجرات ، الا أن أعداء عرابى استطاعوا أن يثبتوا أن عرابى هو الذى أمر باشعال النيران ! ٠٠ وتعذر على الدفاع أن يحطم الاتهام ٠٠ ومن ثم كان خير حل هو المساومة على نفى عرابى ، ومحاولة احراز منفى مناسب له ٠٠ مع ضمان معاش ملائم له ، وتعويض عن الثروة المصادرة ٠٠ وكان هذا أقصى ما استطاع دفرين أن يعد بدفع الحكومة المصرية على تقديمه ٠٠

وانتهت المفاوضات الى أن يكون المنفى فى جزيرة « فيجى » أو جزر « الآزور » ، بيد اننى تشبثت بأن يكون فى بلد اسلامى ، فجاءنى الرد بأن دفرين يقترح أن يتباحث « ديلاوار » مع وزارة الخارجية فى ذلك ٠٠ وخرج « ديلاوار » من مباحثاته بأن خولت وزارة الخارجية لدفرين أمر اختيار المنفى ٠٠

عرابى فى المنفى

◆ وفى تلك الاثناء كنت أعمل جاهدا فى تدبير نفقات الدفاع ، فقد بلغ ما لبرودلى ٣٠٠ جنيه ، فى حين ان ما استطعت أن أجمعه من اكتتاب لم يتجاوز ٢٠٠ جنيه ، ومن ثم لم يكن فى طوقنا أن نطيل المحاكمة لنكسب موقفا أفضل ، لان اطالتها كانت تتطلب مزيدا من النفقات !

لهذا اضطررنا الى أن نقنع بالنتيجة التى وصلنا اليها ، وان نحصل على قبول بأن تكون « سيلان » هى منفى عرابى ٠٠ اذ يقال انها كانت مقام أبينا آدم بعد أن طرد من الجنة !

على أن احتياطا واحدا ، لا أدرى كيف غاب عن فطنة برودلى : ذلك هو ان نسجل شروط الصلح كتابة ٠٠ فقد أتاح ذلك للحكومة المصرية أن تهين المسجونين وان تخفض رتبهم العسكرية ، وهو ما أوقن من أنه لم يكن من نوايا دفرين ٠٠ كما انه ترك مجالا للنزاع فيما يتعلق بمقدار المعاش والتعويض ٠٠ وكان أكبر المسجونين نصيبا من الضرر هو محمود سامى ، اذ كانت ممتلكاته المصادرة تفوق ممتلكات سواه بكثير ٠٠

والآن اذ أختتم مذكراتى ، لا أدرى ما سوف يكون عليه مستقبل مصر ٠٠ على ان الامة ستبقى حية ، وقد يأتى يوم يتاح فيه للفلاحين أن يحكموا أنفسهم ، واذ ذاك ، سيتبدى لهم الكفاح المسلح الذى جرى فى سنة ١٨٨٢ فى ضوئه الحقيقى ، كفاتحة لحياتهم القومية ٠٠ وهى حياة ستكون محفوفة بالعظمة والمجد ٠٠

تم الكتاب

حوافز الحياة



النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ...

فى هذا الباب قدمت لك فى الاعداد الماضية من كتابى ، الكتب الاتيـة على التوالى : « كيف تصارح اولادك وبناتك بالحقائق الجنسية » ثم « طريق السعادة الزوجية » و « مركب النقص » و « حواء الجديدة » ثم « كيف تقهر الخجل » و« كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة » ..

ثم قدمت لك بعد ذلك من « فنون الحياة » التى شرحها المفكر العالمى « اندريه موروا » : فن الحب ، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الصداقة ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن السعادة ، فن التفكير ، واخيرا فن الاستمتاع بالشيخوخة ..

ثم قدمت لك عقب ذلك سلسلـة فصول كتاب «غزو السعادة» لبرتراند رسل .. فكتـاب فرويد المشـهور «التحليل النفسى» ، يليه «كيف تضاعف من نجاحك فى الحياة» ، ثم «الجنس الاخر» ، و«عش حيـاة ايجابيـة» ، و«ابواب الحب المغلقة» ، و«فن الحب» ، للشاعر الرومانى أوفيد .. ثم «الانتصار على الخـوف» ، للاخصائى المعروف «جيمس بندر»

واليوم أقدم لك الجزء الثـانى من الكتاب العالمى فى «العـلاج الطبيعى» للاخصائى الالمانى الدكتـور «برنارد ديتمار»


LIVE WISELY
LIVE WELL!
By
BERNHARD
DETMAR
(M.D PHD. Berlin)
دكتور
برنارد ديتمار
عِش بحكمة
تعِش سليما!

الصحة ليست هبة ٠٠ وانما هى كفاح !

◆ **يتغنى** الشعراء والفلاسفة بهدوء النفس وقدرة المرء على أن لا يخرج عن وعيه ، حتى لقد دعا بعض الفلاسفة القدماء الى مذهب «عدم المبالاة» ، والواقع أننا لو أنعمنا النظر فى الطبيعة البشرية ، لوجدنا أن «عدم المبالاة» كان مذهب قوم ملوا الحياة، وتاقوا – دون وعى – الى أن يفروا من عالم المظاهر المصطنعة وعدم الراحةوالشواغل المستمرة والانفعالات والآلام ٠٠ وهذه حال لا تزال قائمة فى عالمنا اليوم ٠٠ بيد أن « عدم المبالاة » لا يمكن أن يتحقق الا بالموت ، اذ أن نفوسنا تظل – ما دمنا أحياء – بعيدة عن أن تعرف الراحة ، وكلما تجلت حركتها ازددنا حياة ٠٠ ولا بد أن تتناوبنا عوامل السرور وعوامل الاستياء ، دون أن تكون لاى منها الغلبة على الثانية ٠٠ وكلما ازددنا صحة ، سهل على العقل والروح مغالبة المضايقات والمثبطات السلبية ٠٠

ان الصحة هى السعادة ٠٠ وليست السعادة فى مجرد غياب الالم ، وانما هى فى أن نكون من القوة دائما بحيث نهزم الالم اذا أصابنا ٠٠ فى أن نحول الاستياء الى ابتهاج ، وان نميز الخبيث من الطيب ، وان نخوض المتاعب ضاحكين٠٠ولن يقوى على ذلك الا الصحيح الجسم ، الموفور الصحة ٠٠ ولكن الصحة ليست مجرد هبة ، وانما هى بغية لابد من أن نجدد الكفاح فى كل يوم من أجلها ٠٠ فان التغيرات التى تطرأ على أبداننا تحدث فى بطء وتسلل ، فلا نكاد نتبينها أو نشعر بأثرها فى جهادنا من أجل الصحة ، ولكن النفس هى التى تكشف لنا مدى تقدمنا ٠٠ فاذا شعرنا بالسكينة والهدوء ، كنا ماضين فى الطريق الصحيحة ، وكل اشارة للقلق وعدم

الراحة تنم عن انحراف .. بل هى أكثر من العوارض البدنية دلالةعلى المرض .. وهى نذر لنا كى نرتد الى الطريق الصحيحة .

فالصحة ليست بالشىء الثابت ، أو الذى يقاس بكميته ، وانما هى تعبير عن مدى انتصارنا فى كل مرحلة وميدان فى كفاحنا ضد تكون المرض والقوى الهدامة . ولابد لميزان الصحة من أن يتأرجح ، ولكنه يجب أن لا يتجاوز الوسط فى الهبوط ، وحبذا لو بلغ الذروة فى الصعود .

أهمية النوم .. والراحة الجسمية والنفسية

◆ **ان** الحركة ضرورية للنفس ضرورتها للجسد .. فالنفس التى لا تغضب للحق أو تثور ضد الظم نفس مريضة .. وحبذا الذى لا يحفل بأهله ، ولا يصل رحمه ، ولا يعنى بأخوته فى الانسانية ، راضيا بأنانيته عاكفا عليها، لا يعد من الاحياء .. والذى لا يعرف الحزن لا يعرف الفرح !

يجب أن نستعين بكل قوة وكل عاطفة فى كياننا فى صراعنا ضد الهنات والاخطاء والمرض ، ضد كل شر فى أعماقنا وخارج كياننا .. ومن أجل هذا تتطلب الحياة الحركة ، على أن تكون حقيقية لا زائفة، اذ بهذا تصبح الحركة سلاحا فى سبيل الصحة ..

وكل حركة جسدية ونفسية تستهلك من نشاطنا ، ومن ثم فلابد من أن نعوض ما ينقص بالراحة .. يجب أن تعقب الراحة والاستجمام كل توتر وارهاق .. ومهما كانت فترات الراحة فى النهار ، فان راحتنا الكبرى ، والرئيسية ، هى راحة الليل : النوم .. فهو من أهم الوسائل لاستبقاء الصحة والشباب ، اذ أن خلايا الجسم التى ينهكها عمل النهار ، تعيد نشاطها وتجدد قواها أثناء النوم ، فان أعضاء الجسم تكف عن العمل ، أو هى لا تعمل الا القليل ، أثناء النوم ، وتتحرر أجهزة الحس والمخ من التأثيرات العديدة النواحى التى تتعرض لها بالنهار .. ومن ثم تجد الخلايا الفرصة للانصراف الى الاصلاح والتجديد .. وكثيرا ما تكون الاحلام ضرورية لتحرير الروح من الضيق والارهاق ، ولتسوية كثير من المعارك التى تدور فيها ، ولانضاج الافكار التى لم تستكمل النضوج ..

لهذا كان لابد من أن يكون الفراش مريحا ، وان تكون الطبقة التى تحت الحشية « الملة » يابسة ، أو تكون الحشية ذاتها محشوة بالقش حشوا تاما .. ومن الخطر ان يبدأ الانسان فى فقدان النوم بسبب عادات خاطئة فى أسلوب حياته ، فالنوم المضطرب من نذر الطبيعة ، ويجب المبادرة الى علاجه . وسأورد

فيما بعد خير الطرق لذلك ٠٠ ومن الخطأ التام أن يتخيل المرء ان فى وسعه أن يفرض النوم على نفسه بقوة الارادة أو بالعقاقير ، فان الارق دليل على اضطراب مؤكد فى الجهاز العصبى الاوتوماتيكى الذى يحكمنا ولا يخضع لرغباتنا ٠ واذا لم يتيسر للمرء النوم ، فليس أقل من أن يستريح مغمضا عينيه ويطلق نفسه على سجيتها وطبيعتها دون أى قيد ٠ وهذا نوع من الراحة تتسنى ممارسته فى كافة الاوقات ، ومن ثم يحسن ممارسته كثيرا ، حتى فى **النهار ٠٠ ولا ينبغى أن نتجاهل شعورنا بالتعب ، وانما يحسن أن ننعم بالراحة ساعة أو نصف الساعة أثناء النهار ، لا سيما بعد الغداء ٠٠ وفى حالة الارهاق الشديد أو التعب الشديد ، يجدر بالمرء أن يستلقى فى الفراش من وقت لآخر ستا وثلاثين ساعة ـ أى ليلتين ونهار على التعاقب ـ ولا يجب أن يتناول طعاما فى الفراش ، فالسرير للنوم فقط ٠٠**

وفى حالات الارهاق يحسن أن نلوذ بالصمت ، فلا نتكلم الا حيث يكون الكلام ضروريا فى معركة الحياة ٠٠ فالصمت راحة واستجمام للعقل ٠٠٠ ولو استطعنا أن نلزم الصمت المطلق ساعة واحدة فى كل يوم لكان لهذا أثر عظيم فى الاستجمام ٠٠ فتناوب الراحة والحركة ـ بالقدر المعقول ـ من عوامل الصحة العظيمة القيمة ٠٠

المـاء من أهم عناصر العلاج

◆ **عرف** الماء واستخدم مذ عرف الانسان الحياة لاول مرة ٠٠ والاستحمام والاغتسال من طقوس الدين لدى كثير من الشعوب الشرقية ٠ وقد كان قدماء الالمان يقوون أجسادهم بالحمامات الباردة ٠٠



والعلاج بالماء معروف منذ القدم ، ولكنه اتخذ شكلا علميا منظما منذ أواخر القرن السابع عشر على أيدى بعض الاطباء الالمان ، وغير الاطباء ٠ **ومن أشهر هؤلاء « فنسنت بريسنتز » ـ الذى عاش بين سنتى ١٧٩٩ و١٨٥١ ـ اذ كان فى صغره راعيا فى جبال بوهيميا ، فلاحظ أن غزالا أصابه طلق نارى، واعتاد**

أن يرد جدولا يغسل فيه جرحه كل يوم ٠٠ وتبين ان العرج الذى غلب على مشية الساق كان يقل يوما بعد يوم ، حتى تلاشى تماما ٠٠ كذلك كان يشاهد الفلاحين يلفون الماشية المحمومة فى قماش مبلل ٠ وجرح أصبعه يوما ، فأخذ يعالجه بغسله مرارا بالماء البارد ٠٠ ومن ثم أقبل يعالج الناس بالماء البارد ، وظل عشرين عاما يمارس هذا العلاج ويعمل على تحسينه حتى بلغ الذروة ٠٠

وكانت طريقة « بريسنيتز » تتلخص فى الغسيل والضمادات المبتلة « كمادات » والحمامات بالمياه الباردة والبقاء فيها حتى تدفأ ٠ وكان الغسيل – جزئيا أو كليا – يتم بالاسفنج أو باليد ٠ أما الضمادات المبتلة فهى على نوعين : ملطفة ، ومهيجة ٠٠ وفى الاولى تبدل الضمادة بأخرى بمجرد أن يسرى اليها الدفء ، عدة مرات ٠٠ أما فى الثانية ، فتترك الضمادة الباردة الى أن تدفأ وتجف ، ولو استغرق ذلك أياما ٠٠ وهناك « كمادات » للبطن ، وأخرى للاقدام – هى عبارة عن جوارب مبللة – وغيرها للرأس ، وللجبين ، وللرقبة ، وللساعد ، ولليد ٠٠ وكان الاخصائى المذكور يستعمل للكمادات الكبيرة أقمصة أو جلاليب مبللة ، أو ملاءات غطست فى الماء ثم عصرت عصرا شديدا ، كى تلف حول الجسد باحكام ٠٠ فضلا عن نوع خاص من الكمادات تسمى « كمادات المشى » وهى عبارة عن صديرى وسروال مبتلين ، يرتديهما المريض فوق اللحم ، ثم يرتدى فوقهما ثيابه ٠٠

أما الحمامات فنوعان : جزئى وكلى ، وكلاهما بالماء البارد ٠٠والحمامات الجزئية أما لنصف الجسم ، واما للعضو الواحد ، فهناك حمامات لليدين ، وأخرى للقدمين ، وثالثة للعينين ٠٠ وكان « بريسنيتز » يبنى علاجه على نظرية العصارات الجسدية ، فكان يرمى الى طرد العصارات الضارة بالعنف ، وذلك باصطناع حالة حمى ، بتدفئة الجسم حتى يتفصد منه العرق ، ثم يعقب ذلك حمام بارد جزئى أو كلى ، فرياضة عنيفة كالسير مسافة طويلة ، أو تسلق الجبال ٠٠ ثم حمام بالهواء ، يتلوه حمام شديد البرودة ٠٠ فتدليك مستمر للجسم ، تبرد الضمادات المستعملة فيه تدريجيا ، حتى يرتعش الجسم ٠٠

وفى حالات الحمى الحادة كان « بريسنيتز » يستخدم الحمام النصفى لامتصاص الحرارة من الجسم ٠٠

للعلاج بالماء أساليب متنوعة ٠٠

◆ **ومن** الحمامات العلاجية ما كان يجمع بين الهواء والماء ، فيستلقى المريض أو يجلس عاريا الى جانب نافذة مفتوحة ، وقد التف فى قماش مبتل ، يدلك من فوقه باستمرار ، بينما يصب الماء البارد على رأس المريض وأجزاء جسمه ، كلما بدأ يدفأ ٠٠

وكان « بريسنيتز » يعالج جميع الامراض والحميات والاوبئة المعدية بالماء .. وكان يقول : « ان مهمتنا هى ان نعالج المريض لا الداء .. نعالج قوة حيويته ، وارادته ، ونشاط أعضائه ، وتكوين دمه .. ولما كانت هذه العوامل تختلف من مريض الى آخر – ولو كان المرض واحدا – لذلك كان لابد ان تتباين أساليب العلاج ..

وفى بافاريا ، كان ثمة طبيب آخر ابتدع للعلاج بالماء أساليب أخرى .. ذلك هو « سباستيان نيب » ، الذى ولد فى سنة ١٨٢١ وبدأ حياته عاملا فى مزرعة ، ثم ساق له القدر قسا علمه ، فأقبل على دراسة اللاهوت ، حتى أوهن التحصيل جسده وأصيب بنزيف رئوى ، وانتهى الامر بالاطباء الى القنوط من شفائه، وفى تلك الاثناء وقع فى يده كتاب عن العلاج بالماء ، فجرب ما جاء فيه ، وتعود أن ينطلق جاريا فى ظلام الليل بضعة أيام الى نهر الدانوب ، فيقفز الى مياهه الثلجية فى الشتاء ، ثم يخرج فيرتدى ثيابه بسرعة ، ويعود الى البيت فى جرى قصير – أو ما يسميه رجال الرياضة « خطوة سريعة » – واستمر على ذلك بضعة شهور أحس خلالها بتحسن مطرد فى كل يوم ، حتى شفى تماما !

وشجعه هذا على المضى فى دراسة التأثير العلاجى للماء على الجسد ، فشفى زميلا له بهذه الطريقة .. وما ان أصبح قسا فى سنة ١٨٨٠ حتى كان صيته قد ذاع ، واستطاع أن ينشىء مصحة للعلاج بالماء ظلت تتسع وتنمو ، وبقيت بعده الى الآن وتتلمذ عليه كثير من الاطباء

وكان الاغتسال بالماء البارد ، سواء فى الحمام أو تحت « الدش » ، أول وأهم شىء فى أسلوبه العلاجى – وكلما ازدادت برودة الماء ، وجب أن يقصر أمد استعماله – وكانت صنابير أو أنابيب الماء تتباين ، لتلائم مختلف الامراض ومختلف درجات القدرة على احتمال البرودة .. كما كان هناك نوع من « الدش » للركبة ، وآخر للخاصرة ، وغيره للجزء العلوى من الجسم ، أو للوجه ... الخ

ولا تزال طريقة « نيب » تستخدم الى الان ، وان أدخلت عليها تحسينات وتجديدات لا حصر لها ، منها « الدش » البارد والساخن بالتعاقب ... ولا يزال فى الماء كثير من القوى العلاجية لم تتضح حتى اليوم .

الطريقة الصحيحة للعلاج بالماء

أولا : يجب أن يكون المريض دافئا عند البدء ، ويجب أن يضمن له الدفء بعد كل مرة .. وأسهل وسيلة لذلك هى أن يبدأ العلاج عند مغادرته الفراش ، ثم يرتد الى الفراش بمجرد فراغه منه مباشرة .. ولكن

يستحسن البدء ببعض التمرينات الرياضية التى تفرز العـــرق ، وكذلك الامر عند الانتهاء ..

ثانيا : **يجب أن يبدأ العلاج بمجرد خلع الثياب** ، فان أى تلـكؤ يضر بالجسم نظرا لتبـدد الدفء .. كذلك يجب عدم تجفيف الجسم بعد العلاج ، بل يلجأ المريض الى فراشه فورا ، أو يرتدى ملابسه فى الحال ، ثم يمارس تمريناته الرياضية وذلك لحمل الجسم على أن يتخلص من المـاء لذى تبقى عليه بتبخيره بالحرارة البدنية التى لا تتولد الا بانتظام الدورة الد.وية واسراعها .. فاذا لم يشعر المريض بالدفء ، أو أحس ببرودة أو ارتعاش بعد نصف ساعة من انتهاء العلاج ، وجب أن يعدل عنه الى طريقة أخرى يحددها له الطبيب .

ثالثا : يجب تبين رد فعل الجسم لتـــأثير الماء عليه .. ويكون رد الفعل طيبا اذا احمر الجلد بسرعة وشدة ...

رابعا : تمارس طريقة ((نيب)) للعلاج فى غرفة حرارتها معتدلة .

الاغتسال علاج للحمى

◆ **اغمس** فوطة يد - مطوية الى أربعة - فى الماء البارد ، ثم اعصرها حتى لا تعود تتساقط منها أية نقط .. ومن الممكن فى حالات معينـــة أن يستبدل الماء البارد بماء فاتر ، أو حار ، أو ساخن .. والماء يكون باردا فيما بين درجتى ٥ و ١٢ مئوية ، وفاترا بين ١٢ و ٢٣ ، وحارا بين ٢٣ و ٣٦ ، وساخنا فوق هذه الدرجة .. على أن لاعتبـــار المريض واحساسه أثرا كبيرا فى هذا الصدد ، فالماء الذى يعتبره مريض باردا ، قد يبـــدو لاخر فاترا ، ولثالث شديد البرودة .. الخ

وتختلف اجراءات الاغتسال تبعا لما اذا كان المريض فى الفراش أو خارجه . على أنه يستحسن أن يكون الاغتسال فى الفراش حتى لا يفقـــد الجسم دفئه ، فتغسل كل ساق على حدة وترد الى الفراش الدافىء مباشرة .. ثم تغسل البطن والصـــدر ، وينام المريض على وجهه ليغسل الظهر .. وفى هذه الحالة أيضا ، يبدأ بالجزء الايمن ، ويعقبـــه بالايسر .. وبعد ذلك يغطى المريض فيما عدا ذراعيه ليغسلا ، الايمن أولا ثم الايسر .. ولا ينبغى أن تستغرق العملية كلها أكثر من دقيقتين ..

وهذه العملية جديرة بأن تعود بفائدة عظيمة فى حالات الامراض المعدية الحادة ، ويمكن تكرارها من عشر الى عشرين مرة فى الاربع والعشرين ساعة ، تبعا لارتفاع درجة حرارة المريض ، على أنه يتفصد عرقا فى العادة بعد مابين ثلاث وست مرات ، مما يخفف حرارته ... الا أنه لا ينبغى الاسراف فى مقاومة الحرارة ، فهى عامل هام فى الشفاء ..

الضمادات « الكمادات »

◆ **تتألف** كل ضمادة من ثلاث طبقات : الطبقة العليـــا من قماش من صفوف ، تليها طبقة من التيل ، فطبقة ثالثة – هى الضمادة الحقيقية – من تيل أيضا .. وهى التى تبلل بينما تبقى الاخريان جافتين ... وتوضع الضمادة حول الجزء الذى يجرى علاجه من الجسد . ويجب أن تكون كل طبقة أعرض من التى تحتها بحوالى نصف سنتيمتر من الجانبين .. على أنه فى حالة الرغبة فى التخلص من الحرارة يمكن الاستغناء عن الطبقتيــن العلويين ، وأن لا تعصر الضمادة عصرا تاما . والضمادة القصيرة تمتد من الابط حتى منتصف الردف ، ويجب أن يكون جسم المريض دافئا قبــل وضعها ، وأن لا ترفع عن مكانها ، وأن تحفظ حرارة الجسم بزيادة الاغطية .. وأن تكون الضمادة مستوية لا تتخللها أية انثناءات أو تجعدات ..

وهناك ضمادة العجز ، وتوضع من أسفل الضلع السفــلى الى منتصف الردف .. وضمادة الصدر ، من الابط الى مستوى الضلع السفلى .. ولا يعنى القارىء هنـــا أن نمضى فى الحديث عن الضمادات « الكمادات « وكيفية اعدادها واستعمالها ، لانه لا ينبغى استعمالها – فى أية حال – بدون مشورة أخصائى فى العلاج الطبيعى ، يفحص حال المريض ويحدد مدى استعداده ، ونوع الضمادة اللازمة لاجتذاب العرق من جسمه وتخفيف حرارته ..

والواقع أن الضمادات والغسيل من أكثر أساليب العلاج نفعا فى جميع حالات المرض .. ويؤثر عن البروفيسور « شونينجر » الطبيب الخاص لبسمارك أنه كان يقول : « ان قطعة من القماش المبلل فى يد طبيب حاذق ، أفضل من مخزن للادوية بأكمله ! »

على أننا نكتفى باستعراض سريع لتأثير الضمادات المدرة للعــرق أو التبخير .. ففى حالة ارتفاع حرارة الجسم ، تجتذب الضمادة المبتلة الدم الى الجزء الذى تغطيه .. واذا كان التبخير مطلوبا ، فان الضمادة تترك حوالى الساعة أو الساعة والنصف حتى تجف تماما .. والضمادة القصيرة من أفضل أنواع الضمادات لاستدرار العرق ، ولتعجيل العملية يحسن اعطاء المريض بعض المشروبات الدافئة كالينسون أو التيليو أو ما اليها . وبمجرد نزع الضمادة ، يجب غسل جسم المريض بسرعة بالطريقة السالف شرحها ، أو مسحه – مع شىء من التدليك – حتى يجف .. وكلما كانت حرارة الجسم عالية ، وجب أن تزداد برودة الضمادة ...

الحمامات بالماء البارد والماء الساخن

◆ **الحمامات** قد تكون شاملة ، أو تكون جزئية .. باردة ، أو دافئة ، أو ساخنة .. ويستغرق الحمام الكامل بالماء الدافىء خمس عشرة دقيقة فى المتوسط ، وعادة يضاف الى الماء بعض الاعشاب ، أو ملح الطعام .. ويمكن تنويع حرارة الماء خلال الحمام تبعا لامر الطبيب . وهذا النوع من الحمامات ذو أثر مريح للجسم ومهدىء للاعصاب ، ولكن كثرة التكرار تفقده هذا الاثر ، ولذا لا يلجأ اليه – علاجيا – الا عند الضرورة ..

أما الحمامات الباردة الشاملة ، فلا يجب أن تزيد مدتها عما بين خمس وعشر دقائق .. وتكرارها يقوى طاقة الجسم على الاحتمال والمقاومة ..

وفى حالة الحمام الساخن يجب أن تكون حرارة الماء حوالى ٣٦ أو ٣٧ درجة مئوية ، ثم ترفع تدريجيا بقدر احتمال المريض .. أثناء الاستحمام .. ولمضاعفة تأثير هذا النوع من الحمامات يجب أن يحك الجسم – فى الماء – بفرشاة جافة الشعر ، حكا جيدا .. وفى حالة الشعور بأى انفعال ، يوقف الحك ، وترطب الرأس والصدر بالماء البارد .. ويستحسن وضع « كمادة » باردة على الجبين ، ويجرى تغييرها عدة مرات ..

ويجب أن يستغرق الحمام ما بين ثلث الساعة والساعة الكاملة ، ويستطيع الانسان أن يتعوده تدريجيا .. وهو طريقة أكيدة لاستدرار العرق ، ويحسن أن يأوى المريض بعده مباشرة الى فراش توفر فيه الدفء من قبل ، فيلتف فى الاغطية التفافا محكما ، بدون أن يجفف الماء عن جسمه .. فاذا أريد ايقاف العرق . ففى وسع المريض أن يأخذ «دشا» باردا ، أو يمسح جسمه بفوطة باردة – كما أوضحنا فى طريقة الاغتسال – أو يقتصر على تجفيف جسمه ...

والحمامات الباردة ، كالدافئة والحارة ، يمكن أن تكون شاملة للجسم كله ، أو جزئية .. وثلاثتها عظيمة القيمة فى محاربة المرض ، وفى المكافحة للاحتفاظ بالصحة . بل هى من اللوازم الصحية اليومية .. والحمامات الدافئة والساخنة توصف عادة للمسنين أو ضعاف البنية ، على أنه لا يجب أن ننسى أن التعود التدريجى على الماء البارد لا يضر .. أما الحمامات الساخنة المتزايدة الحرارة – تبدأ عند درجة ٣٧ مئوية ثم ترفع تدريجيا بقدر احتمال الجسم – فتوصف فى حالة ضيق الاوعية الدموية «ارتفاع الضغط» أو تيبس الاطراف .. على أنها لا يجب أن تمارس دون مشورة طبيب ..

حمامات البخار

◆ **يستخدم** فى العلاج بالبخار ، الماء المغلى الذى تضاف اليه بعض الاعشاب فى الغالب .. فيصب ما بين جالونين وثلاثة جالونات ونصف الجالون فى حوض خشبى تعلوه شبكة من الخشب وفوقهما غطاء خشبى أيضا ...

ومن أهم حمامات البخار حمام الرأس .. فيجرد الجزء العلوى من الجسم من الثياب ، وتوضع على الرأس ملاءة من التيل ، فوقها بطانية صوفية مسدلة حتى تصل الى الارض .. ويوضع الحوض الخشبى على مقعد أمام المريض ، تحت أطراف الملاءة والبطانية ، ثم يرفع الغطاء عنه ، ويميل المريض فوقه ، ولا يجب أن يترك البخار يتسرب من تحت الملاءة والبطانية . .. وعلى المريض أن يتنفس بعمق ورأسه منحنية فوق البخار ما بين عشر أو عشرين دقيقة .. ويعقب ذلك مسح جسمه بفوطة مبللة باردة ـ بالطريقة التى شرحناها فى الاغتسال ـ أو يأخذ حماما باردا للنصف العلوى مدة عشر ثوان .. ويوصف حمام البخار للرأس فى حالات التهاب الجيوب الانفية أو فى منطقتى الجبين والفك ، أو نزلات البرد فى المسالك الهوائية ..

وهناك حمام البخار للبطن ، وفيه يوضع الماء المغلى فى وعاء مثل « القروانة » ، ويخلع المريض ثيابه السفلية ، ثم يجلس فى بطء واحتراس ، ويحاط الوعاء بملاءة من التيل فوقها بطانية لعدم تسرب البخار ، ويستغرق الحمام ما بين عشر وعشرين دقيقة ، يتبعه اغتسال بالفوطة الباردة ، أو حمام نصفى .. وتوصف هذه الطريقة فى حالة وجود اختلال فى البطن كتصلب عروقها ، وكالامساك .

ليس العلم الها بل هو صنيعة البشر

◆ **ومن** المهازل الباعثة على الاسى ، ان دعاة العلاج الطبيعى كانوا موضع حملات اضطهادية من أساتذة الطب والعلماء ، لان هؤلاء فى الواقع أسرى الاساليب التى لقنوها ، وأسرى ما يسمونه العلم ، يؤمنون به كما لو كان الها يجب اطاعة أوامره !... وفى هذا العنت والتزمت العلمى يكمن الشر ، فالعلم ليس الها ، بل هو من صنع البشر .. فى حين أن البشر من صنع الله ، فهم أبناء الطبيعة .. وكما أن خلق الله فوق خلق البشر ، فكذلك يجب أن تبقى الطبيعة خير ذخر وكنز للبشر .. وأن تظل أستاذنا الاكبر .

اننا نجل العلم ، ومذهبنا يقتضى أن نوفق وننسق بين العلم والطبيعة . ولقد وفرت الطبيعة الماء في متناول أفقر أبناء البشر ، وهو وسيلة من

وسائل الصحة والعلاج .. وهناك مائة طريقة لاستعماله ، ولكنا يجب أن نستعمله عن فهم .. فالمرضى يجب قبل كل شىء أن يستشيروا طبيبا ، يكون ممن آمنوا بفوائد الماء العلاجية وتوفروا على دراستها ، فان الاستعمال الخاطىء قد يؤدى الى ضرر ...

العلاج الطبيعى يجب أن يبعد عن الارتجال

◆ **وان** الخبرة والتجربة اللتين مرتا خلال المائتى العام الاخيرة ، كفيلتان بأن تؤكدا أن من الممكن ممارسة العلاج بنجاح سواء بالهواء ، أو الشمس ، أو بالتدريبات الرياضية والتدليك أو بالماء .. بيد أن هذا جدير بأن ينبهنا الى أهمية عدم الاقتصار على احدى هذه العوامل دون بقيتها .. كما يجب أن يبصرنا الى أهمية أساليب العلاج الاخرى ، كالجراحة وكتنظيم الغذاء « الرجيم » ..

لقد كان « نيب » من أهم أقطاب العلاج بالماء ، ومع ذلك فقد كان لا يفتأ ينبه مرضاه الى أن يجمعوا بين هذا العلاج وبين الاقتصار فى طعامهم على الخضر ، والاقبال على الرياضة ، وتقوية أجسامهم بتعريضها للهواء الطلق . وكان يقول انه لو لم يجد الماء لاستخدم الهواء كعنصر علاجى . ذلك أن الطبيب الطبيعى لا يجب أن يفضل عنصرا على آخر فى العلاج .. **فالشمس لا تقل أهمية عن الماء للمريض أو السليم على السواء ، والطبيب هو الذى يقرر أيهما أصلح للحالة التى أمامه .. ولكى نفهم هذا ، أذكر القارىء بما سبق أن قلت فى البداية من أن المرض لا يجب أن يعتبر مجرد ظاهرة موضعية ، قاصرة على العضو أو الجهاز المصاب ولا أثر لها على بقية الجسم .. بل ان كل عرض من أعراض المرض انما ينم عن مرض الجسم كله ، لذلك لا ينبغى أن نعالج الظاهرة الموضعية ، وانما نعالج المريض كوحدة كاملة ، وذلك أن ننشط القوى الدفاعية فى كيانه ونضاعف كفاءتها الى أقصى درجة .. وهذا يتسنى بتنظيم وتحسين الدورة الدموية ، وتنشيط تجدد الخلايا ، وهما أمران مرتبطان ، فكلما أسرعت دورة الدم فى أعضاء الجسم كلما أسرع تخلص الخلايا كلها من الاجزاء التالفة فيها وانشاء بديلة عنها .. وبهذا تزداد كفاءة جميع أعضاء الجسم ، ولا سيما الجلد والرئتين والقلب والكبد والكلى ، فيستعيد الجسم صحته.**

واستعادة الصحة ـ أو الشفاء ـ لا تتسنى اذن الا اذا نشطنا قوى الدفاع فى الجسم وأطلقناها فى المعركة .. ولما كانت هذه القوى تستهلك فى سياق الحياة وئيدا ، لذلك كان خليقا بنا ـ ان شئنا ان نعيش طويلا ـ ان لا نستخدم قوة الحياة فينا الا عند الضرورة القصوى ، وان نتجنب كل ما لا لزوم له في صون الصحة والكفاءة . فمن الخطأ الاسراف والتقتير ، والتطرف والاحجام

على السواء ‥ فالمرء السليم ـ أو المريض الذى استكمل الشفاء ـ لا يجب ان ينتهج من أساليب التقوية الا بالقدر الذى يكفى لتفادى أى مرض فى المستقبل، وكل فائض عن ذلك قد يضر ‥

ومن ثم كان لزاما على المريض ـ بالتـــالى ـ ان لا ينال من العلاج الا ما هو ضرورى لشفائه فحسب ، وان ينسق موارده فى ذلك . فمن الخطأ أن يخال المريض ـ الذى يعالج بالماء ـ ان من الممكن التعجيل بالشفاء اذا هو نال من العلاج فوق استعداده واحتماله ، أو اذا أطال أمد فترات التعرض للماء فى أى مناهج العلاج . فهو لن يجنى من هذا غير الضرر ‥ والامر كذلك بالنسبة للاستمرار فى العلاج بعد تحقيق الشفاء ‥ بيد انه يجوز له ـ فيما بعد ـ أن يأخذ بعض « العلاج الوقائى » من حين الى آخر ، وبطرق خفيفة يصفها الطبيب ويحدد مواعيدها ‥ وهذا الذى قلته عن الماء ينطبق على العناصر الاخرى كالشمس والهواء والرياضة البدنية فان فن الطبيب والمريض ـ على السواء ـ ينحصر فى ممارسة الاعتدال فى كل الحالات ، والتزام الوسط فى كل الامور

والذى يهمنى أن أنبه اليه بوجه خاص، هى ان مهمة اختيار العلاج الطبيعى، وطريقته ، من حق الطبيب وحده ‥ فهو الذى يستطيع ان يقدر أى عنـــاصر الطبيعة يصلح للعلاج ، والقدر اللازم منه بحيث اذا تجاوزه العلاج انقلب الى ضرر ‥

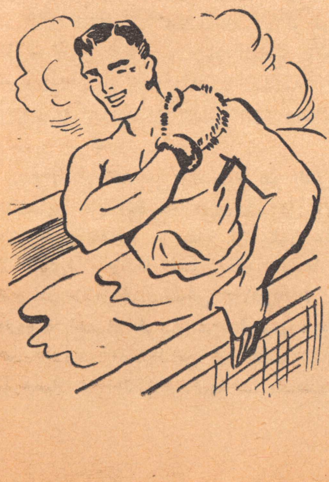
ولقد دلت التجارب على أن العلاج بالماء يجب أن لا يؤخذ كشىء ثانوى فى حالات المرض الحادة ، بل يجب على المريض أن يعتزل العمل الذى يمارسه خلال فترة العلاج ، سيما اذا كان هذا العمل ذهنيا ، لان الاعمال الذهنية تستنفد القدر الاكبر من طاقة الانســـان ، وبالتالى تستنفد حرارته الحيويـــة ‥ وفى هذه الحالة يكون العلاج بالماء جهد يضاف الى جهد المريض الذى يبذله فى عمله ، فخليق به ان يكف عن العمل لكى لا يرهق جسده ويستنزف طاقته

المـــاء كعلاج للانفلونزا و نزلات البرد

◆ **وأمر** آخر من الامور الهامة التى تبينتها خلال عشرات السنين ، يتمثل فى ان من الواجب ان يفهم الطبيب والمريض على السواء العلاج الطبيعى ، ان أريد له أن يجدى ، فليس العامل الحاسم فى العلاج هو المرض نفسه ، وانما هو تكوين جسم المريض وحالته عند تشخيص العلاج ‥ أو بالاحرى ، رد فعل الجسم بالنسبة لاسلوب معين من العلاج ‥

ولقد ازددت اقتناعا ، عاما بعد عام ، خلال السنين الثلاثين التى قضيتها كطبيب ، بأن الماء يستحق المكانة الاولى بين وسائل العلاج الطبيعى ، فهو متوفر فى كل وقت وفى كل فصل ، وهو صالح للكبار والصغار على السواء، وهو ناجع فى معظم الحالات ٠٠ ولنأخذ الانفلونزا ، أو النزلة الشعبية مثلا ، فاننى أعالج المريض بأى منهما بالاغتسال الكامل – بطريقة الفوطة المبللة – من ثلاث الى عشرين مرة خلال الاربع والعشرين ساعة ، تبعا لدرجة حرارته ٠٠ وغالبا ما يبدأ العرق يتفصد من جسد المريض بعد المرة الثالثة فتهبط حرارته قليلا ، فاذا لم يشف بالسرعة التى قدرتها له ، فاننى أضيف الى الاغتسال « ضمادة قصيرة » كل يوم – بالطريقة التى أوردتها آنفا – لزيادة العرق ٠٠ وآمر له بكوبين أو ثلاث من التيليو أثناء وضع الضمادة للمساعدة على افراز العرق ٠٠ فاذا رفعت الضمادة غسل جسم المريض بالفوطة المبتلة بسرعة ٠٠ فيكون شفاؤه مؤكدا فى خلال يومين أو ثلاثة على الاكثر ٠٠

واذا كان الانسان يشعر بتوعك – دون أن ترتفع درجة حرارته – أو كان يشعر ببرد ورعشة ، فيحسن به أن يأخذ حماما ساخنا – ترفع درجة الماء فيه رويدا – لمدة تتراوح بين عشرين وأربعين دقيقة ، وان يحك جسده بفرجون خشن وهو فى الماء حتى يتفصد منه العرق ثم يغتسل بطريقة الفوطة الباردة بسرعة ، ويندس فى فراشه بعد أن يكون قد دفىء بزجاجات الماء الساخن ٠ ويمكن تكرار هذا يوميا – بل يمكن تكراره مرتين فى اليوم ٠٠ ومن الطبيعى أن الانسان يجب أن يلزم الاعتدال فى الامور الاخرى ، فيقتصر فى الغذاء على الفواكه ، وعلى عصائر الخضر والفواكه ٠



ومن الناس من يقتصر على غسيل وجهه ويديه بالماء الدافىء ٠٠ وهذا خطأ ، اذ لابد من استعمال الماء البارد يوميا ، ولا يكفى غسيل الوجه واليدين، بل يجب أن يمتد ذلك الى الجزء العلوى من الجسم والذراعين على الاقل ٠٠ والافضل أن يشمل الجسم كله ، على أن يلى ذلك مباشرة بعض التدريبات

الرياضية ، أو المشى ، أو ممارسة بعض الاعمال التى تتطلب حركة بدنية لفترة تتراوح بين خمس وعشر دقائق . ولست أحبذ استعمال الصابون - الا اذا كان الجسم متسخا - لان للصابون أثرا مضرا على البشرة اذا أسرف فى استعماله ..

وليس من الضرورى غسل الجسم كله يوميا ، بل تكفى مرتان أو ثلاث فى الاسبوع .. أما الايام التى لا يكون فيها حمام مائى ، فيحسن أخذ حمام هوائى مع شىء من التمرينات الرياضية ، ومع التدليك الخفيف لفترة تتراوح بين خمس دقائق وربع الساعة .

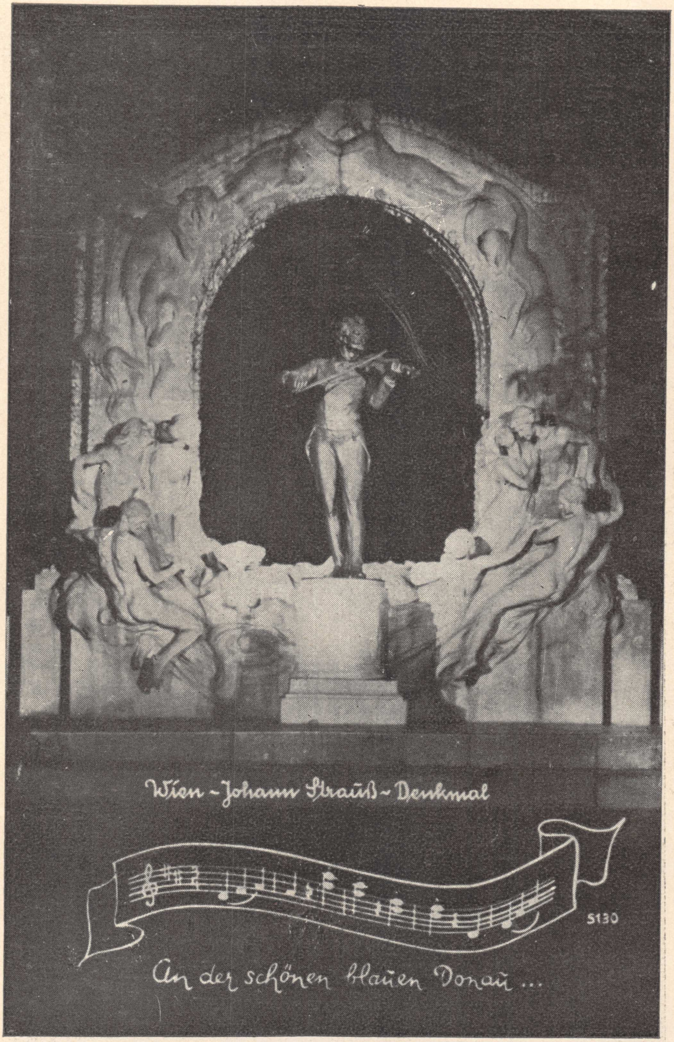
أن الطبيعة لا تتقاضانا كثيرا فى مقابل الصحة والقوة . ولكن القليل الذى تتطلبه يجب أن يؤدى بدقة وعناية .

وعلاج كل مرض يستلزم علاجا اضافيا للنفس ، فالنفس لا تنفصل عن الجسد ، وقد تقدم العلاج النفسى - لا سيما لذوى الاعصاب المكدودة - حتى أصبح له فرع خاص فى الطب ..

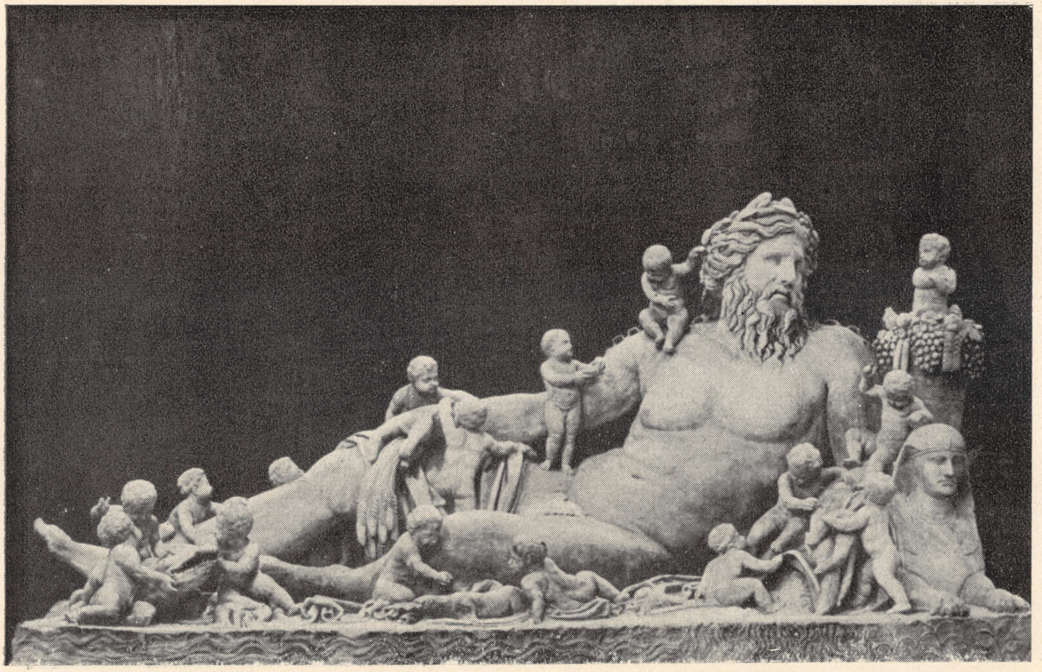
أهمية العلاج الطبيعى

◆ **تعرف** أساليب العلاج الطبيعى التى أوردناها باسم « العلاج الحيوى » ، لانها تتمشى وما كشف عنه علم الاحياء الحديث ، من أن الطبيعة الحية «الكائنات العضوية » تخضع لقوانين تختلف عن تلك التى تسود عالم غير الاحياء « غير العضويات » فى الطبيعة والكيمياء ، ومن ثم فان الطب الحيوى لا يعترف - فى علاج الامراض - بغير قوانين الكائنات الحية ، فينبذ ما يقوم خارجها من أساليب للعلاج ، كفصد الدم ، أو حقن المريض بدمه ، أو استخدام «اللزقة» أو « كأس الهواء » ، أو العلاج بالكى بالنار ، وما الى ذلك ، فهذه كلها أساليب تعمل عملا معارضا للطبيعة . وهى قد تكون عاملا مساعدا فى العلاج، ولكنا لا ينبغى أن ننسى انها وسائل مصطنعة لتهييج أو اثارة أو تنشيط العضو المريض

والعلاج الطبيعى الصحيح هو الذى يهدف الى اصلاح الاشخاص الذين بعدوا بأنفسهم عن الطبيعة ، وردهم الى الانسجام معها .. ومن ثم فان استخدام الادوية والعقاقير لا يعدو أن يكون عاملا مساعدا فحسب ، لانها فى حد ذاتها لا تبرىء ، وانما الذى يحقق الشفاء هو التركيب الجسمى للمريض . واذا لاح ان الامراض تشفى بالادوية ، فهذا الشفاء الزائف انما يرجع الى ان الادوية أجسام غريبة عن الجسم ، ومن ثم فانه يعمل على طردها ، فتنشط قواه بدرجة تمكنها من أن تغلب الداء . بيد ان الاستعمال المنتظم للادوية - فضلا عن الافراط فيها - يضعف قوى المقاومة فى الجسم حتى تنهار ..



الصرح الفنى والتمثال الرائع الذى أقيم فى احدى حدائق (فيينا) عاصمة النمسا ، تخليدا لذكرى الموسيقى الخالد « يوهان ستراوس » صاحب الحان « الفالس » المشهورة



تمثال رمزى يمثل نهر « النيل » الخالد

(متحف الفاتيكان بروما)

ولا ينبغى أن تدرج الجراحة مع غيرها من أساليب العلاج ،فهى وسيلته للانقاذ فى وقت الحاجة ٠٠ وقت أفضى بالانسان فيه غباؤه الى موقف لا مخرج منه الا بحد المبضع ٠٠ أما الحوادث فحالات استثنائية لا تعتبر مقياسا للحكم على الجراحات ٠٠

وفى معالجة جميع الامراض ، لابد من اعادة الجهاز البدنى الى وظائفه الطبيعية ، وان تنظم حياة المريض بحيث تتفق وما تتطلبه الطبيعة والادراك السليم ، ومن ثم فيجب صرفه عن « العادات السيئة » ٠٠ ونعنى العادات التى تساعد على نمو المرض وظهوره ٠٠ فالعلاج الطبيعى ، والحال هذه ، يتضمن التدريب على عادات الحياة الصحية السليمة ٠٠ وواجب الطبيب يقتضيه أن يقنع المريض بالتخلى عن عاداته القديمة ، ولن يتسنى له ذلك ما لم يوطد روابط التفاهم والتعاون بينه وبين مريضه ٠٠

العلاج بالادوية نوع من « الترقيع »

◆ لقد بلغ الانسان من الترف والضعف فى العصر الحديث ما يجعله يؤثر أن يتناول الادوية ، بل وان تجرى له عملية جراحية ، استعجالا للشفاء ، بدلا من أن يتخلى عن العادات التى تجلب له المرض،أو أن يقوم بمجهود لكى يسترد صحته ٠٠ **ولكن الضرر الذى ألحقته المدنية الحديثة ـ ولا تزال مستمرة على الحاقه بنا ـ لا يمكن أن يزول بمجرد العلاجات الموضعية بالوسائل المصطنعة من وقت الى آخر ، فان هذا اللون من العلاج ـ أى استعمال الادوية أو الجراحة ـ لا يعدو أن يكون من قبيل الرتق و « الترقيع » ٠٠ أما العلاج الطبيعى فيتطلب علاجا شاملا ، وتغييرا كاملا لتكوين المريض ٠٠ وهذا لا يتأتى الا بالاقتراب من الطبيعة قدر الامكان ، وتقوية البنيان الجسدى بالوسائل الطبيعية ٠٠ وهذا القول ينطبق كذلك على السليم ، فان الوقاية خير وسيلة لمكافحة المرض ٠٠**

ومن دلائل الغباء البشرى الولع بالادوية الحديثة ، اذ يكفى أن يعلن أن الدواء « غير ضار » ، وان يعبأ فى لفافات أنيقة ، وان يباع بثمن مرتفع ، يكفى هذا لكى يلقى اقبالا يدر الثراء على صانعيه ! ٠٠ أما الدواء البسيط ، الرخيص ، فيقابل بالاشمئزاز ٠٠ ولو انك قلت للناس ان الهواء من خير عناصر العلاج ، لقلبوا شفاههم استهجانا ، وقالوا : اذا لم يكن من الهواء بد ، فليكن هواء مضغوطا فى أنابيب أنيقة !٠٠ والماء ٠٠ انهم لن يقبلوا عليه الا اذا قيل لهم أنه مستخرج من نبع خيالى ، والا اذا وضع فى زجاجات جميلة ، وبيع بثمن مرتفع !

ولا يلتفت الانسان لاساليب العلاج العادية البسيطة الا اذا شفه المرض ، وأبلى جسمه ، وهوى بقواه الى الحضيض ، وأخفقت معه الادوية الصناعية

الغالية .. وهو اذ يتحول ، يروح يتعجل الشفاء ، ويطلب البرء فى أسابيع قلائل من داء برح به سنين ، حتى استفحل .. فاذا قلنا له ان هذا مستحيل ، وان لابد للعلاج من شهور ، سخط على العلاج الطبيعي ورماه بكل نقيصة ..

قضية العلاج بين الطب الطبيعى والطب العلمى

◆ **على أن** الطب لم يعد يستطيع اليوم ان يتجاهل ما حققه العلاج بالماء وبالشمس والهواء من نجاح ، فاضطر أن يفسح لهذا اللون من العلاج مكانا فى الجامعات .. بيد ان المعاهد التى تمارس العلاج الطبيعى لا تزال ضئيلة العدد . ولم يعن الطب بعد بجسم المريض كله كوحدة ، فهو يقتصر على المنطقة التى يظهر فيها تأثير المرض . واذا كان بعض الاطباء يمارسون العلاج الطبيعى فى المستشفيات الحديثة ، فهم يقرنونه دائما بالادوية الكيماوية ، ويعتمدون عليها كعنصر رئيسى ..

ويزعم البعض ان العلاج الطبيعى لا يعنى بالفحص وتشخيص الداء ، وهذا خطأ .. فنحن نعالج الجسم كوحدة حقا ، ولكنا نعتبر الفحص والتشخيص ضروريين ، ونكررهما لنتثبت من مدى تطور شكوى المريض .. ونحن لا نكتفى فى ذلك بالاعتماد على المشاهدات والاستنتاجات التى تبدو لنا لاول وهلة ، بل نلجأ الى كل وسيلة فى طوقنا لتحرى الدقة ..

وفحص الداء والجسم كله معا ، يتيح تشخيصا كاملا وافيا ، يساعد على وصف العلاج الصحيح .. لانه مهما كان المرض ، فان الانسان كله ــ كوحدة ــ يكون مريضا ، وخير عامل حاسم لتقرير العلاج هو الدراية بالجسم كله ، لا سيما وان التركيب البدنى لكل انسان يختلف عما لسواه ، ومن ثم فما يلائم غيره من علاج قد لا يلائمه ..

ان الطب الحديث يقوم قبل كل شىء على ثمار مجهودات علمى الكيمياء والطبيعة ، فهو يطبق نتائج بحوثهما على الجسم الانسانى ، وينسى أن الوقائع التى بنيت عليها هذه البحوث لا تنطبق الا على الكائنات غير العضوية .. والانسان من الكائنات العضوية.. ولأضرب مثلا يقرب هذه الحقيقة الى عقولنا: فطبقا لقانون الجاذبية الارضية ــ فى «علم الطبيعة» ــ كان من الواجب أن ينجذب دم الانسان الى أطرافه السفلى اذا ما وقف ، ولكن هذا لا يحدث الا بنسبة تافهة ، لان القلب « الحى » والاوعية الدموية « الحية » تعمل على استمرار الدورة الدموية ، ومد كل عضو بما يكفيه من الدم .. **ويخضع القلب والاوعية الدموية بدورها لسيطرة الجهاز العصبى ، ومن ثم فهذا الجهاز هو المسيطر الحقيقى ، وقوانينه أقوى من قوانين علم الطبيعة .. فقوانين الطبيعة**

ـ لا «علم» الطبيعة ـ هى التى تحكم حياة الانسان ، وتجعل غيرها من القوانين مجرد فروع ثانوية ..

الحكام المعتلون هم سبب اضطراب العالم

◆ « ان الصحة هى أغلى ما على الارض .. ولكن هذه الحقيقة تتردد على الشفاه دون ادراك لاعمق معانيها اذ أن أبناء المدنية الحديثة يقدرون المال والشهرة والنفوذ فوق كل الاشياء ، وينسون أن الانسان النافع العامل هو السليم الصحيح ، فى حين ان المعلول لا يلبث ـ على مر الزمن ـ ان يقضى على نفسه وعلى سواه .. **والسليم الصحيح يستيقظ فى صباحه منتعشا ، موفور الراحة ، فينطلق الى عمله ويمارسه فى هناءة وانبساط ورضى ، وهو مسيطر على أعصابه ، لا يتشاجر مع أحد .. ولو كان كل أهل الدنيا أصحاء ـ أو غالبيتهم على الاقل ـ لساد السلام وجه البسيطة ، فان المعلولين هم مبعث الاضطراب والتذمر فى العالم ، وسيظل العالم مهددا بالحروب طالما كان القدر يدفع بازمة الحكم الى أيدى المعتلين .. ان عالمنا اليوم عليل ، لان الجنس البشرى مريض . والعلاقة بين المرض وبين الخطيئة والجريمة أوثق مما يخطر ببال بشر .. وطالما استمر البشر فى ارتكاب الذنوب ضد الطبيعة ، فلن تقوم لظروف الحياة الصحيحة قائمة ، وستكون الغلبة فى معركة البقاء للشعوب التى تظل صحيحة لاتباعها البساطة والاقتراب من الطبيعة فى معيشتها .. ولن يستبعد والحالة هذه أن تغدو آسيا صاحبة السيادة على العالم الغربى !**

تم الكتاب

نجوى الأذهان



رسائل الخالدين

عزيزى القارىء ...

فى سنة ١٩٣٣ وقع فى يدى كتاب المرحوم الاستاذ احمد حافظ عوض صاحب جريدة « كوكب الشرق » الذى اطلق عليه «رسائل من والد الى ولده» ، وقد ضمنه مجموعة الرسائل التى كتبها الى ابنه الاكبر ـ وأغلب الظن انه الدكتور عوض حافظ عوض اخصائى التحاليل المعروف الآن ـ فأقبلت على الكتاب ألتهم صفحاته بنهم ، وأتزود من الخواطر البليغة والنصائح الجميلة التى وجهها الكاتب الأديب الى ابنه وهو مقبل على مرحلة شبابه الباكر . (وقد أقدم اليك بعض تلك الرسائل القيمة فى اعداد تالية)

ومنذ ذلك التاريخ شغفت بأدب الرسائل ، وهو فن لا اعرف له وجودا فى الادب المصرى ، مع الاسف الشديد ـ اذا استثنينا كتاب الاستاذ حافظ عوض الذى أشرت اليه ـ فى حين يزخر الادب الفرنسى (والانجليزى .. والامريكى .. الخ) بالكثير من الدرر المأثورة فى هذا الباب .. وأشهر رائدة لادب الرسالة فى فرنسا هى مدام دى سيفينيه ، التى اقدم لك نموذجا من رسائلها فيما يلى :


LETTRES
DE
Mme De Sévigné
من رسائل
مدام دى سيڤينيه

المرأة التى خلدتها خطاباتها !

◆ تحتل مدام « دى سيفينيه » مكانة رفيعة بين اولئك الذين خلد التاريخ خطاباتهم كتحف ادبية رائعة ٠٠ فضلا عن انها عاشت حياة حافلة بالمتع الذهنية والاجتماعية ، وكانت من اشهر وانشط نساء فرنســا الضاربات فى كل ميدان من ميادين الحياة ٠٠ على ان شهرتها العظمى كانت وما تزال فى ميدان التراسل مع كل من ربطته بها صداقة أو علاقة ما ٠ وكان نشاطها فى هذا الباب خارقا ، حتى لقد تجاوز عدد رسائلها الألف ! وكلها تمس كافة الموضوعات التى تشغل الرأى العام وتروق للجميع : من السياسة العليا ، الى الادب ، والاجتماع ، واحاديث الناس ٠٠ الخ ٠٠ ومن ثم تعتبر رسائلها بمثابة اضواء تكشف جوانب الحياة الاجتماعية فى فرنسا خلال الربع الأخير من القرن السابع عشر ٠٠ كما انها تضم صفحات من النقد الأدبى الرفيع ٠٠ ثم هى تتسم فوق كل هذا ، بأسلوب لا قبل بمقاومة سحره ، مثل ما كان لصاحبته من روح مرحة ، وذوق مرهف ، ولباقة بليغة ٠٠

وفيما يلى نموذج من رسائل مدام سيفينيه الى ابنتها ، وقد تضمنها احد المجلدات العديدة التى ضمت مجموعة رسائلهــا ، والتى نشرت الطبعة الاولى المعتمدة منها عام ١٧٣٤ ، ثم طبعت منها بعد ذلك مئات الطبعات ٠٠ وترجمت الى كل اللغات ـ ما عدا العربية طبعا !

◆ **طفلتى العزيزة :**

لم تنقض على هنا ثلاث ساعات حتى كنت أمسك بالقلم لأتحدث اليك ٠٠ فقد غادرت باريس مع الاسقف ، وهيلين ، وهربير ، ومارفيز ، فرارا من ضوضاء المدينة وصخبها حتى مســاء يوم الخميس ، اذ أننى أهفو الى هدوء تام أخلد فيه الى تأملاتى ٠٠ وانى لأعتزم أن أصـــوم ـ لاسباب عديدة ـ وأن أمشى كثيرا لأعوض مافاتنى من رياضة فى الفترة الطويلة التى قضيتهــا

فى غرفتى ٠٠ ثم اننى ـ قبل كل الامور الاخـرى ـ أحب أن أروض نفسى على حب الله ٠٠

على أن ما سأفعله ، أكثر من كل هذا يا ابنتى العزيزة ، هو أن أفكر فيك ٠٠ وما كففت عن هذا مذ وصلت الى هنا ، ولـمـا عجزت عن أن أكبح مشاعرى ، لجأت الى الممر الصغير الظليل الذى تحبينه ، كى أكتب اليك وأنا أجلس على الضفة المكسوة بالاعشاب ، حيث اعتدت فى أكثر الاحيان أن تستلقى ٠٠

ولكن ٠٠ أى مكان لم أر فيه طيفك يا عزيزتى ؟

أليس يطاردنى التفكير فيك أينما وليت ؟٠٠ كل بقعـــة تحدثنى عنك : البيت ، والكنيسة ، والحقل ، والحديقة ٠٠ انك طيلة الوقت فى بالى ، وان قلبى ليهفو اليك مرارا وتكرارا ٠٠ اننى لأبحث عبثا عن الطفلة العزيزة التى شغفت بحبها ، ولكنها على بعد ستمائة ميل منى ، ولست أملك أن أدعوها الى جوارى٠٠ اننى لأدرك أن البكاء ضعف ، ولكن هذا الحنان الذى أكنه لك طبيعى وصادق ، فلست أملك ازاءه أن أكون قوية !

لست أدرى ما سوف يخالجك حين تتسلمين هذا الخطاب ٠٠ ولعلك لن تتأثرى ـ فى تلك اللحظة ـ بالمشاعر الجياشة التى تطغى على الآن ، ومن ثم فلن تقرئيه بالروح التى كتب بها ، ولكنى لا أملك ازاء هذا شـيئا ٠ على أن الكتـابة تسرى عن مشاعرى فى اللحظة الراهنة ، وهذا ما أنشده منها ، فما أراك تتصورين الحال التى دفعتنى اليها وجودى فى هذا المكان ٠٠

أناشدك أن لا تأخذى على ضـعفى ، بل يجب أن تحترمى دموعى ، لانها تنسكب من قلب مفعم حبا لك ٠٠

*

◆ **ولا تزال** قضية المركيـزة « برانفيبه » تستـأثر بأحاديث باريس ، فان المدينة بأسرها مشبوبة الاهتمام بها ، وقد اعترفت المركيزة بأنها دست السم لابيها واخوتها وأحـد

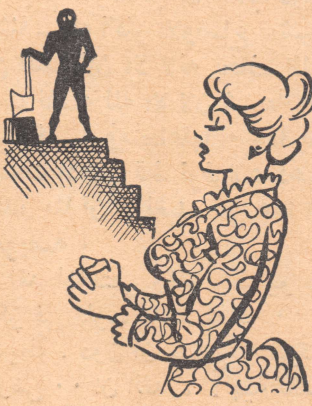
أبنائها ٠٠ ولقد كان « الشيفالييه دوجا » ممن تناولوا احدى الفطائر المسمومة المحشوة بالحمام ! وعندما قيل للمركيزة انه ما يزال على قيد الحياة ، لم تزد على أن قالت : « لا بد أن هذا الرجل أوتى جسما قوى البنيان ! »

ويبدو ان المركيزة كانت قد تدلهت فى هوى « سانت كروا » ـ وهو من ضباط اللواء الذى يقوده زوجها ، وكان يعيش فى دارهما ! ـ فحاولت أن تقضى على زوجها بالسم ، اعتقادا منها بأن « سانت كروا » سيقدم على الزواج منها اذا ما غدت طليقة ، ولكن «سانت كروا» لم يشاطرها رغبتها ، فقدم للمركيز ترياقا أنقذ حياة النبيل المسكين !

والآن ، انتهى كل شىء ، ولم يعد لبرانفييه وجود ٠٠ فقد صدر الحكم ضدها بالامس ، وقرىء عليها ، ثم أجبرت على أن تعترف أمام الملأ فى الساحة المواجهة لكاتدرائية « نوتردام »٠٠ وأعدمت بعد اعترافها ، ثم حرقت جثتها وذرى رمادها فى الهواء !

ولقد هددوها بالتعذيب ، بيد أنها قالت ان لا داعى لذلك ، وانها على استعداد لان تفضى بكل شىء أمام الجمهور بأسره ٠٠ ومن ثم فقد روت تاريخ حياتها كله ، فاذا به أفظع مما خطر لخيال أى انسان ، حتى اننى لا أستطيع أن أسمعه دون أن أرتجف !

ولقد اقتادوها فى الساعة السادسة صباحا الى الكاتدرائية حافية القدمين ، لا تسترها سوى غلالة مفكوكة الاطراف ، وقد أحاط بعنقها حبل ٠٠ ثم حملتها نفس العربة «الكارو» التى أحضرتها ، ورأيتها مستلقية على القش الذى كسا أرض العربة ، والى أحد جانبيها الطبيب ، والى الجانب الآخر الجلاد الذى سينفذ الحكم ٠٠ أواه ، لكم بعث فى مرأى هذه المرأة هلعا كبيرا !



وأنبأنى الذين شهدوا الاعدام أنها صعدت الى المقصلة بخطى ثابتة ، وماتت ـ كما عاشت ـ جريئة ، لم يداخلها خوف ، أو يخالجها أى انفعال !

ولقد أحضروا لهـا قسين يتلقيان اعترافها ، فنصحهـا أحـدهما بأن تفضفض بكل شىء ، وأشار عليها الآخر بأن لا تقول شيئا ! •• فضحكت قائلة : « سأفعـل ما يحلو لى طالما بقيت فى وعيى •• »

لقد سرنى أن أسمع رأيك فى هذه الشريرة الفظيعة •• وما أرى ثمة احتمال فى أن تلج الجنة ، اذ لا بد من أن تعزل روحها الخبيثة عن بقية الارواح ••

*

◆ **تسأليننى** ما اذا كنت تقية متعبدة ؟•• اننى ـ للاسف ـ لست كذلك ، وهـذا ما يبعث فى نفسى الاسى •• على أننى منصرفة ـ الى حد ما ـ عما يسمونها الدنيا •• وان كبر السن وبعض المرض ليتيحان للمرء وقتا للتأمل •• على أن ما أمسكه عن الدنيا يا صغيرتى العزيزة أمنحك اياه •• ومن ثم فلست أكاد أوغل فى ميدان التجرد •• اذ أنك ولا بد تعلمين أن الطريق الصحيحة للتقوى تتمثل فى الزهد ـ الى درجة ما ـ لا سيما فيما نعتز به أكثر من سواه ••

ان من أعظم رغباتى أن أغدو تقية ، وهذه الفكرة تستبد بى كل يوم •• فأنا لا أهب نفسى لله ، ولا أهبها للشيطان ، وهـذا

الاحجام المتردد مبعث عذاب دائم لى ، وان كنت أصارحك ـ فيما بيننا ـ انه أكثر الاوضاع تمشيا مع الطبيعة ، اذ أن المرء لا ينأى عن الشيطان الا لانه يخاف الله ٠٠ كما انه لا ينصرف عن أن يهب نفسه لله الا لان شريعة الله قاسية ، والمرء لا يميل الى أن ينبذ نفسه ويتجاهلها ٠ وما يفعل ذلك الا من فترت هممهم ، ولست أدهش قط لوفرة عددهم ، بيد أن الله يكرههم ، ومن ثم يجدر بنا أن لا نعبده على هذا النهج ٠٠ ومن هنا تنشأ المشكلة العويصة ٠

لقد أذهلتنى وفاة « مسيو دى مان » ، فما خطر لى قط أن أفكر فى الموت بالنسبة له ٠٠ ومع ذلك فقد قضى من حمى بسيطة ، دون أن يتسع له الوقت كى يفكر فى السماء ، ولا فى الارض ٠٠ ان القدرة الالهية تكشف عن نفسها أحيانا فى زيارات مفاجئة ينبغى أن نفيد منها ٠٠ ونستعد لها !

أما ما تقولينه عن الهواجس التى كثيرا ما تساورنا ـ بطبيعة الحال ـ بصدد المستقبل ، وعن تحول ميولنا دون وعى منا تحت حكم الضرورة ، فموضوع يستحق أن يكتب فيه كتاب ككتاب « باسكال » ٠٠ وليس أبعث على الرضى ، ولا أكثر نفعا ، من الاستغراق فى التفكير فى مسائل من هذا النوع ٠٠ ولكن ، كم من الناس يفكرون فيها فى مثل سنك ؟٠٠ لا أعرف أحدا من لداتك يفعل ، وانى لأمجد فيك هذا الجدل السليم وهذه الجرأة ٠٠

أما أنا فلم أوت ما أوتيت من حجى وجرأة ، لاسيما حين يتسلط قلبى على ! اننى أكتب كأولئك الذين يحسنون القول ، بيد أن عمق شعورى وتغلغله يقتلنى ٠ وهذا ما أحس به حين أكتب اليك عن آلام الفراق ٠٠ اننى لم أتبين صدق الحكمة القائلة بأن على المرء أن « يتدثر بما يلائم البرد من لبوس » ـ اذ ليس لدى دثار يقى من مثل هذا البرد ـ على أننى أعمل على

أن أجد دائما ما يشغلنى ·· وهكذا يمر الوقت · وعلى العموم ، فان أفكارنا وميولنا تنحرف أحيانا الى مسالك أخرى غير التى ألفناها تسلكها ، فلا تعود أحزاننا أحزانا ··

حب الحيـــاة

◆ **تسألينني** يا طفلتى العزيزة عما اذا كنت لا أزال أحب الحياة ؟·· ولا بد لى من أن أعترف بأننى أجد أحزانها قاسية ، غير ان نفورى من الموت أقسى !·· ومن أشد بواعث الحزن لى أن أفكر فى أن لا بد لى من أن أختم حيـــاتى بالموت ، ولو استطعت لآثرت أن أرجع من الآن من حيث بدأت ، فاننى أشعر بأننى دفعت الى الحياة دون ما موافقة منى ، فأنا فى وضــع يدعو للحيرة !

لسوف يتحتم على أن أودع الحياة ، وهذه حقيقة تحيرنى ·· **اذ من أى باب أخرج ؟·· ومتى يأتى المـــوت ، وفى أى حال يجدنى ؟·· وهل أعانى ألف ألم فأموت محسورة قانطة ؟·· أو أموت فى غشية من الفرح ؟·· هل أموت فى حادث ؟·· وكيف سأقف بين يدى الله ؟·· ماذا لدى كى أقدمه اليه ؟·· أأعود اليه فى خوف واضطرار ، لا أشعر بغير الذعر والهلع؟·· وأى أمل لى ؟·· أأهل أنا للجنة ، أم اننى لا أستحق غيــر الجحيم ؟·· يا له من شك رهيب يعذب عقلا فانيا زائلا !·· ويا لها من حيرة !**

ليس هناك ما هو أكثر حمقا من أن يهجر المرء أمنه هكذا ، غير موقن من مصيره ·· ومع ذلك فليس هناك أمر طبيعى أكثر من الموت ·· وليس أسهل على من أن أدرك تفاهة الحياة التى أحياها ·· اننى أغرق فى مثل هذه الافكار ، فأجد الموت كما أتصوره فى تأملاتى رهيبا ، حتى اننى أمقت الحياة لانها تفضى الى الموت ، أكثر مما أمقتها لانها تقودنى أثناءها عبر متاعب كثيرة ··

لسوف تقولين اننى أرغب فى أن أعيش الى الابد ٠٠ ولكن هذا غير صحيح على الاطلاق ، ولكنى لو خيرت لآثرت أن أموت راضية بين ذراعى مرضعتى ، فاننى بهذا كنت أتجنب كثيرا من الاحزان ، وكنت أكتسب الحق فى الجنة بسهولة ٠٠

قضاء الله ونظامه

◆ **ان** الله يحب النظام ، ولكن اذا كان النظام موصى به من الله ، فان الكثير مما يحدث انما يحدث ضد وصاياه : كل الاضطهادات التى وجهت ضد القديسين مثلا ، وكل الثراء الذى يحرزه المذنبون والطغاة ٠٠ كل هذا ضد النظام ، ومن ثم فهو ضد ارادة الله ٠٠

ومن واجبنا ـ بالتأكيد ـ أن نتمسك بما قاله القديس أوغسطين من أن الله يسمح بتلك الامور ، كى يكشف عن عظمته بوسائل غير معلومة لدينا ٠٠ ولا يعترف القديس أوغسطين بقانون أو نظام فى الدنيا سوى ما أراده الله ، واذا لم نتبع هذا المذهب فلسوف ننتهى ـ مضطرين ـ الى أن نستنتج أن كل شيء تقريبا يقع مخالفا لارادة الله الذى قضى به ٠٠ وهذه نتيجة مروعة ٠٠

اننى أود أن أشكو الى الآب «مالبرانش» هذه الجرذان التى تأتى على كل شيء هنا ٠٠ أفهذا من النظام ؟٠٠ انها تلتهم السكر ، والفاكهة ، والمحفوظات ، وكل شيء نأمل أن نأكله ٠٠ وهل كان من النظام فى شيء أن تقضى الديدان التعسة فى العام الماضى على أوراق أشجار غابتنا وحدائقنا وكل فواكه الريف ؟

أجل أيها الاب ٠٠ كل هذا خير بلا شك ٠٠ ان الله يعرف كيف يدبر هذا ليظهر عظمته ـ وان لم ندر كيف يدبره ـ ومن الواجب أن نتقبل هذا ونصدقه ، لاننا اذا لم نعتبر ارادة الله معادلة لكل قانون ونظام ، وقعنا فى متاعب وضائقات عظيمة ٠٠

ان لك يا صغيرتى الحبيبة فلسفة لا تدع سبيلا الى السعادة معك .. ان عقلك يسبق آمالنا فى تصور ضياع كل ما نرجو، اذ أنك ترين فى لقاءاتنا الفراق الذى لا مفر من أن يحدث فيما بعد .. وهذه ليست بالتأكيد الطريقة التى ننظر بهـا الى الطيبات التى تعدها لنا العناية الالهية ، وخليق بنـا أن نستمرىء هذه الطيبات ونألفها ..

أما وقد وجهت اليـك هذا اللوم الخفيف ، فلا بد لى من أن أعترف لك فى صراحة وأمانة ، بأننى لا أقل عنك استحقاقا للوم .. فليس هناك من يفزعه جرى الزمن أكثر منى ، ولا من هو أرهف منى شعورا ، حتى ليحس مقدما بالشجون التى تعقب الملذات عادة .. **والواقع يا ابنتى ان الحياة تمزج طيبها بشرها ، وعندما يحصل المرء على ما يشتهى ، يكون أقرب منه فى أى وقت آخر الى فقدانه .. واذا بعد عنا ما نشتهى ، رحنا نحلم بالوصول اليه .. ومن ثم فعلينا أن نتلقى الامور كما يبعث الله بها الينا ..**

أما أنا ، فانى أوثر أن أرعى الامل فى لقائك فلا أمزجـه بالاحاسيس الاخرى ، وأتطلع الى أن أحتويك فى الشهر المقبل بين أحضانى . اننى أحب أن أؤمن بأن الله سيسمح لنا بهذه الفرحة الخالصة ، وان كان من أسهل الامور فى الدنيـا أن نشوب هذا الامل بالمرارة والهواجس ان شئنا ..

محنة ملك انجلترا

◆ **لقد** أعلن أمير أورانج نفسه حاميا للديانة الانجليزية ، وطلب أن يوكل اليه تربية الامير الصغير ـ وهى خطوة جريئة ـ وقد انضم اليه كثير من النبلاء الانجليز ضد ملكهم .. ولكننا جميعا نأمل أن يستطيع جيمس الثانى أن يوقع به هزيمـة ساحقة . لقد استقبل اللوردات المؤيدين له ، وعزز جانب أنصاره المخلصين له ، وأعلن الحرية المطلقة للعقيدة .. فوحد بذلك قومه حوله ، اذ منحهم حرية دينية أوسع ...

ماذا نقول فى هذه الامة الانجليزية ؟٠٠ ان عاداتها وأخلاقها تنحدر من سىء الى أسوأ ٠ ومن الجلى أن ملك انجلترا فر من لندن باذن كريم من أمير أورانج ، وان الملكة ستصل الى باريس بعد يوم أو اثنين ٠ ومن المؤكد أن الحرب لن تلبث أن تعلن ضدنا عما قريب ، ما لم نعلنها نحن أولا ٠ ولقد تصرف ملكنا الفرنسى تصرفا « الهيا » نحو الاسرة المالكة الانجليزية ، اذ أن ما فعله من مواساة الملك الطريد واعالته ، عمل من الاعمال التى يرضى عنها الله٠٠

ومن الانباء الطيبة أن ملك انجلترا رحل اليوم الى ايرلندا ، حيث يرتقبونه فى حماس ٠ ولسوف يكون هنـاك فى حال أفضل مما لو بقى هنا ٠ انه يجتاز « بريتانى » فى سرعـة البرق ، وسيجد فى « بريست » المارشال « دستريه » ومعه وسائل النقل والبوارج على أهبة الاستعداد ٠ وهو يحمل معه ثروة طائلة ، كما أن ملكنا أعطاه أسلحة لعشرة آلاف رجل !

وفيما كان جلالته يودع ملكنا ، قال ضاحكا انه نسى أن يتزود بأسلحة لنفسه ، فأعطاه ملكنا أسلحته الخاصة ، وما أرى أبطال قصصنا قد أوتوا من الشهامة ما يفوق هذا الايثار ٠٠ وأى عمل جليل يعجز هذا الملك السىء الحظ عن أن يأتيه بهذه الاسلحة التى لم تعرف غير الظفر ؟

الشيخوخة

◆ **اذن** فد تأثرت يا ابنتى بالكلمات التى أوحتها الصداقة الى مدام دى لافاييت ؟٠٠ اننى قط لا أنسى اننى أكتهـل ، وخليق بى أن أعترف بأننى دهشت لما قالته ، لاننى لا أشعر بأى ضعف يذكرنى دواما بتقدم سنى ٠٠ على اننى اذ أفكر فى شيخوختى ، أرى أن الحياة تهيىء لنا ظروفا قاسية ، فها أنا ذى قد استدرجت ـ على الرغم منى ـ الى المرحلة المشئومة التى لا بد للمرء عندها من أن يموت ٠٠ مرحلة الكهولة ٠ اننى

أراها بوضوح ·· **لقد تسللت الشيخوخة حتى استولت على ، ولم أعد أبغى سوى أن لا يمضى العمر بى الى أبعد من هذا ·· اننى لا أحب أن أجتاز سنى حياتى الاخيرة خلال طريق الامراض والاوجاع وفقدان الذاكرة والمشوهات التى أعتبرها نقمة ·· ومع ذلك فاننى أسمع صوتا يهتف فى أذنى : « يجب أن تسلكى هذه الطريق، شئت أو لم تشائى ، والا فعليك أن تموتى » ·· وليس ثانى الطريقين بأقل من أولهما كراهية لدى النفس ·· هذا هو النصيب الذى لا محيص عنه لكل من يوغل فى درب الحياة ··**

على أن تذكر ارادة الله ، والرضى بذلك القانون العام الذى قضى علينا جميعا بالموت ، يرد العقل ثانية الى عقاله ، ويلهمنا الصبر · أفلديك أنت الاخرى طاقة على الصبر يا حبيبتى ·· لا تدعى حبك وحنانك المفرط يدفعانك على أن تذرفى دموعا يستنكرها عقلك !

نحن وأكبادنا



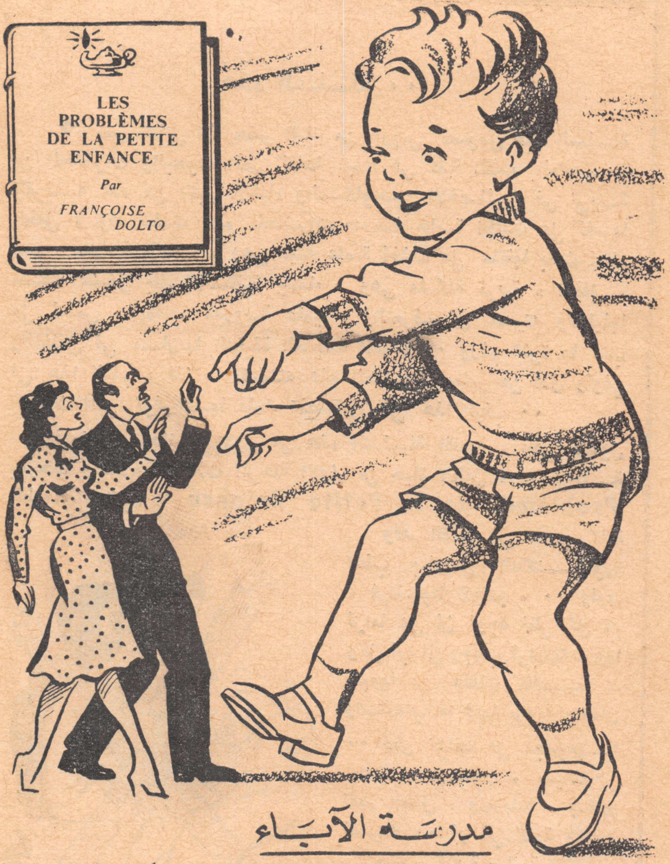
البيت والعائلة والطفل

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب قدمت لك فى اعداد سالفة عددا من القصص الكلاسيكية ، المبسطة خصيصا كى يقرأها الصبيان ، أو يقرأها الكبار ثم يحكونها لأطفالهم ..

واليوم اقدم لك فى هذا الباب مادة من نوع آخر .. فهى ليست للاطفال ، وانما عنهم .. ذلك ان علم النفس الحديث قد فتح آفاقا فسيحة لمحاولة اتاحة اكبر قسط ممكن من السعادة للانسان فى مختلف مراحل حياته ، عن طريق فهم ومعالجة نفسيته منذ نعومة أظفاره ، ومن ثم تربيته التربية الصحيحة التى تكفل له نفسا سليمة من العقد والمنغصات وأمراض الشخصية .. كما تكفل له جسما سليما من العلل والامراض البدنية

وفى الصفحات التالية أقدم لك الحلقة الاولى من سلسلة محاضرات أعدها خصيصا للامهات والآباء نفر من أشهر الاخصائيين الفرنسيين فى علم « تربية الطفل



مدرسة الآباء

مشكلات الطفولة الباكرة

للدكتورة الأخصائية فرانسواز دولتو

هذه السلسلة ..

◆ يسر كتابى ان يحضر اليك من باريس نصوص هذه السلسلة من المحاضرات والبحوث التى ألقاها تباعا فى كلية الطب بالعاصمة الفرنسية عدد من اكبر الاطباء والسيكلوجيين الاخصائيين فى تربية الطفل ، وقد نظمت هذه المحاضرات مدرسة خاصة اطلقت على نفسها اسم « مدرسة الآباء » ، وهى هيئة علمية أخذت على عاتقها بحث أعظم مشكلة تشغل بال الانسانية جمعاء ، وهى مشكلة تربية « الطفل » على أسس سليمة ، مدروسة علميا ، والتعرف الى نفسيته وتحليلها والتغلغل فى مساربها الدقيقة الغامضة المعقدة .. ورغم كثرة ما كتب فى هذا الباب ، فان ما تضمنته هذه المحاضرات يعتبر من أدق وأوفى البحوث التى توفر عليها علماء اخصائيون فى هذا الباب ..

وفيما يلى المحاضرة الاولى من هذه السلسلة القيمة ، وهى تتناول بالبحث والعلاج مشكلات المرحلة الاولى من حياة الطفل ، أو مرحلة الطفولة الباكرة **Problèmes de la Petite Enfance**

وقد ألقتها فى مدرج كلية الطب بباريس الدكتورة « فرانسواز دولتو » .. وأرى لزاما على أن أوجه نظر كل أم وكل أب الى وجوب قراءتها ـ وما يتبعها من حلقات تالية ـ واستيعاب ما فيها بروية وامعان .. فهى تؤلف فى مجموعها أحدث « دستور » سيكلوجى لفهم الطفل ، ومعاملته ، وعلاج نفسيته .. أو فى كلمة واحدة « تربيته » تربية سليمة مثالية ، تجعل منه ـ حين يشب ـ عضوا نافعا فى المجتمع الاكبر ، مجتمع الانسانية الفسيح الرحاب ..



متى يفهم الطفل معنى الحياة ؟

◆ **سيدهش** كثير من الامهات عندما يعرفن كيف يفهم الطفل معنى الحياة قبل ان يبلغ الشهر الثامن عشر من عمره ، اذا كان قد ربى على ان يعمل ما يحب هو أن يعمله ، وليس ما يجب عليه أن يعمله !

والواقع اننا حين نبحث مشكلات الطفل ، يجب ان نضع موضع الاعتبار البيئة التى يعيش فيها الطفل ، وامكانياته الذاتية - اى استعداده الطبيعى - والامكانيات التى آلت اليه بالوراثة عن والديه .. ثم هناك « الجو » الذى ينشأ فيه الطفل : كمولد طفل أصغر ، أو وجود امرأة أب مثلا .. الخ

وأبدأ بتقرير حقيقة بالغة الأهمية ، وهى ان حيوية الطفل امر عجب ! فهو يملك قوة عارمة من الحياة تريد بأى ثمن ان تصل الى التعبير عن نفسها ، حتى لو لم تكن فى ظروف ملائمة لهذا التعبير . وهذا القانون العام هو الذى يرسم للآباء والامهات الخطة التى لا مفر لهم من سلوكها . ويتلخص هذا القانون فى العبارة الآتية : « **يجب ان يترك الطفل حرا فى التعبير عما بنفسه ، بالطريقة التى توائم سنه ومستوى الحياة التى يحياها ، وذلك بدون استعمال أى ضغط على نموه ، سواء كان ذلك الضغط لدفع نموه او اعاقة هذا النمو !** »

كيف تعطى معنى ايجابيا لتصرفات الطفل السلبية (كالفشل أو الرفض) ؟

◆ **منذ** ولادة الطفل حتى يبلغ العامين من عمره ، يعبر عما يجيش فى نفسه بواسطة المناغاة . وقد يلجأ فى تعبيراته الى بعض اللعب أو الوسائد التى تكون فى سريره ، وقد يتعرض الى بعض الاخطار اثناء ذلك ، ولكن يجب أن نترك له الحرية فى محاولاته التجريبية الأولى ..

وكثير من الآباء يخشون أن يصدموا ابناءهم ، وبحجة تجنب صدمتهم يرتكبون أخطاء فظيعة . وهاكم مثل حدث أخيرا يدل أقطع الدلالة على الخطر الذى يترتب على تفهم حالة الطفل النفسانية تفهما خاطئا :

كان هناك طفل فى الشهر الثامن عشر من عمره ينتظر طعامه المعتاد الذى يعطى له فى « البزازة » . وكانت أمه تعده له فتأخرت قليلا ، فتضايق الطفل وأخذ فى الصياح .. فلما جاءته أمه « بالبزازة رفض وضعها فى فمه أو تناول ما فيها !

ما العمل ؟ ان التقدير الصحيح للموقف يقتضى ترك الطفل يصيح ، وترك الحرية له فى رفض تناول «البزازة .. سيما وأن هذه هى الفترة



التى يبدأ الطفل فيها فى العزوف عن تناول اللبن لانه يفضل تناول طعام الكبار .. والذى يجب أن تدركه الامهات انه اذا لم يتناول « البزازة » فان هذا لن يؤثر على صحته بحال !

غير أن الام قد تكون محاطة بجو مكهرب ، وقد تصادف أن يكون بجوارها فى تلك الآونة شخص يدعى العلم بحالات الاطفال النفسية ، فاذا بهذا الشخص يتطوع بافتائها ، فيقول لها : « انك اذا تركت الطفل يرفض تناول البزازة هذه المرة ، فسوف تفقدين السيطرة عليه بعد ذلك .. وسيصبح هو الذى يسيطر عليك ! »

وتحت تأثير هذه الاقوال الخاطئة تنشب معركة بين الام وطفلها لارغامه على تناول « البزازة » ، تنتهى بان يزيد صياح الطفل حتى يصاب بالتشنج ، فتصب على رأسه الماء البارد ليهدأ ، لكنه يزداد عـويلا ، كمن يطلب النجدة ! .. وأخيرا يعود الى هدوئه عند ما تحتويه الام بين ذراعيها ، فتعاود وضع البزازة فى فمه .. وفى هذه المرة قد ينصاع لها من فرط تعبـه فيتناولها !

فما الذى حدث ؟ الذى حدث هو انه بحجة تجنيب الطفل انفعالا يسبب له تشنجا عصبيا ، تسببنا له فى تشنج أعنف .. فاذا صببنا على رأس الطفل ماء باردا أصبناه باختناق يجدد حالة التشنج ، **وأعدناه القهقرى الى عهد ولادته ، لانه ما يكاد يحس بانه بين ذراعى أمه ، كما كان فى أيامه الاولى ، وما يكاد يحس بان أمه تهدهده ، حتى يهدأ .. والنتيجة هى انه فى هذه الحالة يتناول غذاءه من البزازة ، على حساب نموه وتقدمه !**

فلنترك الطفل يصيح !

◆ **والحقيقة** أن الطفل يمر فى سنه تلك فى المرحلة التى يتعذر أثناءها كثيرا على الاطفال أن يعبروا عن مشاعرهم .. فان انتظاره للبزازة خلق عنده حالة توتر عصبى شديد لا يمكنه أن يعبر عنها بغير الصياح .. وهو لن يهدأ الا اذا تم له هذا التعبير عن توتره ، اى الا اذا تركناه يفرغ من صياحه

٠٠ فاذا ما تم له ذلك أمكنه بعدئذ أن يتناول غذاءه من اللبن ٠ ثم ان الطفل ليس فى مقدوره ان يصيح ويبتلع غذاءه فى آن واحد ، فكان من الضرورى اذن أن ننتظر حتى يفرغ من التعبير عما يشعر به من انفعـال ٠ وكان من الضرورى أن نتركه يصيح ٠ وكان من الضرورى أن نترك له الحرية ليقول « لا ! » ، لان هذه هى الطريقة المثلى التى نجعله بها قادرا بعد ذلك على ان يقول « نعم ! »

ولنضرب لذلك المثل الآتى :

طفل فى الثالثة من عمره دعى الى احدى حفلات عيد الميلاد فى احدى مدارس الحضانة ، لان والديه كانا صديقين لمدير تلك المدرسة ٠ وكان من الطبيعى ان توزع اللعب على الاطفال فى تلك الحفلة ٠ ولما لم يكن الطفـل المذكور من اطفال تلك المدرسة فلم يكن له نصيب بالطبع من تلـك اللعب التى كان يتناولها الاطفال طفلا طفلا بمناداة الاسماء ٠٠

أما هو فظل جالسا بين والديه ، وكان يصفق مع المصفقين لكل طفل يتناول لعبته ٠٠ ولاحظ والداه انه بدأ يحس بضيق كلما رأى طفلا يتقدم لاخذ لعبته من يد مدير المدرسة ٠٠

ان هذا الطفل ولا شك ذو ارادة قوية ، فقد أمكنه أن يضبط أعصابه ويظل هادئا وقورا ٠٠ ولكن بعد انتهاء عملية التوزيع لاحظ مدير المدرسة، وهو صديق ابويه ، انه لم يأخذ شيئا ٠٠ فخاطبه قـائلا : « كيف ! ألم تأخذ لعبة مثل الآخرين ؟ اننى سأتدارك هذا الخطأ ٠٠ خذ هـذه البجعة ٠٠ فهل تعجبك ؟ »

والى هنا كان الطفل صامتا لا ينبس ببنت شفة ، فما ان وجه اليه المدير هذه العبارة حتى انفجر بالبكاء ، وصاح فى المدير : « انت ردىء ! انت ردىء ! لا ! اننى لا أريد شيئا ٠٠ لا أريد شيئا ! » ٠٠ ثم ضرب البجعة بيده ضربة قوية أطارتها فى الفضاء !

انه نفس المسلك الذى سلكه الطفل الأول فى الحالة السالفة ٠٠ فقد طال انتظار الطفل الثانى للعبته ، كما طال انتظار الطفل الاول « لبزازته » !!

غير أن والد الطفل الثانى سلك معه مسلكا غاية فى الحكمة والصواب ٠٠ فبدلا من أن يفعل ما كان يفعله أغلب الآباء فى مثل هـــذه الحـالة ويقول : « كم هو طفل قليل الادب ! انه يثور فى وجه من يحاول ادخال السرور على قلبه ! » ٠٠ خاطبه بغاية الرقة قائلا : « هذا حسن جدا ٠٠ لقد كنت فى غاية الشجاعة يا ولدى ، لانك انتظرت حتى النهاية دون أن تقول شيئا » ٠٠ فبرهن الوالد لابنه على انه ، بدوره ، قد اشترك معه فى الألم الذى استبد به من طول الانتظار اثناء توزيع اللعب على الاطفال !

ثم عاد الوالدان بالطفل الى المنزل دون أن يزيدا فى التعليق على ما حدث. ولما أقبل الليل قالت له أمه : « هل تعرف ماذا فعلت ؟ لقد أخذت البجعة واحضرتها معى بالرغم مما حدث منك .. فهل تريدها ؟؟! ».. فما كان من الطفل الا ان أخذ البجعة بادى الغبطة والسرور ، نفس البجعة التى رفضها من قبل باباء ! .. بل انها صارت بعد ذلك لعبته المفضلة على ما عداها !

فما الذى حدث ؟ ان الذى حدث كثير الوقوع والتكرار : فقد كان الطفل فى السن التى يعبر فيها عن انفعالاته بواسطة التقزز الآلى ، وقد كان مشتاقا للحصول على اللعبة ، ولكنه وصل الى درجة من الكبت العصبى لم يعد فى امكانه معها أن يتقبل اللعبة التى كان يريدها .. وكان لا بد لهذه الانفعالات المكبوتة من التعبير عن وجودها بالعنف الذى رأيناه ، فكان واجبا ان نترك للطفل حرية الرفض ، لتكون له بعد ذلك - حين يهدأ - حرية القبول !

ولكى نزن هذا المسلك من جانب الطفل بميزانه الصحيح يجب الا نحشر هنا فكرة الخير والشر .. وانما يجب أن نزنه بميزان آخر : **وهو ان ما حدث لا يعدو أن يكون من طبيعة البشر . وعلينا أن نعلم جيدا انه اذا لم يستطع الانسان فى طفولته أن يتمتع بحرية الرفض فانه لن يستطيع أن يتمتع بحرية القبول فى مستقبل الايام ..**

المغالاة فى الشدة تحدث رد فعل !

◆ **وكثيرا** ما يخيل للانسان ان الحقائق النفسية التى أمكن الوصول اليها والكشف عنها ، تصطدم مع العقل .. فهل هذا صحيح ؟ .. لنضرب لذلك مثلا : نريد أن يكون الطفل على درجة حسنة من التربية ، وان يتعود عادات حميدة ، فما الذى يحدث ؟ يحدث ان نلجأ الى « الشدة » لنغرس فى نفسه هذه العادات الحميدة . والانسان بطبعه « قرد » عاقل ، **ففى أحسن الحالات والفروض نرى الطفل فى سن السابعة أو الثامنة قد أصيب برد فعل قوى ، فاذا به يبحث عن حريته الضائعة ، وذلك بأن ينبذ جميع التعاليم التى كان قد تلقاها عن طريق الشدة والقهر ! .. وكثيرا ما يأتى ذلك عن غير عمد : فالطفل الذى لجأ والداه الى الشدة ليعلماه كيف يكون نظيفا نراه فى سن السابعة أشعث الهندام ، وربما يستيقظ فى الصباح فاذا بفراشه مبتل ! وما ذلك الا لأن الحياة أقوى من قوانين التربية مجتمعة .. والغرائز نشطة عاملة وليس من الميسور مقاومتها** . فالتربية الصحيحة هى التى تسمح للحياة بالنمو والتدرج بدون أن نضع فى طريق نموها وتدرجها العراقيل . وهى فى ان يعرف الطفل غرائزه ليعرف بعد ذلك كيف يسيطر عليها !..

وليست التربية فى ان يكون سجين هذه الغرائز ، أو ان يكون سجين آراء الآخرين !

الطفل يستطيع التمييز منذ ولادته !

◆ **سنحت** لى الفرصة لمشاهدة ظاهرة عجيبة تتلخص فى ان الطفل ، فى « اليوم » الثامن أو العاشر لمولده ، يمكنه ان يختار نوع الغذاء الذى يناسبه اكثر من غيره ! ٠٠ وكانت هذه المشاهدة اثناء فترة قائظة الحر وكان الطفل يغذى بلبن البقر المخلوط بالماء ، ولما كانت نسبة خلط اللبن لا تناسبه – لدسامة اللبن وشدة القيظ – فقد كان يرفض تناول اللبن ، مفضلا عليه الماء القراح ! واستمر ذلك الى اليوم الذى تنبهت فيه أمه فخففت اللبن الى الحد الذى كان جسمه يتطلبه ٠٠

ولنضرب مثلا آخر بالطفل الذى نما نموا طبيعيا الى الشهر السادس من عمره ، بدون ان تصادفه صعوبات ٠ ومن الطبيعى ان يواجه فى هذه السن صعوبة التعبير ، فهو لذلك يأتى بحركات مضطربة ليستقدم بها أحدا الى جواره كما لو كان يريد ان يتحدث اليه عن شىء يدور فى نفسه ، ثم يكثر من البكاء ٠٠ **وهنا يكون مسلك الأم على جانب عظيم من الأهمية ، اذ عليها ان لا تستثير الطفل ببعض الحركات العاطفية : كأن يكون هادئا فى مهده فتأتى لتلقى نظرة عليه ، فما تكاد توليه ظهرها وتذهب عنه حتى يأخذ فى البكاء ٠ انه لم يكن يبكى قبل أن يراها ، فقدوم الام هو الذى أثار فى نفسه هذه الموجة ، موجة « ألم الفراق » وما تبعها من دموع سكبها باكيا بعد ذهابها عنه !٠٠** ومن ثم يجب ان نتعلم كيف نترك الطفل يلهو منفردا ، على ان نراقبه من بعيد من خلال باب زجاجى مثلا ، وذلك بدون ان نفرض عليه فرضا ذلك السرور الذى يستشعره من حضورنا ، والذى يستتبعه ذلك الألم الذى يستشعره بعد ذلك من غيابنا ٠٠ واذا حدث ان كان بعض ذويه بقربه فعليهم أن يلهوه بلعبة يتسلى بها ، وعندئذ يمكن تركه دون استثارته ، لانه قد يجد فى اللعبة التى فى يده عوضا عن فراقه للناس ٠٠

ان العلامة الدالة على أن الطفل ينمو نموا متزنا فى الحياة ، ليست فى المعرفة التى يلقنها ، ولا فى قدرته على أن يلفظ اسمه ، وانما هى فى ذلك التعبير الواضح ، الحى ، المتحرك الذى يصدر عنه ٠٠ فماذا نفعل لضمان اكتمال حريته ، فى ذلك التعبير ؟

السرير ذو الحواجز :

◆ **كثيرا** ما نرى اطفالا صغارا جدا يتشبثون بكلياتهم بشىء يضعونه فى أفواههم ويمصونه (كأن يمصوا أصابعهم ، أو ملاءة السرير التى يضعونها

فى افواههم) .. لماذا ؟ لان الطفل كثيرا ما يصاب « بالملل » ! .. واليك العلاج :

فأولا : يجب ان نبعد من سريره الانسجة .. وثانيا : انه يحتاج الى النور والحركة تدب من حوله ، والى المسليات .. ومن هنا كان من الافضل ان يوضع فى سرير ذى حواجز حتى يتمكن من ان يرى خلالها ما يدور حوله فى الغرفة . ويجب أن يوضع فى هذا السرير مبكرا ، لانه ثبت أن الطفل ابتداء من الشهر الثالث من عمره يصبح قادرا على الاهتمام بالاشياء المحيطة به . وعليه فيجب ان نمكنه من تتبعها ، ومن رؤية النور ، فاذا ما ترك بعدئذ وحيدا فانه لا يستشعر الوحدة ولا « يمل » !

الرياضة الحرة

◆ **بعد** هذه الحقبة من الزمن يجب ان ندع الطفل يمرن جسمه وذلك بان يحبو أو يتعلق بأحد المساند أو المقاعد .. ويصاب الطفل احيانا كثيرة من جراء هذه التمرينات الأولية . ولكن الذى يعطى لسقطة الطفل اذا سقط، معنى ايجابيا أو سلبيا ، هو مسلك الأم بازائه فى هذه الحالة : **فلنتجنب ان نقول له : « هذا سيىء .. أو هذا ردىء ! » بل يجب أن نقول له فى هذه الحالة : « هذا خطأ .. ولكنه غير ممنوع .. وفى هذا مجازفة ! » ، وبعدئذ علينا ان نساعده على ان يقوم بنفسه بعمل ما سبق ان عمله ولكن بطريقة أفضل من طريقته الأولى . ولنعلم جيدا ان الطفل من ناحية التمرن على الحركة قادر على ان ينظم نفسه كما ينظمها تماما فى حالة الجوع .. وأحسن السبل هو ان ندع له « الحرية » فى تجربة محاولاته بنفسه ، فان هذا سيجعله مع الوقت فى غاية الحذر .. أما اذا لم نتركه يفشل تدريجيا ، هذا الفشل الذى يجب ان يواجهه ، فانه سيكون عاجزا عن سلوك الطريق الذى يفرض عليه ان يسلكه فى المستقبل ، كما سيكون عاجزا اذا ما وجد نفسه فجأة أمام تجربة صعبة لم يحضر لها تحضيرا كافيا من قبل ..** فمثلا فى حالة الطفل الذى يتعلم المشى فيحبو اولا ثم يسقط ، نرى كثيرين من الآباء يبالغون فى اتخاذ الاحتياطات لمنع مثل هذه السقطات ، الى الحد الذى اذا سقط معه الطفل ذات يوم سقطة عنيفة غير متوقعة ، فان هذه السقطة المفاجئة قد تسبب له صدمة تمنعه من تجديد محاولاته ، وقد تعوق تقدمه وقتا طويلا .. وذلك لاننا لم نترك له الحرية ليزن جسمه تدريجيا ، ولم نتح له « فرصة » السقوط بين الآن والآخر

اكتشاف « الجنس » والمشاكل التى تواجه الامهات

◆ **يلذ** للطفل ان يكون عاريا .. وذلك راجع من غير شك الى ان طبيعة الانسان هى أن يكون عاديا . وكثيرا ما تقلق الامهات عند ما يبصرون أولادهن وقد اكتشفوا فى انفسهم حقيقة « الجنس » ! وذلك مخافة ان يصابوا بالعادة السرية . ولكن الطفل يكتشف حقيقة « جنسه » كما يكتشف وجود انفه أو أذنيه تماما .. فاذا ما توجه ببعض الاسئلة فى هذا الصدد ، فالواجب هو اجابته عليها بصراحة ، مع السماح له بالتعبير عن حاسته ، وعما يستشعره ! .. لان سؤاله يعتبر دليلا على انه بدأ « يتنبه » .. وان هناك جوابا ما على سؤاله قد يدور فى مخيلته . فواجب الأم فى هذه الحالة هو أن تشجعه على التعبير عن « حاسته » ، وعما يراه ، أو يخمنه .. وأن تحبذ له الافصاح عن رأيه الشخصى فى كل هذه الامور .. فبهذه الطريقة يستكشف رويدا رويدا حياته الجنسية ويستكشفها تدريجيا مع نمو جسمه ..

أما فيما يتعلق بالفتيات الصغيرات فانه ، فى تقديرهن ، أمر جارح للكرامة ان يرين انفسهن يختلفن عن الذكور فى « التكوين » ! على ان هذا لا يمنعهن مع ذلك من الاعجاب بالجنس الآخر ، فيجب التحدث اليهن وافهامهن ان جميع الفتيات الصغيرات ، بل جميع النساء ، خلقن هكذا ! ويجب أن يوضح لهن أيضا انه من أشد الامور مضايقة لهن أن يحكمن على هذه المسألة بطريقتهن .. فليس هناك جرح للكرامة فى هذا « الاختلاف » بل هناك « أمر واقع » !! وعند الفتاة الصغيرة استعداد سريع لتقبل هذا « الاختلاف » .. وانه لفى نفس الوقت الذى تبدأ فيه هذه « العقدة » فى التكوين فى نفس الفتيات ، نرى ميلهن الى العرائس وقد بدأ يبين ويظهر ! .. وابتداء من ظهور هذا ــ الميل ــ نراهن لا يقلقن أنفسهن بهذا الموضوع !

وفى نفس تلك الفترة تظهر على بعض الاطفال انفعالات شديدة الوضوح ، عند احساسهم بالميل الى « التبرز » ، فيجب أن لا نقلق من صياحهم عند ما ينتابهم هذا الميل !

مسألة نظافة الطفل

◆ **كثير** من الامهات يحتمن على الطفل الذهاب « للتبرز » فى ساعات محددة ، مما يضطره فى غالب الاحيان الى بذل مجهود متعب لاتمام هذه العملية ، وقد يعجز رغم ذلك المجهود عن اتمامها .. فينبغى ان لا نبالغ فى تقدير أهمية التبرز لان الطفل قبل أن يبلغ العامين من عمره لا يملك قوة

عضلية كافية تكفل له انتظام هـذه العملية ، وعلى الاخص اذا كان وقت احساسه بالميل الى التبرز موزعا انتباهه على اشياء آخرى ٠٠ وفوق ذلك فانه ليس فى مقدوره الاهتمام بشيئين فى وقت واحد ٠ وان لعبـة ما من اللعب لتثير من اهتمامه اكثر مما تثيره حاجات بدنه ٠٠ فاذا وجد فى ملهى أو فى « سيرك » ففى وسعه ان يقفز الى احدى اللعب فى الوقت الذى ينتـابه الشعور بحاجته الى التبرز ٠٠

ونعود فنقول انه حتى انتظام هذه العملية عند الطفل يجب ان يكتسب « بحرية » ٠٠ فكم عدد الوالدين الذين لا ينتظرون الوقت المناسب ليتعود الطفل على هذا النظام ؟ ان النظافة التى تجىء قبل اوانها لنظـافة مزعزعة الاركان ، وهى معرضة للزوال اذا طرأ من الظروف ما يزعزع اركانهـا ٠٠ **وكثيرا ما يحدث ان يكون الطفل نظيفا فى السنة الأولى من مولده ، فاذا ما ذهب الى المدرسة فى سن الرابعة رأيناه يبلل فراشه ٠ وهنا تثور الأم، وتشكوه الى مديرة المدرسة ، وتطلب منها ان تكون قاسية معه جدا اذا ما عاد الى هذه الفعلة ! وانه لمسلك محزن حقا من جانب الام ، مسلك يزيد فى ازعاج الطفل٠٠ بينما يجب فى مثـل هـذه الحالات أن نتجنب اشـعار الطفل بأنه « مذنب » ، حتى يعـود الى النظافة بسرعة ومن تلقاء ذاته ٠٠ وذلك كأن يقال له مثلا :« انك تركز كل همك فى الاشياء المحيطة بك الى الحد الذى تنسى فيه نفسك ٠٠ ولا شك انك تفعل هذا عن غير عمد ! »**

وهذه التربية لها أهمية عظمى لانها وثيقة الصلة « بالجنس » ٠ ويجب أن ننتظر حتى تكون للطفل سيطرة « عضلية » على نفسه ، كأن يزن ايماءاته وحركاته ، قبل أن نطلب منه السيطرة على هذه الناحية من نظافة جسـمه

وفى هذه الحقبة من الزمن تبين على الطفل ظاهرة جديدة هى ظاهرة حبه لأن يفعل شيئا من أجل الآخرين ٠٠ فيجب أن نستغل هذه الظاهرة ، لا لنطلب منه مثلا ان يتبرز « ليرضينا » ، بل ان يفعل فعلا ايجابيا ، كأن يقفل أحد الابواب أو يحضر لنا أحد الاشياء ٠ وعلينا ان نعلمه كيف يتجانس ويتجاوب معنا٠٠أما نظافة الجسم فهى لا تزيد عن أن تكون وسيلة من الوسائل ليس الا، وليست غاية ٠٠ وهذه النزعات تبدأ فى الظهور على الطفل حـوالى سن السنتين ، فعلينا ان نساعده على ان يبنى ذاتيته ويكون شخصيته ، على ان نترك له « الحرية » ليعمل ما يعمل بمحض رغبته ٠٠ لا بالقهر !

بدء التربية الجنسية

◆ **ولنستعرض** الآن صعوبة أخيرة وهى الفترة التى يكتشف فيها الطفل أن عضو التناسل فيه خلق ليؤدى وظيفة أخرى ٠ فمن الخطورة بمكان أن يتدخل

الكبار فى حياة الولد الجنسية عن طريق الزجر أو النهى أو التوبيخ ٠٠ **فقد يسبب له التدخل بهذه الطريقة صدمة تكون لها عواقب عنيفة ومضاعفات شديدة فى حياته الجنسية برمتها عندما يكبر بعد ذلك ٠٠ وقد يدفعه الزجر أو النهى أو التوبيخ ، الى اعارة أهمية كبرى لبعض الحركات التى تكون حينئذاك عديمة المعنى فى نظره ٠٠ فاقامة حظر على الولد فى هذه الناحية يضره ضررا بليغا ويجعله ينتقل من الجو العادى النظيف الى الجوالملوث ٠٠ ومن الحياة المنتظمة الطبيعية الى الحياة الجنسية القلقة !!**

واذ لجأنا فى الناحية الجنسية الى التعبيرات السليمة معه ، أمكننا أن نحدثه عن الولادة مثلا ، فنبدأ حديثنا معه « بالكتكوت » وكيف يخرج من البيضة ، ودور الدجاجة فى هذا الموضوع وكيف تبيض وتفرخ ٠ ثم نتدرج معه الى التحدث عن ميلاد الطفل الذى يولد من امتزاج « نصفى حبتين » : نصف يأتى من الأب ، والنصف الآخر من الأم ٠٠ فنقول له مثلا ان نصفى الحبتين يكبران حتى يتكون منهما فى بطن الأم بيضة تتدثر فى بطنها بالدفء قبل ان يظهر الطفل الى عالم الوجود ، تماما كما تدثر الدجاجة بيضتها بالدفء قبل أن يخرج « الكتكوت » الى عالم الوجود !٠٠ **ولنوضح له كل شىء بغير لف أو دوران ٠٠ حتى لا يسبح خياله فى اشياء لا حدود لها ، وحتى لا يتصور فى هذه الناحية أمورا لا تمت الى الواقع والى الحقائق بصلة ٠** فهناك اطفال يتعذبون ويتألمون آلاما شديدة لانهم يتصورون انهم ولدوا من قلب الأم الذى انشق نصفين ليخرجوا هم منه الى هذا العالم !! ثم يقفز خيالهم الى تصور بشاعة الألام والعمليات الجراحية التى تحملتها أمهاتهم فى سبيل ولادتهم واخراجهم الى النور ٠٠ الخ

على أنه من الطبيعى انه يتعين علينا ألا نسبق الطفل فى معلوماته فنفرض عليه ما لم يسأل عنه ٠٠ **وعلينا أن نتعود عدم فرض رأى ما عليه ٠ اذ هنا أيضا يجب ان نتركه حرا ، فلا نقول له مثلا : « هذا الغذاء لذيذ فيجب أن تأكل !! » بل نقول له : « اذا كنت جائعا فيمكنك أن تأكل ٠٠ اننى أرى هذا الغذاء لذيذا وسيصبح الذ مذاقا عندى اذا اعجبك ! »**

وباختصار ، فان « قانون » تربية الطفل يتلخص فى هذه العبارة : « دع طفلك حرا ، ولكن كن أنت حرا بدورك ٠٠ وامنع طفلك من أن يضايقك فى نشاطك ، ولكن تجنب انت ايضا ان تضايقه فى نشاطه ! »

وفى العدد القادم تقرأ المحاضرة الثانية من هذه السلسلة

بقية المنشور صفحة ٩

رأيت وسمعت لك ٠٠ فى أوربا

ـ وهو أرقى ملاهى باريس الاستعراضية ـ يأخذك فى فترة الاستراحة الى قاعة أخرى فى الطابق الاسفل كى يعرض عليك ـ بأجر اضافى ـ ألوانا سقيمة من الرقص الشرقى المزيف ، الذى يقصد به ارضاء فضول السائحين السذج ، وابتزاز أموالهم ٠٠ **أما فى مصر ٠٠ فالسائح لا يكاد يجد ملهى واحدا انيقا نظيفا يرى فيه الرقص الشرقى التقليدى الذى ربما كان من اقوى العوامل التى اغرته بزيارة بلاد « الف ليلة وليلة » التى طالما سمع عنها ٠٠ فى الكتب !**

لقد أعجبنى الممتحن الذى وضع اسئلة امتحان الدور الثانى فى كلية التجارة منذ أيام ـ وقد علمت انه الدكتور أحمد أبو اسماعيل أستاذ الاقتصاد الصناعى بالكلية ـ فقد كان بين الاسئلة التى وجهها لطلبته هذا السؤال: «**تعتبر السياحة مصدر دخل قومى كبير لغيرنا من الدول كفرنسا وسويسرا وايطاليا ٠ فاذا كنت توافق على ان ظروف مصر ليست اقل مواتاة ، فما هى السياسة التى تراها جديرة بالاتباع لتشجيع وتنظيم السياحة فى مصر ؟**

وسأحاول ان اجيب على هذا السؤال فى الاعداد القادمة باذن الله

تحية ٠٠ الى الاقطار العربية الشقيقة

◆ **ليس** من دأب كتابى أن ينشر ما يوجه اليه من تحيات عاطرة مشكورة ، لا تهم القارىء كثيرا فيما أعتقد ٠٠ لكنى أسمح لنفسى بأن استثنى من هذا « الحظر » ، رسالة كريمة وصلتنى من الكاتب الاديب الاستاذ كليم أبو سيف ـ صاحب التضحيات المشرفة فى ميدان الجهاد الوطنى والسياسة المصرية منذ ربع قرن ـ وما كنت لأستثنيها لولا انى لا اعتبرها تنطوى على تحية لشخصى بقدر ما تنطوى على تحيات صادقة لابناء البلاد العربية الشقيقة عموما ، ولقراء (كتابى) منهم على وجه الخصوص ٠٠ فهى اذن موجهة اليهم اكثر منها الى، ومن ثم فليس من حقى أن أمسكها عنهم ٠٠ وما على الرسول سوى الابلاغ :

اخى الكاتب الاديب الاستاذ حلمى مراد

تحيتى اليك وسلامى عليك ، وبعد ٠٠ فانه ليسرنى ان أبعث اليك بهذه الرسالة من لبنان ، من الفندق المضياف الكريم الذى أقيم فيه بـ « بيت مرى » حيث أستمتع منذ أيام بجمال لبنان وسحره ، ونبل اخلاق أهله اللبنانيين الكرام الاعزاء ٠٠

وقد وصلت الى لبنان بعد رحلة استغرقت أياما فى المملكة الاردنية الهاشمية ، زرت خلالها (عمان) و (القدس) و (رام الله) وغيرها من المدن ، حتى استقر بى المقام حيث أنا الآن ٠٠

وكان من الطبيعى أن أعنى قبل أى شىء ـ وأنا أزور تلك البلاد الجميلة ـ بدراسة الحياة الادبية فيها ٠٠ فالادب ـ على حد تعبير « تاغور » فيلسوف

الهند الكبير ـ هو المبضع الذى يعالج أسقام الحياة ، بل هو الحياة !

وكانت أول مدينة استقرت بنا الطائرة فيها بعد مغادرتنا مطار القاهرة، هى مدينة عمان ٠٠ ولا اكتمك اننى لم اكن أتوقع ان أرى فيها مدينة عامرة جميلة التنسيق ، لا تقل مبانيها روعة عن أجمل ما تراه من مبان حديثة فى القاهرة ٠٠

ورحت أطوف أرجاء مدينة عمان الجديدة ، الجميلة ، الهادئة ، فمررت اولا بمكتباتها ومتاجر بيع الصحف والمجلات فيها ٠٠ فسرنى شىء ، وراعنى شىء آخر : فأما الشىء الذى سرنى فهو امتلاء هذه المتاجر بجميع الصحف والمجلات المصرية ، سواء ما كان يصدر منها يوميا ، أو أسبوعيا ، أو شهريا ٠٠ فأنت تستطيع أن تقرأ هناك نتاج المطابع المصرية على اختلاف الوانه دون أى عناء ٠٠ وقد سرنى هذا لان دلالته ومعناه أن الصحافة المصرية والأدب المصرى يحتلان مكانة مرموقة فى الاقطار العربية الشقيقة ٠٠

أما الشىء الذى راعنى فهو يتعلق بـ « كتابى » ٠٠ فقد رحت أطوف بالمكتبات واحدة اثر أخرى أسألها مستقصيا ومدققا عن « كتابى » : زرت مكتبات ومتاجر الصحف فى عمان والقدس ورام الله فى شرق الاردن ٠٠ وزرت مثيلاتها فى بيروت وجبال لبنان ٠٠ فراعنى أن أتلقى عن استقصائى جوابا واحدا منها جميعا ، جوابا كأنه منشور دورى موزع عليها كلها بغير استثناء ، وهذا الجواب هو : « لقد نفد (كتابى) ٠٠ فلا توجد منه نسخة واحدة باقية ! »

ولما سألت المشرفين على هذه الدور الصغيرة الانيقة عن سبب هذا النفاد السريع لنسخ « كتابى » ، كان الجواب واحدا منها على السواء : « ان العدد الذى يصلنا من « كتابى » يباع فور وصوله ٠٠ ولو أرسل الينا ضعفه لبيع فور وصوله أيضا ٠٠ ! »

راعتنى هذه الحقيقة وسرتنى غاية السرور ـ وأظنك ستشاركنى هذا الشعور ! ـ فلو أن « كتابى » كان مجلة ماجنة خليعة ، تستثير موضوعاتها الغرائز ، وتلهب صورها الحواس ٠٠ وذاع وانتشر ، لما كان فى ذيوعه وانتشاره ما يشرف البائع والمشترى معا ! أما وهو يقدم لقرائه أروع آثار الأدب فى تاريخ الأدب كله ، قديمه وحديثه ، فان ذيوعه يشرف صاحبه بقدر ما يشرف قارئيه ! ٠٠ وهذا الذيوع دليل قوى على ان الاقطار العربية الشقيقة لم تعد لتحفل الا بالجوهر ٠٠ وان الشباب والقراء فيها لا أثر للعبث والمجون فى اخلاقهم ، وانهم يقبلون على العلم والأدب الرفيع بلهفة وشوق يدعوان للاعجاب الكبير ! ٠٠ وحمدا لله على انه ليس للأدب وطن ،

فهو منذ القدم تراث انسانى شائع ، لكل فرد من الانسانية فيه نصيب •• والا ، فلو كان للأدب وطن ، ولو كان للأدب « جنسية » ، ولو كان للأدب « عصبية » •• لاعتزت كل أمة بأدبائها دون أدباء غيرها •• ولكانت هذه المكانة الرفيعة التى يتسنمها « كتابى » فى تلك الاقطار - ولا سيما فى سوريا ولبنان - أولى بها غيره من الكتب والمجلات التى تصدر فى مصر ، والتى لا تحتل نصف مكانته فيها ، بفضل دولية العلم •• وعالمية الأدب ••• وسمو الذوق الفنى والأدبى فى البلاد العربية الشقيقة العزيزة

فأهنئك ، وأرجو أن يكون ما صادفته حتى الآن من نجاح ، بفضل اخلاصك ودأبك على خدمة قرائك ، حافزا لك على المزيد •• مشجعا لك على تزويد قراء « كتابى » بما اعتدت تزويدهم به من الروائع والشوامخ التى جادت بها العبقرية الانسانية على الناس فى التاريخين القديم والحديث ••

ولقد صادفت فى بدء جهادك الادبى من الصعاب ما أعرفه تمام المعرفة•• وأعلن عليك بعض من محتكرى الاقلام ، ومعتصرى الكتاب - الذين يمنى لهم الأدب فى كل زمان ومكان - حربا عوانا ، تخطىء اذا ظننت أن أوارها قد انطفأ أو سينطفىء •• ولكن عزاءك هو فيما تلاقيه أنت ، وما يلاقونه هم ، فى مصر والعالم العربى كله من جزاء •• والسلام عليك حتى اللقاء ••

(بيت مرى) - لبنان — المخلص كليم أبو سيف

محتويات الكتاب

الموضوع **الصفحة**

مطابع شركة الاعلانات الشرقية



احد تماثيل « فينوس » ربة الجمال ، كما أقيم فى حدائق (بوبولى) بفلورنسا



« كيوبيد » اله الحب ومحبوبته « سايك » (تمثال للفنان كانوفا مقام فى بحيرة (كومو) بايطاليا)

كتابي

"كريمة" !

« آه .. كيف يجترئ أحد على أن يتهم الحب بشر أو خطيئة ؟! .. ان قلبي ، الذي كان قبل أن تملؤه كريمة ، لا يعبد غير ذاته ، وغير الشيطان .. قد غدا منذ عرفتها متبتلا ، يخر في صدري كلما لقيتها ، ساجدا لله في خشوع ، شاكرًا للسماء أنها وهبته حاضره السعيد .. متعبدا لها كي تديمه عليه !

« كنا دائما نلتقي في مشرب للشاي قريب من هنا ، ثم نخرج إلى إحدى الضواحي الهادئة ، فنسير متلاصقين نتهامس ، أو ننصت للطبيعة وهي تهمس بأحاديث الجمال والسحر والحب .. حتى نتعب فنجلس على أحد المقاعد الخشبية المتناثرة ، كي تغني لي كريمة بصوت خافت سماوي أغنية رقيقة .. بينما أهيم أنا في عينيها الحالمتين ، اللتين كانتا تحكيان لي في كل جلسة حلمًا جديدًا ، وأملًا أعذب من نسيم الفجر ، مسكرا كعطر الربيع ، ناعمًا كأوراق الورد .. وكبشرة خدها الخمري ! »

(من قصة " عيون حالمة " ، إحدى قصص هذا العدد)

شركة فن الطباعات ٥٨١٤٩